سلسلة الأئمة المصورة (4)

الإبداع الفكري

الإمام

أبو حنيفة النعمان

السيرة المصورة



أول كتاب مصور لتاريخ الإمام
أبي حنيفة النعمان

د. طارق السويدان

الدروس والعبر من السيرة الكاملة لحياة الإمام ومسيرته العلمية

هذا الكتاب



- يقدّم لك علماً من أعلام الأمـة، ونجماً من نجومها، وإماماً من أئمتها الأربعة المعتبرين فقهاً ورأياً وديناً وتقىً، هو الإمام (أبو حنيفة النعمان) لتتعرف على تفاصيل حياته الخاصة والعامة والعلمية.



- لم يكتف المؤلف بالأسلوب التقليدي للترجمة إنما عنون لكل حدث بما يناسبه، وحلّل وأبدع في استخراج العبر واستخراج الفوائد ليضيف إلى الترجمة طريقة تفكير العلماء والاستفادة من أخلاقهم.



- أضيفت للمادة العلمية كثير من الصور والرسومات المحترفة لتلك الحقبة الزمنية وأشهر شخصياتها والتي استوحيت من الأوصاف الدقيقة التي نقلها المؤرخون لتقرّب التاريخ إلى ذهن القارئ الكريم.

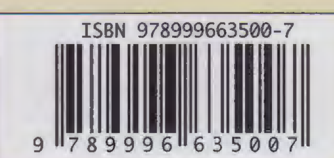


- يعتبر الإمام (أبو حنيفة النعمان) مدرسة جديدة ومبدعة ومنظّمة في استخدام الرأي بجانب الدليل الشرعي، فهو لا يلغيه أبداً ولا يتجاوزه وإنما يبدع ويتألق في طريقة استخدام الرأي بجانب الدليل الشرعي.



- لم نقصد من تقديم سيرة الإمـام (أبـي حنيفة) أن نمر على التاريخ أو نقدّم سيرة مجـرّدة، إنمـا أردنـا أن يتم الربط بين الحاضر والماضي بما يمكن الاستفادة منه والتأسيس به والبناء عليه، فمن لم يكن له ماضٍ يستضيء به فلن يكون له حاضر يتطلع إليه.




ISBN 978999663500-7
9 789996 635007

أبو حنيفة النعمان

الإمـــــــــام الأعـــــظـــم

د. طارق السويدان

تأليف د. طارق السويدان
dr-tareq@gulfinnovation.com

مدير المشروع أحمد علي شربجي
ahmad@ebdaaco.com

المراجعة والتدقيق أنس عبد الله سالم
anas@ebdaa.ws

رسومات د. ياسر نصر
ahmad@ebdaaco.com

تصميم وإخراج عبد العزيز عصمت العتريس
abdulaziz-71@hotmail.com

رقم الإيداع: 075 / 2011
الرقم المعياري الدولي: 7 - 00 - 35 - 99966 - 978

الناشر



شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

e-mail: info@ebdaastore.com - www.ebdaastore.com
هاتف: 22404854 - 22404883 - فاكس: 22491370
ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

الطبعة الأولى
أبريل 2011 م
جمادى الأولى 1432 هـ


إهداء

الفهرس







إهداء المؤلف

إلى علمائنا الأفاضل الذين تربينا على أيديهم، ورضعنا العلم والفكر والثقافة في جلساتهم، والذين لولاهم لم يكن مداد قلمنا اليوم ليخطّ هذه الصفحات، ولم تكن ألسنتنا لتنطق بالكلمات.

إلى مشاعل الأمة، وأبطال الحضارة، نهدي هذا الكتاب.

وإلى شباب أمتنا الرائعة نقدمه، ليستنهضوا الهمم بسيرة الإمام أبي حنيفة النعمان، وليمشوا على منوال هذا العالم العظيم...

لهم جميعاً مني هذا العمل المتواضع.

د. طارق السويدان



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد ﷺ، المبعوث رحمة للعالمين، معلماً هادياً، ومرشداً ناصحاً، فقّهَ الناس في دين الله تعالى، وبصّرهم بشريعته، وحضّ الناس على الفهم في دين الله تعالى، ومعرفة أحكامه وحِكَمه، وقال: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين".

أما بعد:

فإن الله تعالى الذي تكفل بحفظ هذا الدين سليماً نقياً، واضح المعالم كاملاً، نبراساً للمهتدين في كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قد قيّض لهذا الدين علماء، وأئمة مجتهدين، فسّروا كتابه، وبينوا أحكامه، وجمعوا وحفظوا سنة نبيه ﷺ، وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين لهم بإحسان، وأعملوا فهمهم وعلمهم في الكتاب والسنة وأقوال أئمة خير القرون وآرائهم، واجتهدوا فيما جدّ من القضايا التي ليس لها نصوص معينة، فجعلوا لها باجتهادهم حكماً، حتى خلّفوا لنا علماً أجاب عن كل مسألة، وحلّ كل عقدة، وهدى كل حائر، وحكم في كل قضية، ووضعوا قواعد شرعية جليلة، من خلال الكتاب والسنة، وفهمهم لها، ليحكم بها على حوادث كل عصر وقضاياه، وما يُظن أنه جديد في أحوال الناس ومعاملاتهم، وقد سار الفقهاء بعدهم سيرهم، وما يزالون يفعلون إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله تعالى.

لا تقع واقعة، ولا تحدث قضية مهما كان لونها، وأياً كان مكانها وزمانها ومجتمعها، إلا وفي شريعة الإسلام حكم فيها وبيان، لأن الإسلام دين الخلود، وبه فقط يصلح الزمان والناس، على ما ذكره الفقهاء من القرآن والسنة، وأقوال الصحابة، والتابعين، واجتهاد المجتهدين، أو ما قعّدوه من القواعد الشرعية الحكيمة.

وإننا لفي حاجة ماسة إلى عرض نبراس عظيم، ونور جليل في طريق شبابنا إلى الله تعالى، على درب العلم والهدى، والفقه والورع وشدة الدين، وإعزاز العلم، والترفع به عن لعاعة الدنيا، والجهر بالحق، ولو كان في ذلك بذل الروح لله رب العالمين.

وهذا النبراس الذي نرفعه اليوم في طريق الشباب المسلم هو: إمام الأئمة الفقهاء، أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله تعالى، ورضي عنه وأرضاه، سائلين الله تعالى أن ينفعنا به وبعلومه.

وقد بدأت هذا الكتاب بعرض سيرة هذا الإمام الجليل منذ ولادته، فتحدثت عن نشأته الأولى، وأسرته التي تربى في أحضانها، ثم بداية توجهه إلى طريق العلم وكيفية اختياره للنوع الذي اختصَّ به من العلوم وميله إلى الفقه..

ثم تحدثت عن أستاذه الكبير حماد بن أبي سليمان وحياته معه، وتلقيه العلم على يديه، وعن أساتذته الكبار العظماء من آل البيت ومن العلماء الكبار في زمانه..

وثنيت بالحديث عن تميز هذا الإمام العظيم في سماته الشخصية من الأناقة والعبادة والكرم والنصح وفكره الاجتماعي، ثم عن عقله الحر المستنير وعمق تفكيره، وبديهته الحاضرة وعبقريته في المناظرة..

وتكلمت بعد ذلك عن موارد رزقه وتجارته وأخلاقه التجارية الرائعة والفريدة..

ثم عن مواقفه السياسية مع الأمويين ثم مع العباسيين..

وفي الباب الثالث ذكرت علم هذا الإمام العظيم وفقهه العظيم وتقدمه فيه..

وعن حديثه وآرائه في رواية الحديث وأقوال المحدثين فيه..

ثم عن عقيدته وآرائه في الإيمان والقضاء والقدر ومسألة خلق القرآن..

وتحدثت عن مذهبه وتلاميذه وكتبه وعن انتشار هذا المذهب وأهم علمائه وكتبه..

وفي الباب الرابع تكلمت عن رحيل هذا العالم الفذ والإمام الجليل، والأقوال عند وفاته، وشهادة الناس فيه، وبعض ما ورد من أقواله..

وأنهيت الكتاب بخاتمة، والمراجع التي رجعت إليها أثناء كتابته..

أما الهدف من الكتاب فهو تسليط الضوء على حياة هذا الإمام الجليل بأسلوب جديد وعرض متميز لنبرز أمام شبابنا وأبنائنا القدوة الحسنة من خلال عرض سيرتهم وحياتهم وعظمة الأعمال التي قاموا بها، والجهد الذي بذلوه لحفظ هذا الدين ونشره..

لنسير على دربهم، وننهج منهاجهم، فنعيد للأمة عظمتها ومكانتها ونرفع لواءها عالياً، وما ذلك على الله بعزيز..

والحمد لله رب العالمين..

د. طارق محمد السويدان



لماذا أبو حنيفة؟

إلى الجيل الذي يتلفتُ يمنة ويسرة، يبحث عن الرجل الحر الشجاع، أقدّم هذا المثل العالي للحرية والشجاعة والكفاح.

إن أبصارنا يجب أن تتجه إلى المستقبل، وإلى الماضي معاً، لأن الماضي مركز الثقل الذي يحفظ توازننا، فلا نُقبل على المجهول إلا وفي أيدينا قدرٌ كافٍ من المعلوم، ولا نَرِدُ حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصادرنا وارتوينا، وإذا كنا إلى اليوم لم نغترف من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات؛ فلنرجع البصر كرّات إلى تاريخنا، ذاكرين أن العلاج لا يستورَد من الخارج إذا تحققت المناعة بإنهاض القوى الذاتية للجسم الحي.

لنُلقِ الدلاء حيث نحن، فما أزخر الأعماق عندنا بالكنوز.

إن الإمام أبا حنيفة، هو أكبر مستنبط للقوانين في الإسلام، والإمام الأعظم للأئمة والمشرعين، في كل نبضة من نبضات قلبه هداية، يزيّن علمه شجاعة نفس وكفاح متصل، كشفت للناس الفوارق بين العمل المؤقت لأبطال السياسة والحرب، والعمل المتصل لأبطال العلم والرأي، فتجلّى لهم مبلغ ما يبصرون من الجمال، ويصيبون من الخير في الحياة الدنيا، إذا ازّينت لهم بمصابيح الفقيه.

ولما تعارض الفكر والسلطان، أو الفقيه والخليفة، كانت كلمة الفكر هي العليا.

ألا إنَّ لنا في الإمام الأعظم قدوة حسنة، وتأسياً في التضحيات، ونحن في مفترق الطرق، فلنقتد بهداه، ولنأخذ من حضارتنا بالسبب الأول لنجاحها وهو السمو على ماديات الحياة، ولنتعظ بما اتعظ به أصحاب الحضارة الغربية التي أوشكت أن تعلن إفلاسها، لخلوها من عناصر الروح.

لنقتدي بأبطال حضارتنا، ونستمسك بأسباب نهضتنا.

لقد اعتزّ الإسلام بأسبابه، عندما استمسك أبناؤه بآدابه، فلما ضيّعوها بعبادة الذات والقعود عن التضحيات، فارقَ سلطانُهم أوجَه.

د. طارق محمد السويدان



الباب الأول

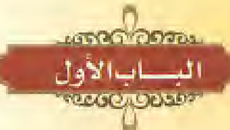
النشأة وطلب العلم


1



الفصل الأول 1

النشأة والأسرة



الفصل الأول: النشأة والأسرة

1 هويته

اسمه ونسبه

أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن زُوْطَى الفارسيّ، وهو المشهور، وعلى هذا فهو فارسي النسب، وقد كان جده من أهل كابُل، وأُسر عند فتح العرب لهذه البلاد، واستُرق لبعض بني تيم بن ثعلبة، ثم أُعتق، فكان ولاؤه لهذه القبيلة (المولى: هو العبد الذي تحرر، فيكون له أحكام فقهية خاصة تسمى الولاء). وكان تيمياً بهذا الولاء، هذه هي رواية حفيد أبي حنيفة عمر بن حماد بن أبي حنيفة عن نسبه.

ولكن يذكر إسماعيل أخو عمر هذا أن أبا حنيفة هو النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزُبان، ويقول: «أنا إسماعيل بن حماد ابن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزُبان من أبناء فارس الأحرار، والله ما وقع علينا رقّ قطّ».

الإمام أبو حنيفة



النسب الحقيقي

وسواء أكان الرقّ جرى على جدّه أم لم يجرِ، فقد وُلد أبو حنيفة وأبوه على الحرية، وليس يضير أبا حنيفة في قدره وعلمه، وشرف نفسه وغايته، أن يكون الرق قد جرى على جده أو على أبيه، فما كان شرفه من نسب ولا مال، ولكن كان جاهه من العلم والمواهب، والنفس والعقل، والتقى، وذلك هو الشرف.

ولقد قال المكيّ في هذا المقام: «اعلم أن التقوى أعلى الأنساب، وأقوى أسباب الثواب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: من الآية 13).

ولذا عدّ سلمان الفارسي رضي الله عنه من أهل البيت، فقال: «سلمان منا آل البيت». (صححه السيوطي).

وقال الشاعر:

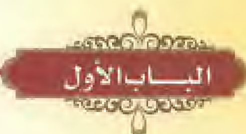
لعمرك ما الإنسانُ إلا ابنُ دينِه … فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ … وقد وضع الشركُ الحسيبَ أبا لهب





ولد أبو حنيفة ووالده حُرّين (وقيل: إن جده كان عبداً تحرر)، وشرفه الحقيقي علمه وأخلاقه..



2 مولده

وُلد أبو حنيفة رحمه الله بالكوفة، سنة ثمانين على القول الراجح، وهو ما ذكره الخطيب في روايته عن إسماعيل حفيد أبي حنيفة حيث قال:

«وُلد جدي في سنة ثمانين، وذهب ثابت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو صغير، فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته، ونحن نرجو من الله تعالى أن يكون قد استجاب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فينا».

قال: والنعمان بن المرزُبان، أبو ثابت، هو الذي أهدى لعلي بن أبي طالب الفالوذج في يوم النيروز، فقال: نوروزونا كل يوم.

وقيل: كان ذلك في يوم المهرجان، فقال: مهرجونا كل يوم.



النعمان بن ثابت يهدي الإمام علي الفالوذج

ولد أبو حنيفة عام 80 هـ في الكوفة في العراق، ولأسرته علاقة بأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ..

3 نشأته

بداية مع القرآن

نشأ أبو حنيفة بالكوفة، وعاش أكثر حياته فيها، في أسرة مسلمة، صالحة غنية كريمة، ولقد اتجه أول حياته إلى حفظ القرآن الكريم، ولقد كان بعد أن حفظه حريصاً على ألا ينساه، ولذا كان من أكثر الناس تلاوة للقرآن، حتى يروى أنه كان يختم القرآن مرات كثيرة في رمضان، وقد جاء من عدة طرق بروايات مختلفة: «أنه أخذ القراءة عن الإمام عاصم أحد القرَّاء السبعة».

نزعة عقلية

ولقد كانت نشأة أبي حنيفة رحمه الله في بيت من بيوت التجارة بالكوفة، إذ كانت أسرته تتجر في الخزّ (الثياب التي تكون من وبر أو صوف ويخالطها الحرير)، ولهذا كانت تجذبه أسرته نحو التجارة.

ومع ما كانت عليه حال أسرته من الميل الاقتصادي فقد كانت فيه نزعة عقلية تتجه به إلى الدراسات العقلية، وكان أبوه وجده من قبله -باتصالهما بالإمام علي رضي الله عنه - لهما منزع نحو التعمق في الإسلام، ذلك الدين الجديد الذي ملأ ضياؤه آفاق الشرق والغرب.

موطن المدنيات والحضارات

كان أبو حنيفة بالكوفة، بها وُلد، وبها نشأ، وبها عاش، وهي إحدى مدن العراق العظيمة، بل ثانية اثنتين: هما المصران العظيمان في ذلك الوقت.

والعراق - من قبل الإسلام ومن بعده - كانت فيه الملل والنحل، إذ كان موطناً لمدنيات وحضارات قديمة..

فمثلاً كان السريان قد انتشروا فيه، أنشؤوا لهم مدارس خاصة به قبل الإسلام، كانت مثابة لفلسفة اليونان وحكمة الفرس.

وكان العراق مزيجاً من أجناس مختلفة، وكانت فيه آراء تتضارب في السياسة وأصول العقائد.. وفيه الشيعة، وفي باديته الخوارج، وفيه المعتزلة.

وكان فيه - في عصر أبي حنيفة - تابعون مجتهدون، التقى بهم، ومِن قبلِهم كان فيه عبد الله ابن مسعود الذي بعثه عمر إليهم ليعلمهم الفقه، ويهديهم للسبيل الأقوم.. ثم كان فيه إمام الهدى علي بن أبي طالب رضوان الله عنهم أجمعين.



مدينة الكوفة

بواكير الشباب

فتحت عين أبي حنيفة فرأى - مع النزعة التجارية في أسرته - علم العراق وآثار الصحابة فيه، وأشع عقله، فانبثقت ينابيع فكره، فأخذ يجادل مع المجادلين، ونازل بعض أصحاب النحل بما توحي به السليقة المستقيمة، وكان ذلك في بواكير شبابه، أو في آخر صباه..

ولكنه مع ذلك كان منصرفاً في الجملة إلى التجارة، حرفة أسرته ومرتزقها، ويظهر أنه ما كان يختلف إلى العلماء إلا قليلاً في أوقات فراغه، وقد كرّس حياته على أن يكون تاجراً كأبيه.

نشأ أبو حنيفة في الكوفة، وكانت أسرته تتاجر بالحرير، ولكنه مال في وقت فراغه إلى العلم وخاصة بسبب انتشار العلم الشرعي على يد الصحابة والتابعين، وكثرة النقاشات مع الفرق المنحرفة..

4 العلماء غير العرب



ذكر أبو المؤيد الموفق المكي في بيان نسب الإمام وبيان أن العلم والقيم الفكرية والروحية لا تنحصر في العرب، ما يوضح موقف الإمام في الميادين الفكرية والدينية، ويظهر من قوله أنه في عصر هشام بن عبد الملك كان الفضل الأول في الفقه لغير العرب، ويذكر قصة ترشدنا إلى مدى تفقه العجم قبل العرب، إذ يقول:

روى عطاء عن أبيه أنه قال: دخلتُ على هشام بن عبد الملك بالرصافة، فقال: ياعطاء، هل لك علم بعلماء الأمصار؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال: مَن فقيه أهل المدينة؟ قلت: نافع مولى ابن عمر.

قال: أمولى أم عربي؟ قلت: لا، بل مولى.





قال: فَمن فقيه أهل مكة؟ قلت: عطاء بن رياح.

قال: أمولى أم عربي؟ قلت: لا، بل مولى.

قال: فمن فقيه أهل اليمن؟ قلت: طاووس بن كيسان.

قال: أمولى أم عربي؟ قلت: لا، بل مولى.

قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟ قلت: يحيى بن كثير.

قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا، بل مولى.

قال: فمن فقيه أهل الشام؟ قلت: مكحول.

قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا، بل مولى.

قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران.

قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا، بل مولى.

قال: فمن فقيه أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم.

قال: مولى أم عربي؟ قلت: لا، بل مولى.

قال: فمن فقيه أهل البصرة؟ قلت: الحسن وابن سيرين.

قال: موليان أم عربيان؟ قلت: لا، بل موليان.

قال: فمن فقيه أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي.

قال: مولى أم عربي؟ قلت: عربي.

قال: كادت نفسي تخرج، ولا يقول واحد عربي.

رواية أخرى

وجاء في العقد الفريد لابن عبد ربه، ما يشبه سؤال هشام بن عبد الملك عطاء، والرد عليه، ويذكر ما دار بين العالم ابن أبي ليلى وبين الوزير عيسى بن موسى -الذي كان شديد التعصب للعرب- بأنه سأله:

من كان فقيه العراق؟

فرد عليه: بأنه الحسن بن أبي الحسن.

قال: ثم مَن؟ قال: محمد بن سيرين.

قال: فما هما؟

فردّ عليه: موليان (غير عربيين).

ثم سأله: فمن كان فقيه مكة؟

قال: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وسلمان بن يسار.

قال: فما هؤلاء؟

فردّ عليه بأنهم موالي، فتغير لونه.

قال: فمن أفقه أهل قباء؟

فأجابه: بأن منهم ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد.

قال: فما كانا؟

قال: من الموالي، فاربد وجهه.

ثم قال: فمن فقيه اليمن؟

فأجابه: طاووس وابن منبه.

قال: فمن هؤلاء؟ قال: من الموالي.

فانتفخت أوداجه وانتصب قائماً، قال: فمن كان فقيه خراسان؟

قال: عطاء بن عبد الملك الخراساني.

قال: فما كان عطاء هذا؟ قال: مولى، فازداد وجهه تربداً واسوداداً حتى خفت منه.

ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟

قال: مكحول.

قال: ما كان مكحول هذا؟

قال: مولى.

فتنفس الصعداء متحسراً، ثم قال: فمن فقيه الكوفة؟

قال: فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عتبة وحمّاد بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم النخعي والشعبي.

قال: فما كانا؟

قلت: عربيان.

فقال: الله أكبر، فسكن جأشه.



إبراهيم النخعي



وبعد هذا نقول: إن الإسلام بسياسته العالية التي نبعت من مبدأ أعلى مما تصل إليه عقول البشر، مبدأ أسسه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم:39).

وأسسه المصطفى ﷺ في حديثه الشريف: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»..

هذا المبدأ هو الذي نشر الإسلام في الأرض، وأخذ يفتح البلاد بضوء هذه السياسة الإيجابية، ونشأ في ساحة الإسلام فلاسفة العجم والعلماء الأفذاذ، وعلماء وفلاسفة العرب، وتتلمذ العرب في مدرسة العجم، عند الأستاذ العجمي، وتتلمذ العجمي في مدرسة العرب عند الأستاذ العربي، ولا نجد في كتب محققيهم الإشارة إلى فضل العجم على العرب، ولا العكس، في الأمور العلمية.

كان معظم علماء الأمة في عصر أبي حنيفة والعصر السابق له من غير العرب تأكيداً للمنهج الإسلامي العظيم في المساواة بين الناس بشكل فريد في الحضارات..



الفصل الثاني 2

من الفلسفة إلى الفقه

الفصل الثاني: من الفلسفة إلى الفقه

1 إلى العلم والعلماء

طلب العلم شاباً

الملاحَظ في نشأة أبي حنيفة أنها تختلف عن نشأة باقي الأئمة الأربعة، مالك والشافعي وأحمد، الذين طلبوا العلم منذ نعومة أظفارهم، لكن أبا حنيفة لم يكن كذلك، فقد كان يعمل في التجارة، ويكثر التردد إلى السوق، وحدث له التحوُّل إلى العلم وهو شاب.

ساعة التحوُّل

يتحدث أبو حنيفة أن الذي دفعه إلى ساحة العلم هو الشعبي، العالم الفقيه المحدِّث، الذي وجد في ملامح أبي حنيفة من الفطنة والذكاء، وتباشير العبقرية ما جعله ينصحه بأن يحوّل اتجاهه إلى العلم.

يقول أبو حنيفة: مررتُ يوماً على الشعبي وهو جالس، فدعاني، فقال لي: إلى مَن تختلف (أي تكرر الزيارة)؟

فقلت: إلى السوق.

فقال: لم أعنِ الاختلاف إلى السوق، عنيتُ الاختلاف إلى العلماء.

فقلت له: أنا قليل الاختلاف إلى العلماء.

فقال لي: لا تفعل، وعليك بالنظر في العلم، ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظة وحركة..

قال: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذتُ في العلم، فنفعني الله بقوله.

انصرافه للعلم

انصرف أبو حنيفة إلى العلم أكثر وقته، وترك الاختلاف إلى الأسواق كثيراً، فقد علمها، وسبر أغوارها، وبقي العلم، فسبر أغواره.. وإنه لعميق، فانصرف إليه بأكثر وقته، وأصبح لا يختلف إلى السوق إلا قليلاً.

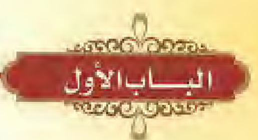
فليس معنى انصرافه إلى العلم، انقطاعه عن التجارة، ويظهر من الأخبار أنه كان يدير تجارته بالإنابة فيها مع الإشراف عليها، فكان لا يختلف إلى السوق إلا بمقدار ما يعرف به سير متجره.

فهو إذاً تاجر خبير في السوق تحول إلى العلم، مما جعله يتقن أحكام البيوع والمعاملات وينطق فيها عن علم..



تحول أبو حنيفة إلى العلم وهو شاب بناءً على نصيحة الإمام الشعبي الذي رأى فيه الفطنة، وكان قبل ذلك تاجراً، فساعده ذلك على فهم أعمق لفقه المعاملات..

الإمام أبو حنيفة تاجرا



2 الجدل مع أهل الفرق

كان أبو حنيفة رحمه الله بطبيعته وتركيبته يحب الجدل والنقاش المفصل، وكان صاحب حوار ومنطق وأدلة، تستهويه هذه المسألة ولا تزعجه، لأنها تعطيه فرصة لتحريك عقله.

وبعد أن اتجه إلى العلم لم يجد ما يملأ نزعة الجدل التي مرس بها صغيراً إلا علم الكلام (المنطق والفلسفة)، الذي كان يجادل فيه المعتزلة، والذين يتكلمون في العقائد والنحل المختلفة، ولذلك كان اتجاهه إلى الكلام، فأخذ يُذاكر العلماء في شؤون العقائد، ويقوم بالرحلات المختلفة إلى البصرة، ليجادل المعتزلة، ويتعلم ما عندهم، ويجادل الخوارج، ويتعرف فكرهم..

وهكذا استمر يتعرف ما عند الفرق المختلفة، ولكن قلبه النيِّر كان يثور أحياناً كثيرة، فيشعر أنه يسير على غير منهاج الصحابة والتابعين، وأنه يشغل نفسه بما يثير الجدل ولا يفيد، وليس فيه نور وشفافية، بل قسوة قلب وحدة لسان،

فَكَرِهَ هذا المنهج وهذا الجدل..



انتشار علم الكلام

من علماء المنطق

مضى رحمه الله تعالى في هذه السبيل من علم الكلام، وأصول الدين، ومجادلة الزائغين وأهل الضلال، حتى أصبح عَلَماً يشار إليه بالبنان، وهو ما يزال في العشرين من عمره، وقد اتخذ حلقة خاصة له في مسجد الكوفة، يجلس إليه فيها طلاب هذا النوع من العلوم.



لا تجادل

ومع أن أبا حنيفة ابتدأ حياته متكلماً، وقضى زمناً يجادل ويناظر، كان بعد ذلك ينهى أصحابه والمقربين إليه عن الجدل..

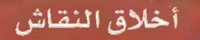
رأى رحمه الله ولده حماداً -الذي أصبح فيما بعد قاضياً فاضلاً وعابداً ورعاً- يناظر في الكلام فنهاه..

فقال حماد: رأيناك تناظر فيه وتنهانا عنه؟

فقال رحمه الله تعالى: «كنا نناظر، وكأن على رؤوسنا الطير، مخافة أن يزل صاحبنا (أي نجادل ونحن نتمنى ألا يخطئ أو ينحرف خصمنا)، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم! ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر، ومن أراد أن يكفر صاحبه، فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه».



أخلاق النقاش



تأملوا هذه الأخلاق السامية وفيها:

1 - بداية تصفية النية من وراء النقاش والحوار والجدل، فالهدف هو الوصول للحقيقة، وليس الانتصار على الخصم..

2 - ثم الحرص على الا يخطئ الخصم حتى يصل أحدهم إلى أن يكون في شدة الخوف (كأن على رأسه الطير) من أن يؤدي النقاش إلى أن يقول الشخص المقابل قولاً فيه خطأ أو انحراف..

3 - التحذير من حب الانتصار حتى لو كفر المقابل، ففيه خطورة على إيمان الإنسان نفسه..

4 - النهي عن النقاش لمن لم يتخلق بهذه الأخلاق والنيات..

قضى أبو حنيفة زمناً يجادل ويناظر أهل الفرق والانحرافات، ونبغ فيه حتى صار من البارزين في علم المنطق والفلسفة، ثم كان فيما بعد ينهى أصحابه والمقربين إليه عن الجدل، مَخافةَ أن يتمنوا الانتصار على الخصم ويتمنوا زلله وخطأه.



3 منهجية اختيار التخصص

أخذ أبو حنيفة في بداية تفكيره في العلم يتساءل: أي العلوم يأخذ؟ فقد أراد أن يتخصص في علم بذاته، لكي يجيده وينبغ فيه، وكان ذكياً فطناً، يقول في ذلك: لما أردتُ طلب العلم، جعلتُ أتخير العلوم، وأسأل عن عواقبها.

فقيل لي: تعلَّم القرآن.

فقلت: إذا تعلمت القرآن وحفظته، فماذا يكون آخره؟

قالوا: تجلس في المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث، ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك، أو يساويك في الحفظ فتذهب رياستك.

قلتُ: فإن سمعتُ الحديث وكتبته، حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني؟

قالوا: إذا كبرتَ وضعُفتَ، حدَّثتَ واجتمع عليك الأحداث والصبيان، ثم لا تأمن أن تغلط، فيرمونك بالكذب، فيصير عاراً عليك في عقبك.

فقلت: لا حاجة لي في هذا، ثم قلت: أتعلم النحو، فقلت: إذا حفظت النحو والعربية، ما يكون آخر أمري؟

قالوا: تقعد معلِّماً، فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة.

قلت: وهذا لا عاقبة له، قلت: فإن نظرتُ في الشعر، فلم يكن أحد أشعر مني، ما يكون آخر أمري؟

قالوا: تمدح هذا فيهب لك، أو يحملك على دابة، أو يخلع عليك خلعة، وإن حرمك هجوته، فصرتَ تقذف المحصنات.

قلت: لا حاجة لي في هذا، قلت: فإن نظرت في الكلام (أي علم المنطق والفلسفة)، ما يكون آخره؟

قالوا: لايسلم من نظر في الكلام من مشنّعات الكلام (أي الانحرافات التي فيه)، فيُرمى بالزندقة (أي الانحراف عن الدين)، فإما أن تؤخذ فتقتل، وإما أن تسلم فتكون مذموماً ملوماً.

قلت: فإن تعلمتُ الفقه؟

قالوا: تُسأل، وتفتي الناس، وتُطلَب للقضاء، وإن كنتَ شاباً.

فقلت: ليس في العلوم شيء أنفع من هذا، فلزمتُ الفقه وتعلمته.

إذاً نستطيع أن نلخص منهجية اختيار التخصص من خلال حديث أبي حنيفة رحمة الله عليه، بأنه كان يبحث عن علم:

1 - يرغب فيه بشرط..

2 - أن يكون له قدرة عليه..

وهذان أمران يعرفهما الإنسان من نفسه..

وبقي أن يستشير من له خبرة عن:

3 - الفرص المتاحة للتميز والنبوغ والحصول على منصب مناسب في الحياة من خلال ذلك التخصص.

إذاً هذه كانت أولى مراحل التفكير في العلم، والإقبال عليه عند أبي حنيفة، استعراض للعلوم والمقارنة بينها، والمفاضلة حول أيها يختار، فوجد أن الفقه هو أعلاها، وهذا تقديره، ونحن نقول: كل علم من هذه العلوم له أهميته ومكانته، ولا يمكن الاستغناء بعلم عن بقية العلوم.

ولكن كل علم يتناسب مع ثلاثة معايير بالنسبة للإنسان ويكون هو الأولى له، وهي:

1 - الرغبة.

2 - الفرصة.

3 - القدرة.



الإمام يسأل قبل أن يختار

اختار أبو حنيفة تخصص الفقه لأنه أنسب لرغبته وقدرته بعد أن تأكد من فرص العمل والنمو والتطور فيه مستقبلاً..

4 التوجه نحو الفقه

تلفّت أبو حنيفة، فوجد حلقات الفقه التي يملؤها علماؤه، يفيدون الناس في أمور دينهم، ويعلمونهم العلم العملي النافع، لا الجدل النظري، فراجع فكره، ولنتركه يذكر حديث نفسه، فقد قال: «كنت رجلاً أعطيتُ جدلاً في الكلام، فمضى دهر فيه أتردد، وبه أُخاصم، وعنه أناضل، وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرها بالبصرة، فدخلتُ البصرة نيّفاً وعشرين مرة، منها ما أُقيم السَّنة وأقل وأكثر (أي في كل الزيارات من التي زادت عن العشرين زيارة كان يقضي في البصرة أحياناً سنة أو أكثر)، وكنتُ قد نازعت طبقات الخوارج من الإباضية والصفرية، وطبقات الحشوية.. وساق الحديث إلى أن قال: «وكنتُ أعد الكلام أفضل العلوم، وكنت أقول: هذا الكلام من أصل الدين، فراجعتُ نفسي بعدما مضى لي فيه عمر، وتدبرت..».





الصدر الأول

ويتابع أبو حنيفة الحديث فيقول: «فقلت: إن المتقدمين من أصحاب النبي ﷺ والتابعين لم يكن ليفوتهم شيء مما ندركه نحن، وكانوا عليه أقدر وأعرف، وأعلم بحقائق الأمور، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين (أي لم يتزعموا ويتوجهوا نحو الجدل)، ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا (توقفوا) عن ذلك، ونهوا عنه أشدّ النهي، ورأيت خوضهم (تخصصهم) في الشرائع وأبواب الفقه، وكلامهم فيه، إليه تجالسوا، وعليه تحاضوا (شجع وحض بعضهم بعضاً).. كانوا يعلمونه الناس، ويدعونهم إلى تعلمه، ويرغبونهم فيه، ويفتون، ويستفتون، وعلى ذلك مضى الصدر الأول من السابقين، وتبعهم الناس عليه..».







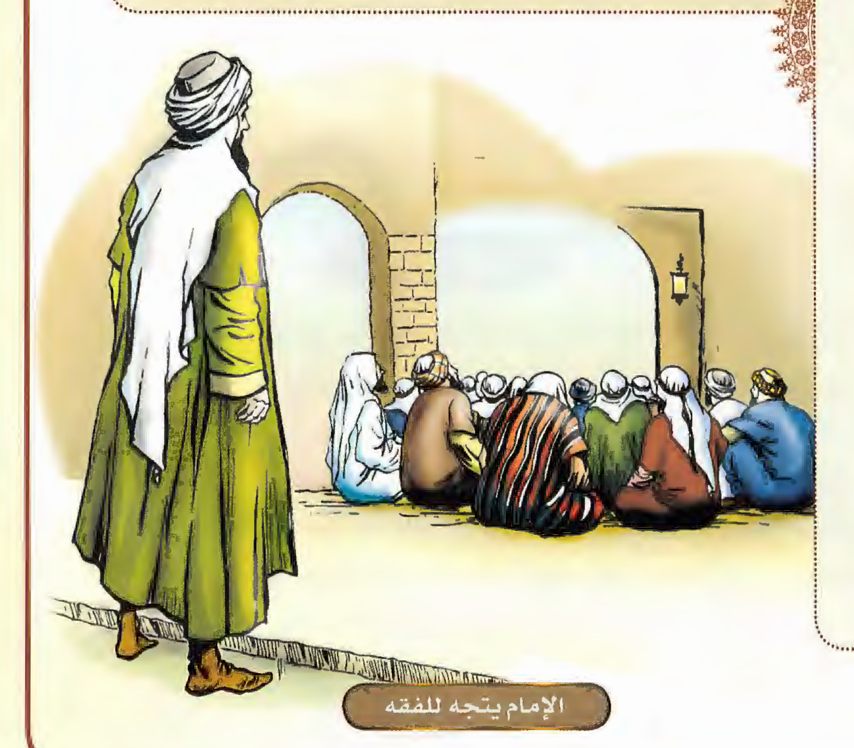
اكتفيت ورجعت

ويذكر أبو حنيفة بقية حديثه، فيقول: «فلما ظهر لي من أمورهم هذا الذي وصفت، تركت المنازعة والمجادلة، والخوض في الكلام، واكتفيت بمعرفته، ورجعت إلى ما كان عليه السَّلف، وجالستُ أهل المعرفة، وإني رأيتُ أن من ينتحل الكلام، ويجادل فيه، قوم ليس سيماهم سيما المتقدمين، ولا منهاجهم منهاج الصالحين.. رأيتهم قاسية قلوبهم، غليظة أفئدتهم، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح، ولم يكن لهم ورع ولا تقى، فعلمتُ أن لو كان في ذلك خير لتعاطاه (أي لتعمق فيه) السلف الصالح، ولم يتعاطه الأنذال، فهجرته ولله الحمد».

إلى الفقه

اتجه أبو حنيفة إلى الفقه، وقد درس علم الكلام، (وهو الجانب المختص في المنطق والفلسفة الذي يتصدى لبيان العقيدة، ويثبت حقائق التوحيد بالأدلة العقلية).. وكان قد حفظ بعض الحديث، وعرف النحو والأدب، وقد استفاد من هذا كله ثقافة واسعة غذّت فكره.

ولما اتجه إلى الفقه والحديث بقلبه وعقله وبكله، كان على بينة من الأمر، وبصر بالحقائق.



الإمام يتجه للفقه

نساء معلمات

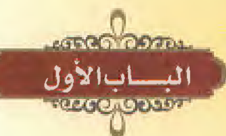
روى الحسن بن عبد الله العسكري بإسناده إلى أبي حنيفة قال: «خدعتني امرأة، وزهدتني أخرى، وفقهتني أخرى، فأما التي خدعتني، فإني كنتُ مجتازاً بظاهر الكوفة، فرأيتُ شخصاً يشير بأصبعه، فتوهمته أخرس، فتقدمتُ فإذا هي امرأة، تشير إليَّ بشيء مطروح على الطريق، فتوهمتُ أنه لها، فحملته إليها، فقالت: احتفظ به حتى يجيء صاحبه. (ويسمى في الشرع: لقطة، وهو ما يجده الإنسان ولا يعرف صاحبه، وعليه أن يحتفظ به ويعلن به حتى يجد صاحبه، ثم يكون ملكاً لمن التقطه بعد مرور سنة)، فهذه المرأة خدعتني بأن جعلتني مسؤولاً عن اللقطة بدلاً منها، ويدل ذلك على فقهها وتقواها..

وأما التي زهدتني (أي شجعتني على العبادة والزهد في الدنيا)، فهو أني اجتزتُ في طريق فيه نساء، فقالت واحدة منهن: هذا أبو حنيفة الذي يصلي الفجر بوضوء العتمة، فقلتُ: لأحققنَّ ظن الناس فيَّ، فتعبدتُ فصارت عادة لي. (وانظر إلى همته ونيته أن يكون خيراً من ظن الناس فيه).

وأما التي فقهتني، فسألتني عن مسألة من الحيض، فلم أعرف جوابها، فتشورتْ (خجلتْ)، فتفقهت حتى لا أحرج أحداً سألني بعد ذلك..



امرأة تخدع الإمام بأن تجعله مسؤولاً عن لقطة





إلى حلقة حمّاد

روى زُفَر رحمه الله تعالى قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «كنتُ أنظر في الكلام، حتى بلغتُ فيه مبلغاً يُشار إليّ فيه بالأصابع، وكنا نجلس بالقرب من حلقة حمّاد بن أبي سليمان.

فجاءتني امرأة يوماً فقالت: رجل له امرأة أراد أن يطلقها وفق السنة، فكيف يطلقها؟

فأمرتُها أن تسأل حمّاداً، ثم ترجع فتخبرني.

فسألتْ حماداً، فقال: يطلقها وهي طاهرة من الحيض والجماع تطليقة، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين، فإذا اغتسلتْ فقد حلّتْ للأزواج، فرجعتْ فأخبرتني.

فقلتُ: لا حاجة لي في الكلام، وأخذتُ نعلي، فجلستُ إلى حمّاد أسمع مسائله (أي قضايا الفقه التي يسأله الناس عنها، أو يختبر فيها تلاميذه)، فأحفظ قوله، ثم يعيدها من الغد، فأحفظ ويخطئ أصحابه.

فقال: لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة».



مكانة الفقه

لقد أراد الله بأبي حنيفة رحمه الله وبالمسلمين الخير الكثير، والنفع العميم، فاستجيبت فيه دعوة علي رضي الله عنه لجده ولذريته، ورجاء الشعبي له خاصة، فاتجه إلى الفقه.

والفقه زبدة القرآن الكريم والسنة المطهرة، ففي الفقه تفسير لآيات الأحكام من القرآن الكريم ودلالتها، وفيه معرفة معانيها ومقاصدها، وفي الفقه كذلك شرح السنة المطهرة دلالتها، وفيه معرفة معانيها ومقاصدها، ذلك لأن الفقه هو الفهم في الدين، وهل الفهم فيه إلا معرفة أصوله ومقاصده، وإحالاته ودلالاته وإشاراته، عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (رواه البخاري).



أنتم الأطباء

وقد تكون الآية الكريمة عند القارئ، والحديث الشريف عند الحافظ، ولا يعرف كلٌّ تمام مقصد ومعنى ما عنده، حتى يأتي الفقيه فيبين معاني الآية، ويشرح معاني الحديث.

كان أبو حنيفة رحمه الله في زيارة شيخه الأعمش يوماً، فجاء إلى الأعمش رجل يسأله عن مسألة في العلم. فقال لأبي حنيفة رحمهما الله: أجبه.

فأجاب أبو حنيفة.

فقال له الأعمش: ومن أين لك هذا؟

قال أبو حنيفة: من حديث حدثتنيه هو كذا وكذا.

فقال الأعمش: حسبك، ما حدثتك به في سنة تحدث به في ساعة!! أنتم الأطباء ونحن الصيادلة. (أي أن علماء الحديث عندهم الأدوية وعلماء الفقه يعرفون متى وكيف يستعملونها).



كره أبو حنيفة علم المنطق والفلسفة، لما يورثه من قسوة قلب ولعدم تعمق الصحابة والتابعين فيه، ولما حدثت أمامه مسائل عرف منها قلة علمه، واتجه نحو الفقه وصار تلميذاً عند حماد.



الأعمش: أنتم الأطباء ونحن الصيادلة



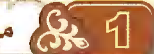


الأستاذ الأول: حماد بن أبي سليمان



الفصل الثالث: الأستاذ الأول: حماد بن أبي سليمان

1 مع حماد بن أبي سليمان





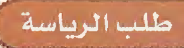
18 عاماً من الصحبة

انتقل أبو حنيفة رحمه الله بكليته إلى شيخه حماد، الذي علمه الفقه حتى بزّ أقرانه، وتجاوز أمثاله وسابقيه في حلقة شيخه لحفظه وأدبه، حتى أدناه منه شيخه فجعله في صدر حلقته، والتزم عنده، وانقطع إليه ثماني عشرة سنة.

ويذكر أبو حنيفة سبب ملازمته لحماد طيلة هذه السنوات، يقول: رأيت فيه علماً عظيماً، ورأى الشيخ في أبي حنيفة قوة في الحفظ، وإقبالاً على الدرس، وامتيازاً على رفاقه، بالإضافة إلى العقل والذكاء الفذ، فكان يقول لهم: لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة، لشدة حفظه.

وهذا من شأن العلماء والقادة أن يختاروا من بين تلاميذهم من يتأملون فيه النبوغ فيركزون عليه..

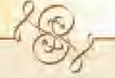




طلب الرياسة

يقول أبو حنيفة: فصحبته عشر سنين، ثم نازعتني نفسي لطلب الرياسة، فأحببتُ أن أعتزله، وأجلس في حلقة لنفسي، فخرجت يوماً بالعشي، وعزمي أن أفعل، فلما دخلتُ المسجد فرأيته، لم تطب لي نفسي أن أعتزله، فجئت وجلست معه، فجاءه في تلك الليلة نَعْيُ قرابة له، قد مات بالبصرة، وترك مالاً، وليس له وارث غيره، فاضطر حماد للسفر إلى البصرة، فأمرني أن أجلس مكانه وأدرِّس بدلاً عنه..

(وكثير من العلماء كانوا في بداية عهدهم عندهم شيء من التطلع للدنيا، فإذا تعمقوا في العلم زهدوا في الدنيا والمناصب، وصار علمهم خالصاً لله رب العالمين).



مزيد من التلقي

يقول أبو حنيفة: «..فما هو إلا أن خرج حماد إلى البصرة حتى وردت عليَّ مسائل لم أسمعها منه، فكنتُ أجيب، وأكتب جوابي، فغاب شهرين، ثم قدم فعرضت عليه المسائل، وكانت نحواً من ستين مسألة، فوافقني في أربعين، وخالفني في عشرين، فآليت على نفسي أن لا أفارقه حتى يموت، فلم أفارقه حتى مات.».

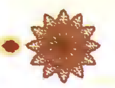
وقال أبو حنيفة: قدمتُ البصرة فظننت أني لا أُسأل عن شيء إلا أجبتُ فيه، فسألوني عن أشياء، فلم يكن عندي فيها جواب، فجعلتُ على نفسي أن لا أفارق حماداً حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة.

وفي هذا توجيه لطلبة العلم ألا يظنوا أن علم العالم الذي يعلمهم قد انتهى إذا بدأ يكرر ما عنده، فالكثير من دقائق العلم وتفاصيله تحتاج إلى سؤال من طالب نجيب لتظهر، أو موقف خاص لكي يجيب العالم عليها، ولذا قال الأقدمون: (حسن السؤال نصف الإجابة).

حرص حماد على ملازمة أبي حنيفة لذكائه وقدراته العلمية، وحرص أبو حنيفة على ملازمة حماد 18 سنة لعمق علمه..

مع أستاذه حماد بن أبي سليمان

2 البر والأدب مع أستاذه



خادم حماد وخليفته

واستمر أبو حنيفة على هذه الحال من الصحبة والملازمة ثماني عشرة سنة، حتى مات حماد رحمه الله تعالى، واتفق أصحاب حلقة الدرس على أن يخلفه أبو حنيفة في الدرس، فكان خير خَلَف لخير سَلَف، حيث أن أبا حنيفة حفظ وفقه إجابات العلماء السابقين كما تعلمها من حماد، وحفظ كذلك آراء حماد وفتاواه وترجيحاته، ويوضح ذلك القصة التالية:

أخرج أبو الشيخ ابن حيان في طبقات محدِّثي أصبهان، عن عاتكة أخت حماد بسنده إليها.

قالت: كان أبو حنيفة النعمان ببابنا يندف قطننا، ويشتري لبننا وبقلنا، وما أشبه ذلك.

فكان إذا جاءه الرجل يسأله عن المسألة، قال له أبو حنيفة: ما مسألتك؟

قال الرجل: كذا وكذا.

قال أبو حنيفة: الجواب فيها كذا، ثم يقول أبو حنيفة: على رِسْلك (أي انتظر)، فيدخل إلى حماد، فيقول له: جاء رجل فسأل عن كذا وكذا، فأجبته بكذا، فما تقول أنت؟

قال حماد: حدثونا بكذا، وقال أصحابنا: كذا، وقال إبراهيم كذا.

فيقول أبو حنيفة: فأروي عنك؟

فيقول حماد: نعم، فيقول أبو حنيفة: قال حماد: كذا، وهكذا كان شأنه معه ملازمة وخدمة متوارثين.


يقف بباب شيخه حماد

البرُّ بالأستاذ

كان أدب أبي حنيفة مع شيخه حماد موضع العجب، فلقد كان يقصده في بيته، ينتظره عند الباب حتى يخرج لصلاته وحاجته، فيسأله ويصحبه، وكان إذا احتاج شيخه إلى شيء قام هو على خدمته، وكان إذا جلس في بيته لا يمد رجليه جهة بيت شيخه حماد، وكان إذا صلى دعا لشيخه حماد مع والديه.

فليتعلم طلبة العلم هذا الأدب ويطبقوه قبل أن يحرصوا على الاستزادة من المعلومات فقط.

عن ابن سماعة أنه قال: سمعتُ أبا حنيفة يقول: ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والديّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه علماً، أو علَّمتُه علماً.

وقال أيضاً: ما مددتُ رِجلي نحو دار حماد إجلالاً له، وكان بين داري وداره سبع سكك.

قال الموفق المكي في ذلك:



الإمام يدعو لأستاذه حماد

نُعمانُ كان أبرَّ الناس كلهم	بوالديه وبالأستاذ حماد
قد كان يدعو له ما عاش مجتهداً	شائي بذا كل محمود وحماد
وكان يفتح بالحماد دعوته	ولا يحابي لآباء وأولاد
أبو الإفادة أولى بالبداية من	أبي الولادة عند الواحد الهادي
ما مدّ رجليه يوماً نحو منزله	ودونه سكك سبع كأطواد



حب الأستاذ لتلميذه

عن يونس بن بُكيرة قال: سمعت إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان يقول: غاب أبي غيبة في سفر له، ثم قدم، فقلت له: يا أبتِ إلى أي شيء كنتَ أشوق؟

قال: وأنا أرى أنه يقول: إلى ابني، فقال: إلى أبي حنيفة، ولو أمكنني أن لا أرفع طرفي عنه لفعلت.



أبو حنيفة عرف حق أستاذه، فقدّره واحترمه، وكان باراً به في حياته وبعد موته، فكان يستغفر ويدعو له في كل صلاة، وما كان يمدّ رجليه نحو داره احتراماً، وبينهما سبع سكك، وكذلك أحب الأستاذ تلميذه.

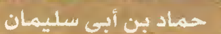


3 من هو حماد؟

هو حماد بن أبي سليمان الأشعري بالولاء، لأنه كان مولى لإبراهيم بن أبي موسى الأشعري.

نشأ بالكوفة، وتلقى فقهه على إبراهيم النخعي، وكان أعلم الناس برأيه، وقد مات سنة 120 هـ.

ولم يتلقَ فقط فقه النخعي، بل تلقى مع ذلك فقه الشعبي، وهذان الاثنان قد أخذا عن شريح وعلقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وأولئك قد تلقوا فقه الصحابيين عبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وقد أورثا أهل الكوفة بإقامتهما فيها فقهاً كثيراً، هو عماد الفقه الكوفي، فبفتاويهما وفتاوى تلاميذهما الذين نهجوا نهجهما تكوّن ذلك التراث الفقهي العظيم.


حماد بن أبي سليمان

فقه الرأي

تلقى حماد كما رأيت فقه إبراهيم النخعي، وفقه الشعبي، ولكن يظهر أنه كان الغالب عليه فقه إبراهيم، وهو فقه أهل الرأي، لأن الشعبي كان فقيهاً أقرب إلى فقهاء الأثر منه إلى فقهاء الرأي، ولو أنه عاش بالعراق، وكانت دراسته فيه، إذ إن طريقة فقهاء الرأي كانت مبغضة له، ولم يرتضها.

الينبوع الأكبر

لزم أبو حنيفة حماداً ثماني عشرة سنة، وأخذ عنه فقه أهل العراق الذي كان فيه خلاصة فقه علي وعبد الله بن مسعود، وأخذ عنه بالذات الفتاوى التي كانت لإبراهيم النخعي، ومما لا شك فيه أن ملازمة أبي حنيفة لحماد، وكون حماد أعلم الناس بفقه إبراهيم النخعي، فيه الدلالة الكافية على أن الينبوع الأكبر لفقه أبي حنيفة ومنهجه في فقه الرأي ما ورثه حماد عن إبراهيم.

وصف حماد

قال عنه الذهبي: «العلّامة، الإمام، فقيه العراق.. أصله من أصبهان، روى عن أنس بن مالك، وتفقّه بإبراهيم النخعي، وهو أنبل أصحابه وأفقههم، وأقيسهم، وأصبرهم بالمناظرة والرأي.. وكان أحد العلماء الأذكياء، والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجمل».

إلى أن قال: «فأفقه أهل الكوفة عليّ وابن مسعود، وأفقه أصحابهما علقمة، وأفقه أصحابه: إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم: حماد، وأفقه أصحاب حماد: أبو حنيفة، وأفقه أصحابه: أبو يوسف، وانتشر أصحاب أبي يوسف في الآفاق، وأفقههم: محمد، أبو عبد الله الشافعي، رحمهم الله تعالى».

حماد بن أبي سليمان من أعظم علماء العراق، مات عام 120هـ، تلقى العلم على يد كبار العلماء كالشعبي والنخعي وهذا كان يميل لفقه الرأي، فتأثر به حماد، ومن ثم مال أبو حنيفة للعقل والرأي..



تلميذ العظماء

لم يكن اختيار أبي حنيفة لشيخه حماد دون سبب ظاهر، وإنما لأن حماداً كان يركز تركيزاً شديداً على علم الصحابة الأولين، وخاصة الذين عُرفوا بالعلم الغزير، وبالذات عمر وعلي وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم.

يقول أبو حنيفة: دخلتُ على أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين، فقال لي: يا أبا حنيفة، عمَّن أخذتَ العلم؟ قلت: عن حماد، عن إبراهيم، عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله ابن عباس.

فقال أبو جعفر: بخٍ بخٍ، استوثقتَ ما شئت يا أبا حنيفة، الطيبين، الطاهرين، المباركين، صلوات الله عليهم.

وفي رواية أخرى عن الربيع بن يونس قال: دخل أبو حنيفة يوماً على المنصور، وعنده عيسى بن موسى، فقال للمنصور: هذا عالِم الدنيا اليوم.

فقال له: يا نعمان، عمّن أخذت العلم؟

قال: عن أصحاب عمر عن عمر، وعن أصحاب علي عن علي، وعن أصحاب عبد الله عن عبد الله، وما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم من عبد الله بن عباس.

قال: لقد استوثقت لنفسك.



أبو جعفر المنصور يسأل الإمام عن مصدر علمه

يجب أن يستوثق الإنسان لنفسه في طلب العلم، وينظر عمّن يأخذ، وكذلك كان أبو حنيفة، استوثق لنفسه فأخذ عن أصحاب عمر وعلي وعبد الله رضي الله عنهم.

4 أساتذة حماد

أولاً: إبراهيم النخعي

هو إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يصفه صاحب حلية الأولياء فيقول: التقي، الفقيه، الرضي، شيخ حماد، هو من كبار التابعين، كان فقيه العراق ومحدِّث العراق، اتصف بالورع والتقوى، وعُرف بالزهد والعبادة، وكان متوقياً للشهرة، ثقة، ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

أفقه الناس

مات النخعي في زمن الحجاج سنة 96هـ، وكان في الخمسين من عمره، ودفن بالليل، فلما صار الصبح قال لهم الشعبي: دفنتم ذلك الرجل الليلة؟

قالوا: نعم.

قال: دفنتم أفقه الناس..

قالوا: أفقه من الحسن؟

قال: أفقه من الحسن ومن أهل البصرة، ومن أهل الكوفة، وأهل الشام وأهل الحجاز.



مع الإمام إبراهيم النخعي



مكانة إبراهيم النخعي

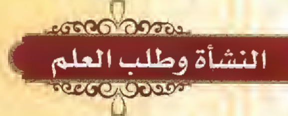
كان سعيد بن جبير إذا سُئل، قال: تستفتوني وفيكم إبراهيم النخعي؟!
هكذا كانت مكانة إبراهيم، ومع ذلك كان في منتهى التواضع، ولا يحبُّ أن يفتي، فإذا سُئل أجاب، وكان يتخلّق بأخلاق العلماء في الدعوة إلى العدل، واستنكار الظلم.
رأى إبراهيم النخعي أمير حلوان يسير في زرع، يدوس عليه ويخربه، فقال إبراهيم: الجَور (الظلم) في الزرع، خير من الجَور في الدين. ينبهه إلى ظلمه.
وتلقى أبو حنيفة العلم من أستاذه حماد الذي تلقاه من النخعي ومعه كذلك أدب النخعي ورفضه للظلم..

عامر الشعبي

ثانياً: عامر الشعبي

من أعلم التابعين

هو صاحب إبراهيم النخعي وتوأمه في العلم، وإبراهيم مات قبل الشعبي بسبع سنوات.
كان الشعبي من أئمة فقهاء المسلمين في الكوفة وغيرها، أدرك من أصحاب النبي ﷺ خمسمائة صحابي، استمع إليهم وأخذ من علمهم، وكان للشعبي حلقة عظيمة لعلمه، رغم أنه من التابعين وفي المسجد عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وفي ذلك يقول ابن سيرين: قدمتُ الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير.



موسوعة علمية

وكان يُعتبر مَجمعاً من الثقافة الدينية والأدبية والحكمة، وكان فقيهاً جليلاً، ومحدِّثاً صدوقاً، وحكيماً، وكان أديباً يردِّد الشعر، وله مواقف في الشعر مع الأخطل في حضرة عبد الملك بن مروان، وكان زوجاً لأخت الأعشى، وكان الأعشى زوجاً لأخته.

ويقول الزهري: العلماء أربعة: ابن المسيِّب بالمدينة، والشعبي في الكوفة، والحسن البصري في البصرة، ومكحول في الشام.

ومن هنا نرى أن هذا التنوع العلمي انتقل إلى تلاميذ الشعبي، ومن ثم تلميذهم أبي حنيفة.

على نهج عمر

وكان الشعبي يقول: إذا اختلف الناس في شيء، فانظروا كيف صنع عمر، فإن عمر لم يكن يصنع شيئاً حتى يشاور، والمشاورة في أمور الفقه تعني الإجماع أو الترجيح.

فالشعبي أخذ برأي عمر، لأن عمر كان لا يصدر فتاواه إلا بالمشاورة، فيرى أن آراء عمر ليست خاصة بعمر، وإنما آراء منطلقة من مشورة الصحابة في ذلك الوقت.

وكان يميل إلى الجانب الأسلم، ويفتي بالاحتياط في بعض القضايا، ويميل إلى القصد في الأحكام، وبالذات ما كان متصلاً بالشؤون العامة.

موقفه من الصحابة رضي الله عنهم

كان موقفه من الصحابة موقفاً كريماً، في وقت كثُر فيه التكلم عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين والتقوُّل عليهم.

سُئل يوماً: ما تقول فيما قال فيه الناس في هذين الرجلين؟

فقال: أيّ هذين الرجلين؟

فقيل له: علي وعثمان رضي الله عنهما.

فقال: إني والله لغنيٌّ أن أجيء يوم القيامة خصيماً لعلي وعثمان رضي الله عنهما، وغفر لنا ولهما.

وهذا هو المنهج الذي سار عليه أبو حنيفة رحمه الله تعالى كذلك..

الشعبي الحكيم

للشعبي أقوال تجري مجرى الحكمة، منها: لا تمنعوا العلم عن أهله فتأثموا، ولا تحدِّثوا به غير أهله فتأثموا.

ويقول: ما بكيتُ من زمان إلا بكيت عليه.

ويقول: البس من الثياب ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبه عليك العلماء.

ومن أقواله اللطيفة: أنه قال لرجل: اسقني أهون موجود، وأشدّ مفقود، قال: ماذا؟ قال: اسقني الماء. (ينبه إلى نعمة الله وفضله في الماء، وهي نعمة يغفل عنها أكثر الناس).

وله أقوال في الفتوى هي أقرب للحكمة، منها: من زوّج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها.

ومن أدبه: أن رجلاً سبّه سباً شديداً، فقال الشعبي لهذا الرجل: إن كنتَ صادقاً غفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً غفر الله لك.

ونرى أن أبا حنيفة قد تأثر بهذا الأسلوب الحكيم الذي تلقاه من أستاذه حماد تلميذ الشعبي..



الثعلب والذئب

ومن لطائف الشعبي كذلك: قال: مرض الأسد فزاره السباع إلا الثعلب.

فقال الذئب: أيها الملك مرضتَ فعادتْكَ السباع إلا الثعلب.

فغضب الملك، وقال: إذا حضر فأعلمني.

فوصلتْ الأخبار إلى الثعلب، وماذا قال عنه الذئب، فجاء الثعلب إلى الملك.

فقال الأسد للثعلب: يا أبا الحُصين، عادني السباع كلهم، فلم لم تعدني؟

قال: بلغني مرض الملك، فكنت في طلب الدواء لك.

قال: أي شيء أصبت؟

قال: علمتُ أن علاجك خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تُخرج، فهجم الأسد على الذئب وأخذ يمزِّق ساقه.

فانسلّ الثعلب وخرج وجلس على الطريق.

وبعد قليل خرج الذئب والدماء تسيل من ساقه.

فناداه الثعلب وقال: يا صاحب الخفّ الأحمر (يشير إلى الدماء على ساقه)، إذا قعدتَ بعد هذا عند السلطان، فانظر ماذا يخرج من رأسك، واختر كلامك ولا تتقوّل، أما هذه المرة فقد خرجت من رجلك، (يعني: المرة القادمة ستخرج من رأسك).

والشعبي في القصة ينبه إلى أن الذين يكونون بطانة عند الأمراء والحكّام والسلاطين يجب أن يكونوا أهل صدق وأمانة وتقوى وورع، وحرص على عدم أذى الناس.

وكذلك تلقى أبو حنيفة هذا المنهج وصار شديداً فيه كما سنرى في آرائه السياسية..



ثورة العلماء



كان الشعبي ممن شارك مع النخعي في الثورة على عبد الملك بن مروان لما بدأ ظلم بني أمية يظهر.

فخرج العلماء في ثورة عظيمة، تسمّى ثورة الأشعث، وتسمّى ثورة العلماء أو ثورة المحدثين، مع عبد الرحمن ابن الأشعث، فأرسل عبد الملك بن مروان جيشاً بقيادة الحجاج، فهزم جيش الأشعث وقضى على الثورة..

وبدأ الحجاج يقتّل الذين ثاروا، لا يفرّق بين عالم وجاهل، بل كان أشدَّ على العلماء.

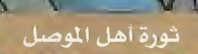
وقُبض على الشعبي وجيء به إلى الحجاج، يقول: لما انتهيت إلى باب القصر، لقيني يزيد بن أبي مسلم، فقال: إنا لله يا شعبي لما بين دفتيك من العلم، وليس بيوم شفاعة (أي أنك مقبل على الموت)، وبوء للأمير بالشرك والنفاق على نفسك (أي نافِق حتى تنجو).

يقول الشعبي: ولقيني محمد بن الحجاج، فقال لي مثل هذا القول.

فلما دخلتُ عزمتُ على الصدق، فدخلتُ على الحجاج، فقال: وأنتَ يا شعبي فيمن خرج علينا وكثّر؟! قلت: أصلح الله الأمير، أحزن بنا المنزل، وأجدب الجناب، وضاق المسلك، واكتحلني السهر، واستحدثنا الخوف، وبدأ يعتذر، فنحن خرجنا نريد إقامة الحق فما استطعنا.

فقال الحجاج: صدق والله، أطلقوه لصدقه. فنجاه الصدق.

ونلاحظ أن هذا الفقه السياسي في تغيير المنكر بالقوة انتقل من الشعبي إلى تلاميذه، وتأثر أبو حنيفة بذلك كما سنرى..



ثورة أهل الموصل



سفير الروم

بعد أن عفى عبد الملك بن مروان عن الشعبي لصدقه وعلمه أحب أن يستفيد من علمه وذكائه وحكمته، فاختاره سفيراً لملك الروم، ووافق الشعبي لما في هذا الأمر من فائدة للإسلام.

فذهب إلى ملك الروم سفيراً، وأخذ الملك يسأله، فما سأله عن مسألة إلا أجاب عليها أحسن جواب.

فبدأ يسأله عن غير قضايا السياسة، مثل قضايا الدنيا والحكمة والعلم، فوجد شيئاً عجيباً، اهتز له ملك الروم وانبهر.

فلما أراد الشعبي العودة بعد أيام طويلة من البقاء، استأذن للخروج.

فسأله ملك الروم: أمن بيت الملك أنت؟

قال الشعبي: لا، ولكني رجل من العرب.

فكتب ملك الروم رسالة، وأغلقها وختمها، وأعطاها للشعبي، وقال: إذا أوصلت الرسائل إلى صاحبك عبد الملك بن مروان أوصل إليه هذه الرقعة.

يقول الشعبي: فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك بن مروان، وأُنسيت هذه الرقعة، فلما صرتُ في بعض الديار تذكرتها، فرجعت وأوصلتها إلى أمير المؤمنين.

فلما قرأها عبد الملك بن مروان قال لي: أقال لكَ شيئاً قبل أن يدفعها إليك؟

قلتُ: نعم، قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟

قلت: لا، ولكنني من العرب في الجملة، ثم خرجت، فلما بلغتُ الباب، رُددتُ.

فقال عبد الملك: أتدري ما في الرقعة؟





قلت: لا.

قال: اقرأها.

فقرأتها، فإذا فيها: عجبتُ من قوم فيهم مثل هذا، كيف ملّكوا غيره.

فقلت للخليفة: والله لو علمتُ ما فيها ما حملتها، فإنه إنما قال هذا لأنه لم يركَ (أي لو رآك ملك الروم يا أمير المؤمنين ما فضلني عليك).

قال عبد الملك: أفتدري لمَ كتبها؟

قلت: لا.

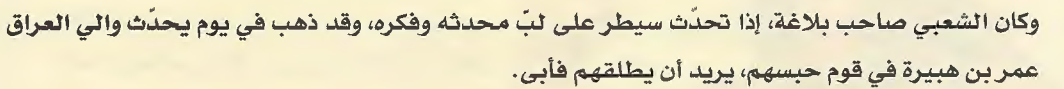
قال عبد الملك: وراءها شيء.

قلت: ماذا؟

قال: حسدني عليك، فأراد أن يغريني بقتلك.

فهذا ملك الروم يحسد المسلمين على وجود الشعبي بينهم، وهذا عبد الملك قد عرف قدره في العلم الشرعي وسياسة الدنيا.





درر الحديث

وكان الشعبي صاحب بلاغة، إذا تحدّث سيطر على لبّ محدثه وفكره، وقد ذهب في يوم يحدّث والي العراق عمر بن هبيرة في قوم حبسهم، يريد أن يطلقهم فأبى.

فقال الشعبي: أيها الأمير، إن حبستهم بالباطل، فالحق يخرجهم، وإن حبستهم بالحق، فالعفو يسعهم، فأطلق الأمير سراحهم.

وكان رحمه الله إذا تحدّث يفيض لسانه بدرر الحديث، كان جالساً يوماً وعنده أعرابي، وكان الأعرابي صامتاً طوال الوقت، فقال الشعبي: ألا تتكلم؟

فقال الأعرابي: أسكتُ فأسلم، وأسمع فأعلم، إن حظ المرء في أذنه له، وفي لسانه لغيره.

فكانت حكمة عظيمة تعلمها الشعبي وطبقها في حياته، فلا يتكلم إلا بالدرر.



لحن الأمير

والشعبي صاحب أدب، قال له الحجاج يوماً: كم عطاءَك في السنة؟ بفتح الهمزة، والصواب أن يقول: كم عطاؤك؟ بضمها.

فقال الشعبي: ألفين.

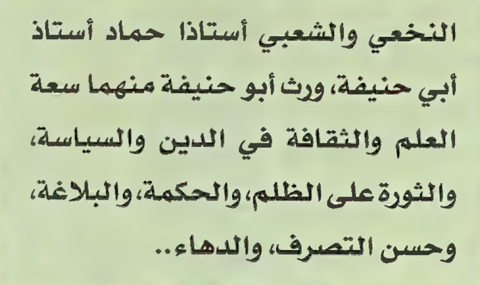
والصواب أن يقول: ألفان، فقال الحجاج: ويحك، كم عطاؤك؟

فقال: ألفان.

قال: كيف لحنتَ أولاً؟ (اللحن هو الخطأ في اللغة).

قال: لحن الأمير فلحنتُ، فلما أعربَ أعربتُ، ولا يمكن أن يلحن الأمير، فأُعربَ أنا.

وفي هذا دلالة على القدرة اللغوية وكذلك الفطنة والذكاء وحسن التصرف.



النخعي والشعبي أستاذا حماد أستاذ أبي حنيفة، ورث أبو حنيفة منهما سعة العلم والثقافة في الدين والسياسة، والثورة على الظلم، والحكمة، والبلاغة، وحسن التصرف، والدهاء..



رؤيا صادقة

روي عن أبي حنيفة أنه قال: رأيتُ رؤيا أفزعتني، حتى رأيت كأني أنبش قبر النبي ﷺ، فأتيت البصرة، فأمرتُ رجلاً يسأل محمد بن سيرين، فسأله، فقال: هذا رجل ينبش أخبار النبي ﷺ .

وفي رواية: رأى أبو حنيفة في النوم كأنه ينبش قبر رسول الله ﷺ، فبعث من سأل له محمد بن سيرين، فقال محمد بن سيرين: مَن صاحب هذه الرؤيا؟ فلم يجبه عنها، ثم سأله الثانية، فقال مثل ذلك، ثم سأله الثالثة، فقال: صاحب هذه الرؤيا يثير علماً لم يسبقه إليه أحد قبله، قال هشام: فنظر أبو حنيفة، وتكلم حينئذ.



الفصل الرابع 4

تلميذ أهل البيت الكرام



الفصل الرابع: تلميذ أهل البيت الكرام

وتلقى أبو حنيفة العلم كذلك من أهل بيت الرسول ﷺ، وكان أبو حنيفة محباً لأهل بيت النبي ﷺ حباً عظيماً، وكيف لا يحبهم وحبهم عبادة! ونحن نحب آل بيت رسول الله ﷺ ونصلي ونسلم عليهم في كل صلاة.

ومن هؤلاء الأئمة:



1 محمد الباقر

محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنه، أبو جعفر الباقر.

قال عنه الذهبي: الإمام، الثبت، الهاشمي العلوي، المدني، أحد الأعلام.. وكان سيد بني هاشم في زمانه، اشتهر بالباقر من قولهم: بقر العلم، يعني شقَّه، فَعَلِمَ أصله وخفيَّه.

ومع أنه من آل البيت، كان لا يذكر الخلفاء الثلاثة إلا بخير وتقدير لفضلهم، يروى أنه ذكر بحضرته أبو بكر وعمر وعثمان من بعض أهل العراق بسوء، فغضب وقال مؤنباً: أنتم من المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم؟!

قالوا: لا. قال: أنتم من الذين تبوؤا الدار والإيمان؟! قالوا: لا. قال: ولستم من الذين جاؤوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان. قوموا عني، لا قرّب الله داركم، تقرون بالإسلام، ولستم من أهله.

وقال سالم بن أبي حفصة: سألت أبا جعفر وابنه جعفر بن محمد عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالم، تولهما، وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى، وعنه قال: ما أدركت من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما.

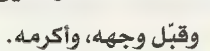


محمد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنه، أبو جعفر الباقر، من قولهم: بَقَر العلم، إمام، ثبت، سيد بني هاشم في زمانه، لا يذكر الخلفاء الثلاثة إلا بخير، ويقول: تولّهما، وابرأ من عدوهما.



اللقاء الأول

كان الباقر على علم غزير، ويظهر أن التقاء أبي حنيفة به كان في أول نشأته وظهوره بالرأي، وقد كان أول لقاء له بالمدينة، وهو يزورها، فإنه يروى أنه قال له: أنتَ الذي حوّلتَ دين جدي وأحاديثه بالقياس؟ فقال أبو حنيفة: معاذ الله، فقال محمد: بل حولته، فقال أبو حنيفة: اجلس مكانك، كما يحق لك، حتى أجلس كما يحق لي، فإن لك عندي حرمة، كحرمة جدك ﷺ في حياته على أصحابه، فجلس، ثم جثا أبو حنيفة بين يديه، ثم قال: إني سائلك عن ثلاث كلمات، فأجبني، الرجل أضعف أم المرأة؟ فقال محمد: المرأة، فقال أبو حنيفة: كم سهم المرأة؟ فقال: للرجل سهمان، وللمرأة سهم، فقال أبو حنيفة: هذا قول جدك، ولو حولت دين جدك، لكان ينبغي في القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان، لأن المرأة أضعف من الرجل، ثم قال: الصلاة أفضل أم الصوم؟ فقال: الصلاة أفضل، قال: هذا قول جدك، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضي الصلاة ولا تقضي الصوم، ثم قال: البول أنجس أم النطفة؟ قال: البول أنجس، قال: فلو كنتُ حولت دين جدك بالقياس، كنتُ أمرتُ أن يغتسل من البول، ويتوضأ من النطفة، ولكن معاذ الله، أن أحول دين جدك بالقياس، فقام محمد فعانقه، وقبّل وجهه، وأكرمه.



في أول لقاء جرى بين أبي حنيفة، ومحمد الباقر، وكان أول ظهور أبي حنيفة واشتهاره بالرأي، جرى حوار بينهما عن القياس ومدى اتباع أبي حنيفة للسنة، فتبين له أنه على حق، فقام محمد وعانقه، وقبّل وجهه وأكرمه.



مع محمد الباقر

2 عبد الله بن الحسن

عبد الله بن الحسن

وكان من شيوخ أبي حنيفة:عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، من أئمة أهل بيت النبي ﷺ، عالم جليل، له شرف وهيبة، حسن البيان، وكان موضع التقدير والاحترام والتكريم من كبار العلماء، ومن عامة الناس، حتى يقول مصعب بن عبد الله: ما رأيت أحداً من علمائنا يكرمون أحداً مثلما يكرمون أبا محمد عبد الله بن الحسن، وكان محدِّثاً ثقة صدوقاً، إذا حدَّث يقولون: هذه الرواية الصادقة، روى عن أبيه وأمه، وعن ابن عم جده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والأعرج وعكرمة، وأما الذين رووا عنه فكثير من الأئمة، من بينهم الإمام مالك، والإمام سفيان الثوري، وغيرهما.

عبد الله بن الحسن من شيوخ أبي حنيفة، من أئمة أهل البيت، محدِّث، ثقة، صدوق، روى عنه كثير من الأئمة، وكان عالماً جليلاً، حسن البيان، له شرف وهيبة، عند العلماء وعند العامة.

3 جعفر الصادق

الإمام جعفر بن محمد المشهور والمعروف بالصادق، لصدقه وفضله، كان فقيهاً عظيماً، ومحدِّثاً صدوقاً، من أئمة أهل السنة والجماعة، روى عن أبيه، وعن معاصريه من فقهاء أهل البيت، كما روى عن عطاء، وعن عكرمة، وعن عُبيد الله بن أبي رافع، وعن عبد الرحمن بن القاسم.

وروى عن الإمام جعفر عدد كبير من أئمة أهل السنة وفقهائهم، مثل الإمام مالك، والإمام الثوري، وابن عيينة، والإمام مسلم بن حجاج أخذ عنه في صحيحه عدة أحاديث.

جعفر بن محمد الصادق، فقيه عظيم، ومحدِّث صدوق، روى عن كثيرين من العلماء، وروى عنه كثيرون، له أحاديث في صحيح مسلم.



مكانته

وكان الإمام جعفر رحمه الله من السماحة، ورحابة الصدر، وسعة الأفق، بحيث كان يرى ضرورة وحدة الفكر عند المسلمين، ويقول: إياكم والخصومة في الدين؛ فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق.

وكان يقول: لا يتمّ المعروف إلا بثلاثة؛ بتعجيله، وتصغيره، وستره.

وكان صاحب حكمة، لما سُئِل: لمَ حرّم الله الربا؟ قال: لئلا يمانع الناس المعروف.

جاء في المناقب للموفق المكي: «أن أبا جعفر المنصور قال: يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيئ له من المسائل الشداد، فهيأ له أربعين مسألة، وإن أبا حنيفة يقول، عندما دخل على أبي جعفر وهو بالحيرة: أتيته فدخلت عليه، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق، ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه، وأومأ، فجلست، ثم التفت إليه، فقال: يا أبا عبد الله، هذا أبو حنيفة، فقال: نعم.. ثم التفت إليّ، فقال: يا أبا حنيفة، ألقِ على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلتُ ألقي عليه، فيجيبني، فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربما تابعنا، وربما تابعهم، وربما خالفنا، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخلَّ منها بمسألة، ثم قال أبو حنيفة: «إن أعلم الناس، أعلمهم باختلاف الناس».

ويقول أبو حنيفة: والله ما رأيتُ أحداً أفقه من جعفر الصادق.

توفي الإمام جعفر الصادق سنة 148هـ، أي قبل وفاة الإمام أبي حنيفة بسنتين.

رحابة الصدر، وسعة الأفق، والسماحة، كانت تزيّن الإمام جعفر، ولقد سأله أبو حنيفة أربعين مسألة، ما أخلَّ بواحدة منها، فقال أبو حنيفة: إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس. توفي الإمام جعفر سنة 148 هـ.



وحيد عصره

كان أبو حنيفة رحمه الله يتلقى العلم من كل من كانت له قوة في ناحية من نواحيه، وإن انحرف في بعض تفكيره، يأخذ منه موضع نفعه، ويتجنب موضع ضره، يميز طيبه من خبيثه، فيجني طيبه، ويلفظ خبيثه، والانتقاء بهذا الشكل لا يستطيعه إلا أقوياء العقول، الذين علا أفق تفكيرهم، ولم تستهوهم فكرة معينة، تمنعه من تعرف الخير في غيرها، وأبو حنيفة في هذا كان وحيد عصره.





لم يترك أبو حنيفة أحداً في عصره، عنده خير في ناحية من النواحي، إلا وأخذ ما عنده من نفع، ويتجنب ما عنده من خبيث، والتمييز والانتقاء بهذا الشكل، لا يقدر عليه إلا أقوياء العقول، فكان أبو حنيفة وحيد عصره في ذلك.





المسلك الوسط

لقد كان العلماء في عصره أحد رجلين: رجل يقتصر على فقه الإسلام لا يعدوه، ولا يتجاوز أقطاره، وإن اتسع أفقه في التخريج والرأي، ورجل أخذ يدرس العقائد ويتفلسف في فهمها، وتؤديه الفلسفة في غير علم بلب الدين ومراميه إلى الانحراف عن أغراضه ومعانيه أحياناً، ولم يكن ثمة من يجمع بين الدراسات الفقهية المحكمة العميقة، والدراسات العقلية التي حكمها الدين، وسيرها في طريق لا غلو فيه، ولا شطط، ولا انحراف عن المقصد الأسمى.

فسلك أبو حنيفة ذلك المسلك الوسط، الذي لم يسلكه سواه، وبلغ فيه الشأو والغاية، ولذلك طلب العلم من كل أبوابه، وسلك فيه كل مسالكه، واتجه إلى كل غاية، بعقل مسيطر قويم، ودين قوي متين، ونفس لوامة ناقدة فاحصة.

الجمع بين الدراسات الفقهية المحكمة العميقة، والدراسات العقلية التي حكمها الدين، دون شطط أو انحراف، مسلك لم يسلكه أحد قبل أبي حنيفة، فلما جاء أبو حنيفة سلك ذلك المسلك الوسط، وبلغ فيه الشأو والغاية.

مصابيح الزمان

لقد كان الإمام أبو حنيفة حريصاً على اللقاء والاستفادة من العلم وأهله، وقد تيسر له في خمس وخمسين سنة أن يلتقي بأربعة آلاف شيخ، وأن يأخذ عنهم، ما بين مكثر منه ومقل، ولو حديثاً أو مسألة، قال الإمام أبو حفص الكبير بعد أن ذكر عدد شيوخ الإمام رحمه الله: وقد صنّف في ذلك جماعة من العلماء، ورتبوهم على ترتيب حروف المعجم، وجُعلوا في مجلد.

هؤلاء هم أساتذة الإمام أبي حنيفة، فيهم من الكوفة، وفيهم من المدينة، وفيهم من أهل النقل، وفيهم من أهل الرأي، فيهم أصحاب المذاهب، وأصحاب الأقوال، وأصحاب العقائد، والفقهاء، والمحدثون، وعلماء القراءات، وعلماء اللغة.

كان هؤلاء هم شيوخ أبي حنيفة، الذين هدوا الناس بعلمهم وأدبهم وخلقهم، فكانوا مصابيح الزمان.

تلقى أبو حنيفة العلم من نحو أربعة آلاف شيخ، بين مكثر ومقل، وكانوا من فِرق ومذاهب مختلفة.







الفصل الخامس 5

الأساتذة العظام



الفصل الخامس: الأساتذة العظام

1 ينابيع العلم



انصرف أبو حنيفة في دراساته العلمية إلى الفقه، واستخراج الأحكام من الكتاب والسنة، والبناء عليهما، وتتبع آثار السلف الصالح، وتعرف ما كان موضع اتفاقهم، وما جرى فيه اختلافهم، لا يخرج من أقوالهم، ولكن يختار من بينها..

ولكن عمّن أخذ الفقه؟ لقد سئل هو هذا السؤال، فأجاب: « كنت في معدن العلم والفقه، فجالستُ أهله، ولزمتُ فقيهاً من فقهائهم».

هذه الجملة التي قالها أبو حنيفة في تربيته العلمية، وفي دراساته الفقهية، تدل على أن أبا حنيفة عاش في وسط علمي ونشأ فيه، وأنه جالس العلماء الذين كانوا في هذا الوسط، وأخذ منهم، وعرف مناهج بحثهم، ثم اختار من بينهم فقيهاً، وجد فيه ما يرضي نزوعه العلمي، فلزمه، واختصه بهذه الملازمة، وإن لم يهجر سواه، فهو كان يذاكر العلماء غيره أحياناً.



أبو حنيفة عاش في وسط علمي ونشأ فيه(أي في مكان كان العلم فيه متوافراً، وجالس العلماء الذين كانوا فيه، وأخذ منهم، وعرف مناهجهم، واختار فقيهاً من بينهم فلزمهم، لكن لم يهجر سواه.



الكوفة معدن العلم

ومعدن العلم الذي أشار إليه أبو حنيفة هو الكوفة، التي كانت مرجع علم الفلسفة والعقائد، وكانت تناظر المدينة في الدراسات الفقهية، وهي وإن لم تبلغ شأوها في علم الآثار، فقد سارت بعيداً في البناء على النصوص، وقياس ما لا نص فيه على ما فيه نص، فقد آل إليها علم علي بن أبي طالب، وعلم عبد الله بن مسعود، وطائفة من كبار الصحابة، وتبعهم في ذلك علقمة التابعي، وإبراهيم النخعي.

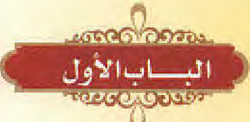
وكان إبراهيم النخعي وتلاميذه من بعده يستخرجون الأسباب والعلل التي بُنيت أحكام القرآن والسنة عليها، وإذا أدركوا علة الحكم طبقوه في كل ما تثبت فيه هذه العلة، ويختبرون أقيستهم، ويناظرون..

وفي هذا الجو الفقهي عاش أبو حنيفة أثناء طلبه للفقه، وأثناء بلوغه الشأن فيه، وبعد أن صار شيخ الكوفة وفقيه العراق.

الكوفة معدن العلم كما قال أبو حنيفة، فقد سارت شوطاً بعيداً في البناء على النصوص والقياس، وآل إليها علم فقهاء الصحابة والتابعين، الذين كانوا يستخرجون الأسباب والعلل، ويقيسون ويناظرون.



تلاميذ إبراهيم النخعي





تنوع الموارد

اتصل أبو حنيفة وهو طالب للفقه، بشيوخ من نحل مختلفة وفرق متباينة، فلم يكونوا جميعاً من فقهاء الجماعة، ولم يكونوا جميعاً من الفقهاء الذين يستبيحون القياس والرأي في الدين والفقه.

فقد تلقّى عن طائفة من التابعين الذين يقفون عند الآثار والحديث ولا يتجاوزون ذلك.

وتلقى عن تلاميذ ابن عباس فقه القرآن الكريم، وكان ابن عباس رضي الله عنهما أعلم الصحابة الذين عاصروه بعلم القرآن وفقهه، حتى وقيل عنه: ترجمان القرآن، وكانت إقامة تلاميذ ذلك العالم الجليل ابن عباس بمكة، وقد أقام بها أبو حنيفة رحمه الله ست سنين منفياً مضطهداً، وهو ذو الفكر القوي، والعقل الواعي، فكانت فرصة انتهزها لدراسة فقه الآثار، وفقه القرآن، فوق ما درسه في الكوفة من فقه القياس.

التقى أبو حنيفة بشيوخ من مذاهب مختلفة، ومناهج متباينة، منهم من يستبيح القياس، ومنهم من يقف عند النص لا يتعداه، وكانت فترة إقامته بمكة فرصة انتهزها لدراسة فقه الآثار، والقرآن فوق ما درس في الكوفة من فقه القياس.



عناصر مختلفة

وأبو حنيفة كان بإقامته الأصلية في الكوفة، متصلاً بفرق الشيعة المختلفة، كالزيدية والإمامية والإسماعيلية، ولكل أولئك أثر في فكره، وإن لم يُعرف عنه أنه نزع منازع هؤلاء، إلا في محبته لآل النبي ﷺ، وعترته الأطهار.

وكان مَثَله في تلقيه عن أهل العراق، وأهل مكة، وغيرهم، وجمعه بين المنازع المختلفة، كمَثَل مَن يتغذى من عناصر مختلفة، ثم يتمثل هذه العناصر كلها، فيخرج منها ما يكون به قوام الحياة.

وكذلك كان أبو حنيفة يأخذ من كل هذه العناصر، ثم يخرج منها بفكر جديد، ورأي قويم، لم يكن من نوعها، وإن كان فيه خيرها.

مَثَل أبي حنيفة في تلقيه عن أهل العراق ومكة، وغيرهم، كمَثَل من يتغذى من عناصر مختلفة ثم يتمثلها، فيخرج منها ما يكون به قوام الحياة، وكذلك فعل أبو حنيفة، أخذ من كل هذه العناصر، ثم خرج منها بفكر جديد، ورأي قويم.

الموجهون

لا بد لنا أن نذكر كلمة عن كل شيخ من شيوخ أبي حنيفة، الذين اتصل بهم، وكان له لون فكري معين، لنعرف جملة الينابيع التي استقى منها، والموارد التي توارد عليها، وبها تستبين نواحي ثقافته الفقهية.

وأبرز هؤلاء الشيوخ، بعد شيخه حماد الذي قدمنا ترجمته، هو مَن لزمه، وهو:

2 سعيد بن جبير

ومن أعظم من تلقى الإمام الجليل العلم منهم: سعيد بن جبير، من الموالي، وكان أسود اللون، لكنه كان أحد أعلام التابعين الذين برزوا في العلم، والإسلام لم يفرّق بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود، وإنما فرَّق بالعلم والتقوى، سعيد بن جبير عالم، قارئ، فقيه، كان إذا قرأ في رمضان بالقرآن يجتمع الناس بأعداد هائلة، فكان ليلة يقرأ بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيرهما من القراء، وكان قد وصل في العلم إلى القمم، فقد قيل: إن أعلم التابعين بالطلاق: سعيد بن المسيّب، وبالحج: عطاء بن رباح، وبالحلال والحرام: طاووس، وبالتفسير: مجاهد، وأجمعهم لذلك كله: سعيد بن جبير. وكان الحسن البصري يقول عندما قَتل الحجاج سعيدَ بن جبير: اللهم اِيت على فاسق ثقيف.

والإمام أحمد بن حنبل عرف قدر وفضل سعيد بن جبير، وبينه وبينه سنوات، فكان يتحسَّر على قتله وهو ما زال في سن العطاء ويقول: قتلَ الحجاج سعيد بن جبير، وما على الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه.

وكان أهل الكوفة إذا أتوا إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يستفتونه، يقول: أليسَ فيكم ابن أم الدهماء؟ (يعني سعيد بن جبير).


سعيد بن جبير



سعيد بن جُبير كان أحد أعلام التابعين الذين برزوا في العلم، وكان عالماً بالقراءات، وصل في العلم إلى القمم، وحزن العلماء على قتله كثيراً، يقول أحمد بن حنبل: قتل الحجاجُ سعيدَ بن جبير وما على وجه الأرض من أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه.



3 عطاء بن أبي رباح

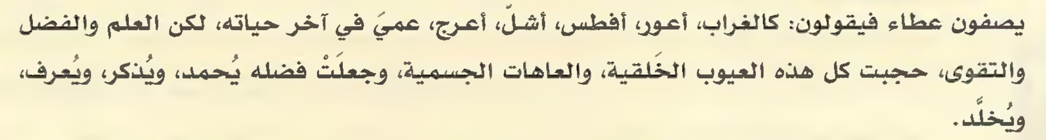
هو عطاء بن أبي رباح، واسم أبي رباح: أسلم القرشي، مولاهم المكي، مفتي أهل مكة ومحدثهم، قال عنه الذهبي: «الإمام شيخ الإسلام، مفتي الحرم، أبو محمد القرشي، مولاهم المكي، يُقال: ولاؤه لبني جمح».

وقال عنه ابن حجر: «ثقة، فقيه، فاضل، لكنه كثير الإرسال، من الثالثة، مات سنة أربع عشرة ومائة على المشهور».

عطاء بن أبي رباح الفقيه، المحدِّث، التابعي الجليل، شخص متفرِّد عجيب، أسود اللون.



عطاء بن أبي رباح الفقيه، مفتي أهل مكة ومحدثهم، ثقة، فقيه، فاضل، مات سنة 114هـ.



وصفه وفضله

يصفون عطاء فيقولون: كالغراب، أعور، أفطس، أشلّ، أعرج، عميَ في آخر حياته، لكن العلم والفضل والتقوى، حجبت كل هذه العيوب الخَلقية، والعاهات الجسمية، وجعلَتْ فضله يُحمد، ويُذكر، ويُعرف، ويُخلَّد.

من أهل اليمن في مولده، ولكنه عاش في مكة، تثقف فيها، وأقام فيها، ومات فيها، وُلد سنة 27هـ، وتوفي سنة 114هـ، كان مفتي مكة وفقيهها، جمع بين العلم والزهد، تلقى العلم عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، ومعاوية، وأسامة بن زيد، وعقيل بن أبي طالب، وعلي بن أبي طالب، وأبي الدرداء، ورافع بن خديج، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، كما سمع من أمهات المؤمنين: عائشة وأم سلمة. رضي الله عنهم أجمعين.

ويروي عطاء أنه التقى بمائتين من صحابة النبي ﷺ .





العاهات الجسمية، والعيوب الخَلقية، تذهب بموت الإنسان، أما العلم والتقوى والفضل، فتبقى، وتخلِّد ذكر الإنسان، وهذا ما جعل عطاء بن أبي رباح يُحمد، ويُذكر، ويُعرف، ويُخلَّد.

عالم عظيم

أما الذين رووا عن عطاء، فهم صفوة الفقهاء في الإسلام، من أمثال مجاهد، والزهري والأوزاعي، وأبو حنيفة، والأعمش، وجعفر الصادق، وعمرو بن دينار.

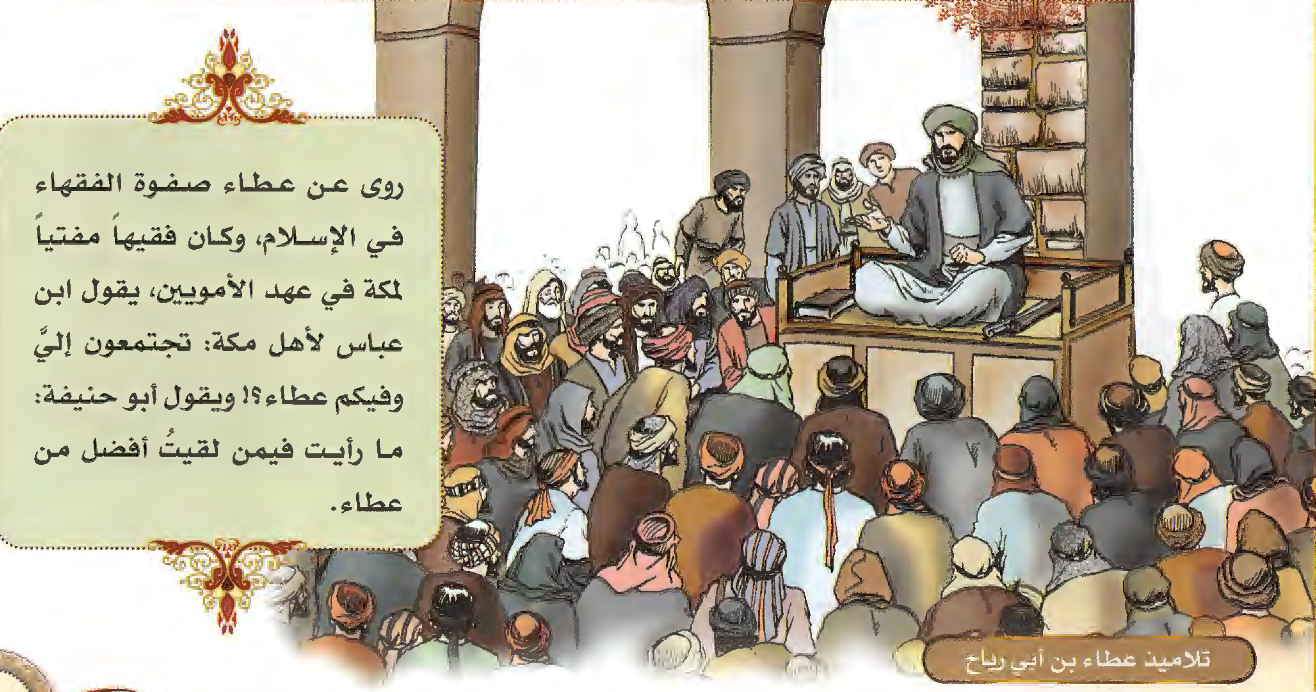
وعطاء بالإضافة إلى الفقه العظيم، ورواية الحديث الجليل، فقد كان فقيهاً مفتياً لمكة في عهد الأمويين، ومع ذلك لما خرج عليهم ابن الزبير رضي الله عنه، شارك معه في هذا الخروج الذي رآه شرعياً على ظلم بني أمية، وقاتل معه، وقطعت يده في ذلك اللقاء.

ويقول ابن عباس حين استفتاه أهل مكة: تجتمعون إليّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟

والأمر نفسه كان يقوله عبد الله بن عمر، وكان قتادة الفقيه، الحافظ المحدِّث، اللغوي، يقول: إذا اجتمع لي أربعة لا أبالي بمن خالفهم: الحسن البصري، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء.

تلقى أبو حنيفة العلم من عطاء، وكان يقول: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء.

روى عن عطاء صفوة الفقهاء في الإسلام، وكان فقيهاً مفتياً لمكة في عهد الأمويين، يقول ابن عباس لأهل مكة: تجتمعون إليَّ وفيكم عطاء؟! ويقول أبو حنيفة: ما رأيت فيمن لقيتُ أفضل من عطاء.



تلاميذ عطاء بن أبي رباح



لقاء الإمامين

لما التقى الإمامان في المسجد الحرام شرَّفه الله تعالى، قال عطاء: من أين أنت؟ فقال أبو حنيفة: من الكوفة، فيقول عطاء: من أهل القرية الذين فرَّقوا دينهم شيعاً؟ حيث كانت الكوفة مكان الفرق والطوائف التي ظهرت في ذلك الوقت، وخرجت أنواع الفرق وأشكال المذاهب في العقائد، وتقسمت الكوفة بين هذه الأهواء، وكان العلماء الكبار يكرهون هذا التفرق.

فيقول أبو حنيفة: نعم، فيقول عطاء: من أي الأصناف أنت؟ قال أبو حنيفة: ممن لا يسبُّ السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفِّر أحداً بذنب، فيهش عطاء ويفرح بهذا القول المختصر الذي يدل على عقيدة سليمة، فيقول: عرفتَ فالزم.

أجاب أبو حنيفة عطاءً حين سأله من أي الأصناف أنت؟ قال ممن لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفر أحداً بذنب.

عطاء بن أبي رباح

4 نافع مولى ابن عمر

هو نافع أبو عبد الله القرشي ثم العدوي العمري مولى عبد الله بن عمر وراويته، حصل عليه عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما في إحدى الغزوات، وكان غلاماً صغيراً لم يُعرف مَنْ أبوه، فرباه عبد الله بن عمر، فكان يُسمى مولى عبد الله بن عمر، فأكرمه وأحسن إليه، وتكنّى بأبي عبد الله، ونُسب إلى المدينة المنورة، لأنه لم يُعرف من أين هو، فكان يُقال له: المدنيّ، وكان يُعرف أيضاً: بنافع الفقيه.

نافع مولى عبد الله بن عمر وراويته، كان غلاماً صغيراً عندما حصل عليه ابن عمر في إحدى الغزوات، فربّاه، وأحسن إليه، نُسِب إلى المدينة، فيقال له: نافع المدني.

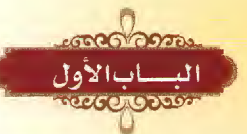
نشأته وعلمه

في هذا البيت الكريم؛ بيت عبد الله بن عمر، نشأ نافع، وتلقى العلم من مولاه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وتلقى كذلك من أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، ورافع بن خديج، وأم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين أم سلمة، كما روى عن أبناء عبد الله بن عمر: (عبد الله بن عبد الله بن عمر، وسالم، وعُبيد الله، وزيد). في هذا البيت الكريم، ومع هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، كان تلقي نافع العلم والخُلُق.

وروى عنه أولاده: أبو عمر، وعمر، وعبد الله، كما روى عنه كبار التابعين وتابعيهم، كيحيى بن سعيد، ومحمد بن شهاب الزهري، وميمون بن مهران قاضي الكوفة وفاتح قبرص، كما روى عنه الأوزاعي، ومالك والليث بن سعد، وغيرهم كثيرون.

هؤلاء الأئمة الكبار،تلقوا كلهم من نافع مولى عبد الله بن عمر.

في بيت عبد الله بن عمر نشأ نافع، وتلقى منه العلم، كما تلقى عن كثير من الصحابة، وروى عنه أولاده، وكبار التابعين وتابعيهم.





مكانته وفضله

لقد عرف ابن عمر مرتبة هذا المولى الذي عنده، فقال: لقد منَّ الله علينا بنافع.

وكان الخليفة الجليل، الراشد الخامس، عمر بن عبد العزيز يعرف مكانته وفضله، فأمر أن يذهب نافع إلى مصر، ليعلم المصريين سنن النبي ﷺ.

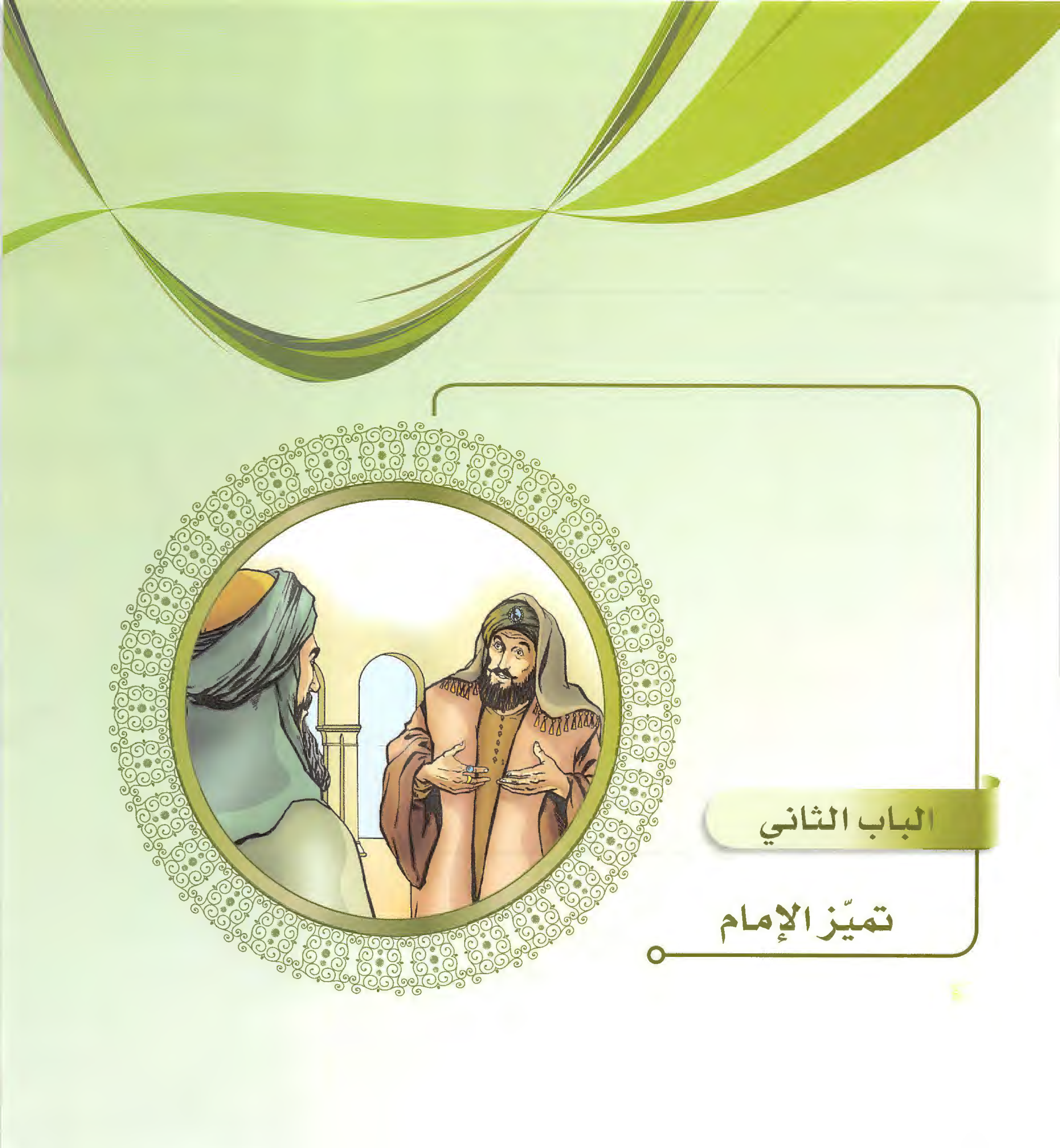
يقولون عنه: كان لا يخطئ في روايته عن النبي ﷺ، يقول الإمام مالك: كنتُ إذا سمعت من نافعاً يحدِّث عن ابن عمر، لا أُبالي ألا أسمع هذا الحديث من غيره. ابن عمر شديد وحريص ألا يخطئ، ونافع حريص ألا يخطئ.

لذلك كان العلماء يقولون: رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب. لجلالة كل واحد منهم.

وقال عنه الذهبي: الإمام، المفتي، الثبت، عالم المدينة.

وقال عنه ابن حجر: ثقة، ثبت، مشهور، من الثالثة، مات سنة سبع عشرة ومائة أو بعد ذلك.

ابن عمر يقول: لقد منّ الله علينا بنافع؛ لمكانته وفضله، وعمر ابن عبد العزيز يرسله إلى مصر ليعلم المصريين، كان لا يخطئ في روايته، مات سنة 117هـ.



الباب الثاني

تميّز الإمام



2



السمات الشخصية



الفصل الأول: السمات الشخصية

1 وصفه وأناقته

كان رحمه الله تعالى أسمر اللون مع ميل إلى بياضه، رَبعة من الناس (ليس بالطويل ولا بالقصير) إلى الطول أقرب، جميل الصورة، مهيب الطلعة، طويل اللحية، وقوراً، يتأنق في ثوبه وعمامته ونعليه، حسن المنطق، حلو النغمة فصيحاً، كثير التطيب يُعرَف به إذا ذهب وإذا جاء، نحيفاً ما أبقى عليه خوفه من الله تعالى وطول مراقبته وكثرة عبادته فضلاً من لحم.

روى الصيمري بإسناده إلى أبي يوسف رحمه الله تعالى قال: كان أبو حنيفة رَبْعة من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، وكان أحسن الناس منطقاً، وأحلاهم نغمة، وأبينهم عما يريد.

قال حماد ابن أبي حنيفة: كان أبو حنيفة طوالاً (طويلاً)، تعلوه سمرة، وكان لبّاساً (أنيقاً) حسن الوجه، حسن الهيئة، كثير التعطر، يُعرف بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله، قبل أن تراه.

ويصفه أبو نعيم فيقول: حسن الوجه، حسن الثياب، طيِّب الرائحة، شديد الكرم، حسن المواساة لإخوانه.

هكذا جمع رحمه الله بين الدنيا والآخرة بتوازن الإسلام العظيم.

جمع أبو حنيفة رحمه الله بين الدنيا والآخرة بتوازن الإسلام العظيم، فمع الفقه والعلم، والورع والتقوى، كان لبّاساً، حسن الهيئة، كثير التعطُّر.



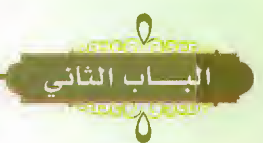
الإمام أبو حنيفة

العالِم الأنيق

بعض الناس يظن أن التفرغ للعلم، والإقبال على العبادة يستوجب عدم الاهتمام بالملابس، والمظهر والزينة، والأخذ بأسباب النعمة، لكن أبا حنيفة كان يطبق سنة النبي ﷺ الذي كان مع زهده آية في الجمال والكمال، والنظافة والعناية بمظهره وملبسه مع البساطة، وكان يقول: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: من الآية32).

ويقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: من الآية31).

فأبو حنيفة رحمه الله كان يفهم هذه الآيات وهذه الآثار، ولذلك كان يحب الملابس الجميلة، ويرتدي الثياب الغالية حرصاً منه على الأناقة، يظهر نعمة الله عليه بذلك، ويكرم العلم الذي ينتسب إليه، ويترفع بذلك عن إظهار الحاجة والعوز إلى أحد.



أثر النعمة

وكان رحمه الله لا يحب أن يرى أحداً بثياب رثة، فيكرم من يراه كذلك، ويعطيه ليُغير من حاله.

كان جالساً يوماً في حلقته، فرأى أن أحد الجلوس ثيابه رثة، فلم يعجبه هذا المنظر، حيث كان يبدو غريباً بينهم، فلما انتهى المجلس طلب أبو حنيفة من هذا الرجل أن يبقى، فلما ذهبوا ولم يبقَ أحد غيرهما، قال أبو حنيفة للرجل: ارفع المصلّى (السجادة) وخذ ما تحته.

فرفع الرجل المصلى، وإذا تحته ألف درهم.

فقال له الإمام: خذ هذه الدراهم وغيّر بها من حالك.

فقال الرجل: إني موسِر، وإني في نعمة، ولست أحتاج إليها.

فقال له الإمام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فينبغي لك أن تغيِّر حالك حتى لا يغتمَّ بك صديقك».

إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده

آية في الخير

وكان ابن المبارك يتعجب من قدرة الإمام أبي حنيفة على جمع الزهد والورع والعلم، وفي الوقت نفسه التجارة والغنى والأناقة، ولذلك كان يقول في مجلسه: كان أبو حنيفة آية.

فقال أحد الحاسدين لأبي حنيفة: في الشر يا أبا عبد الرحمن أم في الخير؟

فغضب ابن المبارك وقال: اسكت يا هذا، فإنه يُقال: غاية في الشر، وآية في الخير، واستشهد بقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون: من الآية 50).

كان أبو حنيفة رحمه الله حسن الوجه، حسن الهيئة، كثير التعطر، يلبس الثياب الغالية مع زهده وورعه، حسن المواساة لإخوانه، لا يحب أن يرى أحداً بثياب رثة..

2 العابد الخلوق

شأن الأخلاق عادة أنها من ثمرات الإيمان، فهي تنبئ عما يعمر قلب صاحبها من إيمان وتقوى وبر، وكلما قوي الإيمان، واستولى على القلب، واستمكن منه، وملأه بنوره، ارتفعت أخلاق صاحبه واتسعت، وعمت ما تعمّ من جوانب الحياة، فكل إناء بالذي فيه ينضح.

وأبو حنيفة رحمه الله تعالى من علماء القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخير على لسان رسول الله ﷺ، فلا عجب أن نجد أخلاقه أخلاق خيار السلف الصالح، مع الله تعالى، ومع نفسه، ومع الناس.



أخلاق الصالحين

ذكر الذهبي بسنده إلى مجالد قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه أبو يوسف، فقال له هارون: صف لي أخلاق أبي حنيفة.

قال: كان والله شديد الذبِّ عن حرمات الله، مجانباً لأهل الدنيا طويل الصمت، دائم الفكر، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً، وإن سُئل عن مسألة كان عنده بها علم أجاب فيها، وما علمته يا أمير المؤمنين إلا صائناً لنفسه ودينه، مشتغلاً بنفسه عن الناس، لا يذكر أحداً إلا بخير.

فقال الرشيد: هذه أخلاق الصالحين.

عبادته

قال بكير بن معروف: كنتُ بطانة أبي حنيفة في السفر والحضر، وأشهده في الليالي في منزله، وكان قلّ ما يستتر عليّ أمر من أموره، فما رأيت أحداً أكثر اجتهاداً منه، صائماً بالنهار، قائماً بالليل، تالياً لبيان الله، خاشعاً، دائباً في طاعة الله، محتسباً في التعليم، وفي تنوير ما يشكل على الناس من المعاني، لا أقدر أن أصفه كنه صفته ــ أي حقيقة ذلك ــ فرحمه الله رحمة واسعة.

الوتد

هذا هو الإمام أبو حنيفة العابد القانت لله تعالى، يقرأ القرآن الكريم، ويجعله ديدنه وأنيسه، يقوم به الليل لله تعالى، خائفاً وجلاً، يتخفى بذلك لكيلا يراه الناس، ويصوم الأيام الكثيرة، والصوم لا مثل له كما قال ﷺ، ويحج كل عام، ويتصدق كل يوم بصدقة.

يقول أبو عاصم النبيل: كان أبو حنيفة يُسمّى الوتد (من طول صلاته، كأنه وتد مغروس في أرض المسجد).

ويقول سفيان بن عيينة لما شاهد أبا حنيفة مصلياً عابداً عند الكعبة: ما قدم مكة رجلٌ في وقتنا أكثر صلاة من أبي حنيفة.

وقال أبو مقاتل: صحبتُ أبا حنيفة الصحبة الطويلة في حضره وأسفاره، فما رأيت أحداً أكثر صلاة منه، ولا أعبد ولا أورع منه، وأما الفقه فلم أر أحداً يتقدمه.



متى كان ينام؟!

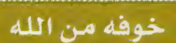
قال مسعر بن كدام: رأيته يصلي الغداة (أي الفجر)، ثم يجلس للعلم إلى أن يصلي الظهر، ثم يجلس إلى العصر، ثم إلى قريب المغرب، ثم إلى العشاء، فقلت في نفسي: متى يتفرغ للعبادة؟! لأتعاهدنه. (فارتاح بعد صلاة العشاء ونام).

فلما هدأ الناس خرج إلى المسجد -وكان بيته بجوار المسجد الذي يؤم فيه حسبة لله تعالى- متطهراً، فانتصب للصلاة إلى الفجر، ثم دخل فلبس ثيابه، -كانت له ثياب خاصة يلبسها لقيام الليل- وخرج لصلاة الصبح، ففعل كما فعل، ثم تعاهدته على هذه الحالة، فما رأيته مفطراً ولا بالليل نائماً، وكان يغفو قبل الظهر إغفاءة خفيفة، وقرأ ليلة حتى وصل قوله تعالى: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (الطور:27) فما زال يرددها حتى أذّن الفجر.

وردد قوله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (القمر:46) ليلة كاملة في صلاة.

وقالت أم ولده: ما توسّد فراشاً بليل مذ عرفته، وإنما كان نومه بين الظهر والعصر في الصيف، وأول الليل بمسجده في الشتاء.

يقوم الليل كله إلى صلاة الفجر



خوفه من الله

يقول الفقيه الجليل يحيى بن سعيد القطان: كنتُ والله إذا نظرت إلى أبي حنيفة عرفتُ في وجهه أنه يتقي الله عز وجل.

وقـال ابـن المـبـارك: دخـلـت الكوفة، فسألت عن أفقه أهلها، فقيل لي: أبو حنيفة، وسألتُ عن أزهد أهلها، فقيل لي: أبو حنيفة، وسألتُ عن أورع أهلها، فقيل لي: أبو حنيفة.

وقـال عبد الـرزاق: كـنـتُ إذا رأيـت أبا حنيفة رأيـتُ آثـار الـبـكـاء فـي عينيه وخديه.



اكتُم ما رأيت

يروي يزيد بن الكميت -وكان من خيار الناس- يقول: كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله تعالى، فقرأ بنا علي بن الحسين المؤذن، ليلة من العشاء الآخرة:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة:1).

وأبو حنيفة خلفه، فلما قضينا الصلاة وخرج الناس، نظرتُ إلى أبي حنيفة، وهو جالس يفكر ويتنفس، فقلت: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فلما خرجت تركت القنديل (المصباح)، ولم يكن فيه إلا زيت قليل.

فجئت وقد طلع الفجر، وهو قائم قد أخذ بلحية نفسه، ويقول: يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيراً، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شراً، أجِر النعمان عبدك من النار، وما يقرب منها من سوء، وأدخله في سَعَةِ رحمتك.

قال: فأذّنت، فإذا القنديل يزهر، وهو قائم.

فلما دخلتُ قال لي: أتريد أن تأخذ القنديل؟

قلت: أذنتُ لصلاة الغداة.

قال: اكتم ما رأيت (أي لا تخبر الناس أنك رأيتني أقوم طوال الليل)، وركع ركعتي سنة الفجر، وجلس حتى أقمتُ الصلاة، وصلّى معنا الغداة على وضوء أول الليل.



هارب من الدنيا

قال عبد الله بن المبارك عندما ذُكر أبو حنيفة أمامه: وما يقدرون أن يقولوا في رجل عرضت عليه الدنيا بحذافيرها، فنبذها وراء ظهره، فضُرب بالسياط وقيل له: خذ الدنيا، فصبر على السراء والضراء، ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه، والله لقد كان على خلاف من أدركناه، يطلبون الدنيا، والدنيا تهرب منهم، وتأتيه الدنيا، فيهرب منها.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: ذُكر أبو حنيفة عند أحمد بن حنبل، فقال: رحمه الله، كان ورعاً، ضُرب على القضاء إحدى وعشرين سوطاً، فأبى.



ألا تخاف القصاص!

قال مسعر بن كدام: كنتُ أمشي مع أبي حنيفة، فوطئ على رجل صبي لم يره، فقال الصبي لأبي حنيفة: يا شيخ، ألا تخاف القصاص يوم القيامة؟ فغشي على أبي حنيفة، فأقمت عليه حتى أفاق، فقلت له: يا أبا حنيفة، ما أشدّ ما أخذ قلبك قول هذا الصبي! فقال: أخاف أنه لُقّن.

الورع الصادق

قال الحسن بن صالح: كان أبو حنيفة شديد الورع، مجانباً للحرام، تاركاً لكثير من الحلال مخافة الشبهة، ما رأيت فقيهاً قط، أشد صيانة منه لنفسه وعلمه، وكأن جهازه إلى قبره.

وقال محمد بن الحسن: كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى واحد زمانه، ولو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال، في العلم والكرم، والمواساة والورع، والإيثار لله تعالى، مع الفقه والعلم.

وعن الفيض بن محمد الرقي قال: لقيت أبا حنيفة ببغداد وأنا أريد الكوفة، فقال لي: الِقَ حماداً -ابنه- وقل له: قد علمتَ أن قوتي (رزقي) في الشهر درهمان من سويق (تمر رديء)، وقد حبسته فعجله (ولعلَّ هذا في الأيام التي حُبس ببغداد لأجل القضاء) لأنه ما كان يأكل من طعام الخليفة لورعه الصادق،ولكنه كان يطلب التمر الرديء الذي له في الكوفة ليأكل منه.

ما رأينا مثله

قال قيس بن الربيع: كان أبو حنيفة رجلاً ورعاً، محسوداً، وكان كثير البر والصلة لكل من لجأ إليه، كثير الإفضال على إخوانه.

وقال يزيد بن هارون: كتبتُ عن ألف شيخ حملتُ عنهم العلم؛ فما رأيتُ والله أشدّ ورعاً من أبي حنيفة، ولا أحفظ للسانه.

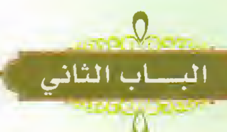
وقال سفيان بن عيينة: لم يكن زمان أبي حنيفة أفضل منه، ولا أورع، ولا أفقه منه.

وقال حفص بن عبد الرحمن: جالستُ أنواع الناس من العلماء، والفقهاء، والزهاد، والنسّاك، وأهل الورع، فلم أرَ أحداً فيهم أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة.

وقال أيضاً: في طول ما صحبتُ أبا حنيفة وخالطتُه، لم أره يعلن بخلاف ما يسرّ، ولم أرَ أحداً يتوقى مما لا خطر له مثل ما كان يتوقاه، وكان إذا دخلت عليه شبهة من أي شيء، أخرج من قلبه ذلك، ولو بجميع ماله.

وقال النضر بن محمد: ما رأيتُ أشدّ ورعاً من أبي حنيفة، ما كان يحسن الهزل (المزاح)، ولا يتكلم به، ولا رأيته مستجمعاً ضاحكاً، ولكنه يبتسم.

الأخلاق من ثمرات الإيمان، وكانت أخلاق أبي حنيفة هي أخلاق الصالحين، وكان شديد الخوف من الله تعالى، شديد الورع، مجتهداً في العبادة، دائم التفكير، طويل الصمت..



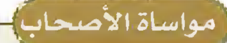
3 الجواد الكريم



الجود والسخاء من صفات المؤمن، ومن صفات العالم، وكذلك كان أبو حنيفة رحمه الله، مما جعل الكثيرين تنطلق ألسنتهم بالثناء على كرمه.

قال عبد اله بن الدوسي: كان الإمام رحمه الله تعالى، يأمر ابنه حماداً أن يشتري له كل يوم بعشرة دراهم خبزاً، ويتصدق به على جيرانه الفقراء، وكل من يزوره أو يطرق بابه.

ويقول حفص بن حمزة القرشي: كان أبو حنيفة ربما مر به رجل فيجلس إليه بغير قصد ولا مجالسة، فإذا قام سأل عنه، فإن كانت به فاقة وصله (أي إذا كان محتاجاً أعانه)، وإن مرض عاده حتى يجترَّه إلى مواصلته (أي يصبح من أصدقائه)، وكان أكرم الناس مجالسة.





مواساة الأصحاب

وعن أبي إسرائيل قال: كان أبو حنيفة جواداً، يواسي أصحابه، ويبرهم في الأعياد، ويرسل إلى كل واحد منهم على قدر منزلته، ويزوج من احتاج إليه، وينفق من عند نفسه، ويقوم في حوائجهم، وكان ورعاً زاهداً، صوّاماً، تالياً لكتاب الله تعالى، عالماً بما فيه، غاية في الفقه، لم يسمع بمثله في فنه.

وعن أبي يوسف رحمه الله تعالى قال: ما رأيت أجود من أبي حنيفة، فكنتُ أقول له: ما رأيتُ أجود منك، فيقول: كيف لو رأيت حماداً؟! (يقصد أستاذه حماد بن أبي سليمان).

قال: وكان أبو حنيفة يعولني وعيالي عشر سنين، وما رأيت أحداً أجمع للخصال المحمودة منه.

وعن الحسن بن سليمان قال: كان جواداً، ما رأيت مثله، كان أجرى على أصحابه وظيفة كل شهر (أي يوزع على تلاميذه راتباً شهرياً)، ومع ذلك كان يواسيهم (يعينهم على حاجاتهم) في عامة الأيام.

من مال الله

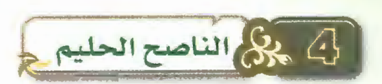
ذكر الحافظ السلامي بسنده: أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى كان يبضع الأمتعة (أي يحول الأقمشة إلى رأس مال ببيعها)، ويجمع الأرباح من سنته، ويشتري بها حوائج المحدّثين (المتفرغين لحديث النبي ﷺ)، ثم يدفع باقي الدراهم إليهم، ويقول للفقراء: احمدوا الله تعالى، فإنه من ماله تعالى، آتاكم إياه، هذه أرباح بضاعتكم يجريه الله تعالى على يديّ لكم.







كان أبو حنيفة أكثر الناس جوداً وكرماً، يعين المحتاجين، ويواسي أصحابه، ويبرهم، ويعطيهم راتباً شهرياً..



4 الناصح الحليم

النصح: إرادة الخير للآخرين، وقد كانت حياة الإمام رحمه الله كلها نصح، وإرادة خير لعامة الناس وخاصتهم.
روى تلميذه زُفر بن الهذيل قال: جالستُ أبا حنيفة أكثر من عشرين سنة، فلم أرَ أحداً أنصح للناس منه، ولا أشفق عليهم منه، وكان يُذل نفسه لله تعالى، أما عامة النهار فهو مشتغل في العلم وفي المسائل وتعليمها، وفيما يُسأل من النوازل وجواباتها،وإذا قام من المجلس عاد مريضاً، أو شيّع جنازة، أو واسى فقيراً، أو وصل له أو سعى في حاجة، فإذا كان الليل خلا للعبادة والصلاة وقراءة القرآن، فكان هذا سبيلة حتى توفي رحمه الله تعالى.



قوة عظيمة

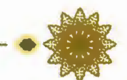
الحِلم قوة نفسية عظيمة، خلاصتها: أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، وعند الأذى؛ كما قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

وهكذا كان الإمام رحمه الله، كان شديداً بملكه نفسه، وكان يدعو ويقول: اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت له.

ويصل حِلم أبي حنيفة، وقدرته على كتم غضبه إلى درجة قد تفوق تصوراتنا أحياناً.

قال عبد الرزاق: ما رأيتُ أحداً أحلم من أبي حنيفة، كنا جلوساً معه في مسجد الخيف، فسأله رجل عن مسألة فأفتاه،فقال الرجل: قال الحسن البصري كذا وكذا، فقال أبو حنيفة: أخطأ الحسن، فجاء رجل أحمر الوجه، فقال: يا ابن الفاعلة (الزانية) تقول أخطأ الحسن؟! فهمَّ الناس به، فقال أبو حنيفة: أقول: أخطأ الحسن وأصاب ابن مسعود. (هكذا بكل بساطة ودون أن يغضب أو يزيد الأمر اشتعالاً).





غفر الله لنا ولسفيان

قال عبد الحميد الحِمّاني: كنت عند أبي حنيفة فجاءه رجل، فقال: سمعت سفيان ينال منك، ويتكلم فيك، فقال: غفر الله لنا ولسفيان، لو أن سفيان فُقد في زمن إبراهيم النخعي؛ لدخل على المسلمين فقده. (أي يمدح سفياناً بأنه ليس له مثيل، حتى لو أنه مات لتأثر المسلمون بفقده).



لا يغتاب أحداً

كان أبو حنيفة رحمه الله لا يذكر أحداً بسوء، ولا يقصده بأذى، ولو في مقابل مقالة قيلت فيه.

يقول بكير بن معروف: قلت لأبي حنيفة: الناس يتكلمون فيك، ولا تتكلم أنت في أحد؟! فقال: هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

يقول عبد الله بن المبارك لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدواً له قط، فيقول سفيان: هو والله أعقل من أن يسلِّط على حسناته ما يذهب بها. (لأن الغيبة تأكل حسنات الإنسان، فلا يسمح لحسناته أن تذهب).



حاسد وجاهل

هذه الأخلاق السامية، وهذا العلم العظيم، جعل كثيراً من الناس يحسدون أبا حنيفة على ما آتاه الله، ولذلك كان عبد الله بن داود الفقيه المحدِّث يقول: الناس في أبي حنيفة رجلان: جاهلٌ به، وحاسدٌ له، وأحسنهم حالاً عندي الجاهل.

وكان محمد بن الحسن يقول: محسودون، وشر الناس منزلة من عاش في الناس يوماً غير محسود.

وأبو حنيفة كان يقول:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم	قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فدام لي ولهم، ما دام بي وبهم	ومات أكثرنا غيظاً بما يجد



ويبرز معنى من معاني الوفاء والحكمة في قصة شهيرة لأبي حنيفة، مع جار له بالكوفة، كان جاره إسكافياً (يعمل في إصلاح الأحذية)، يعمل طوال النهار، فإذا جاء الليل، جاء معه بطعام يطبخه، أو سمكة يشويها، ويشرب الخمر، لكن في بيته.

ومثل هذه الأمور إذا لم يعلنها الإنسان ويظهرها، لا يعاقب في الدنيا، فعقابه عنده الله تعالى في الآخرة، ولكن يعاقب من يظهر الأمر في الدنيا.

فكان يشرب ويسكر، فإذا سكر ارتفع صوته بالغناء، ويقول:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

ويظل يغني ويشرب ويردد هذا البيت إلى أن ينام.

والإمام أبو حنيفة كان من طبيعته أنه صوّام قوّام، نهاره علم وصوم وجد وسعي، وليله عبادة وصلاة وقيام، ودعاء، فكان يسمع كل ليلة صوت هذا الجار وغناءه، ولا

الحراس أمسكوا بجاره الإسكافي



يستطيع أن يفعل شيئاً؛ لأنه يفعل ذلك داخل بيته، ولم يشتكِ عليه، ولم يتبرم منه.

وفي ليلة من الليالي اختفى الصوت وتوقف الغناء، فاستغرب أبو حنيفة وخشي أن يكون جاره حدث له شيء، فسأل عنه، فقيل له: إن الحراس الذين يمشون في الليل أمسكوه، وهو محبوس.

وبعد صلاة الفجر، ركب الإمام أبو حنيفة بغلته، واتجه إلى أمير الكوفة، واستأذن عليه بالدخول، ووصل خبر قدوم الإمام الأعظم فقيه الكوفة إلى الأمير.

فقال الأمير لرجاله: ائذنوا له، وأقبلوا به راكباً حتى يدوس على بساطي هذا. ففعلوا، ونزل الأمير واستقبله، ووسع له، وسأله: ما حاجتك؟ فنحن نأتيك.

فقال أبو حنيفة: حاجة بسيطة، عندي جار إسكافي، أمسكه الحراس.

فأمر الأمير بإطلاق الإسكافي، وكل من أمسكوه تلك الليلة؛ إكراماً لأبي حنيفة.

فشكره أبو حنيفة وانصرف، ومعه الإسكافي يمشي خلفه، فلما وصلوا البيت، أخذ هذا الرجل يمدحه ويشكره، فالتفت أبو حنيفة إلى هذا الشاب، وقال: يا فتى، هل أضعناك؟!

فقال الشاب (وقد أخذته الصدمة لعلم أبي حنيفة بحاله وسكره): لا، بل حفظت ورعيت، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار، ورعاية الحق.

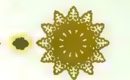
وتاب الشاب، ولم يعد إلى ما كان عليه من غناء وشراب.

هكذا كان أبو حنيفة رحمه الله.



تخيّلوا هذه الشخصية، وهذا الخُلُق ينعكس من وراء الفقه، العلم ليس فقط أحكام تُصدر.. حلال.. حرام.. إلخ، كلا، بل هو خُلُق سامٍ يتمثل في حياة عملية، تطبق الفهم الواعي لشرع الله ربِّ العالمين.





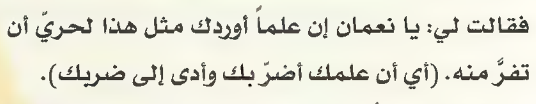
بره بأمه

كان من بر الإمام بوالديه، أنه كان يدعو لهما، ويستغفر لهما مع شيخه حماد، وكان يتصدّق كل شهر بعشرين ديناراً عن والديه.

وكان واسع الصدر في تعامله مع أمه، قال الإمام: كان في مسجدنا قاصّ (رجل يروي القصص والحكايات)، يقال له: زُرْعة، فأرادت أمي أن تستفتي، فسألتني فأجبت، فقالت: لا أرضى إلا بجواب زرعة، فجئت بها إليه، وقلت له: أمي تستفتيك في كذا وكذا، فأجاب بما قلته، فرضيت (فانظر إلى صبره على أمه التي رفضت جوابه وهو عالم وأبت إلا الجواب من قاص).

وقال محمد بن الحسن: إن أم الإمام رأت دماً، فأمرت الإمام أن يسأل عنه عمرو بن ذر (وعمرو أقل من أبي حنيفة علماً)، فسأله عنه.فقال عمرو له: قل لي أنت الجواب، وأنا أقول لك وتحكي أنت عني. (أي أن أبا حنيفة أعطاه الجواب ثم سمعه منه) ففعل، فرضيت به أمه.

وقال يحيى بن عبد الحميد: كان الإمام يُخرج كل يوم من السجن، فيُضرب ليدخل القضاء، فيأبى، فلما ضُرب رأسه، وأثر ذلك في وجهه، بكى، فقيل له في ذلك، فقال: إذا رأته أمي بكت واغتمت، وما عليّ شيء أشد من غم أمي. (فهو لا يبكي على نفسه ولكن شفقة على أمه).



وعن الحسن قال: سمعت الإمام يقول: ما من شيء أشد عليّ من غم أمي حين ضُربتُ.

فقالت لي: يا نعمان إن علماً أوردك مثل هذا لحريّ أن تفرَّ منه. (أي أن علمك أضرّ بك وأدى إلى ضربك).

فقلت: قد تعلمتُ العلم لله، لا للدنيا. (فانظر إلى نصحه لأمه بأدب).

هكذا يعلمنا أبو حنيفة، أنه يعامل أمه بكل بر وأدب ولا يتعالى عليها ولايزعجه كلامها وتصرفاتها، بل يحرص على رضاها، والبر بها، ويحرص على الوفاء بشأنها.

يحضر زرعة لأمه ليفتيها



مرهَف الحس

ولم يكن هدوْؤه هذا وسعة صدره، صادرين عن شخص جامد الحسّ، ضعيف الشعور، بل كان مع هدوء النفس وضبطها، ذا قلب شاعر، ونفس محسّة، يروى أنه قال له بعض مناظريه: يا زنديق، يا مبتدع، فقال في هدوء العالِم الذي يرجو ما عند ربه: غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك، وإني ما عدلت به أحداً منذ عرفته، ولا أخاف إلا عقابه، ولا أرجو إلا عفوه، ولا أخاف إلا عقابه، ثم بكى عند ذكر العقاب.

فقال له الرجل: اجعلني في حِلٍّ مما قلت.

فقال الإمام: كل من قال فيّ شيئاً من أهل الجهل فهو في حلٍّ، وكل من قال فيَّ شيئاً من أهل العلم فهو في حرج، فإن غيبة العلماء تبقى بعدهم. (أي إني أسامح أهل الجهل لأنهم لا يعلمون، ولا أسامح أهل العلم لأنهم يعلمون وتبقى كلماتهم بعدهم).

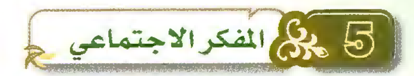


ضبط النفس

كان هدوء أبي حنيفة هدوء مَنْ عَلَت نفسه، وسَمَت بالتقوى، واتصلت بالله، فصارت لا تعلق بها أدران الدنيا، وكأنها صفحة مجلوَّة ملساء، لا ينطبع فيها شيء من أقوال الناس المؤذية، بل تنحدر عنها، ولا يتصل بها شيء منها، وكان هدوؤه هذا هدوء الحازم، الضابط لنفسه، الصبور المحتمل، الذي لا يطيش فكره وراء العواصف التي قد تعرض للنفس، ولقد كان ثابت الجأش، رابط الجنان، يروى أن حية سقطت من السقف في حجره، وهو في حلقته بالمسجد، فتفرَّق كل من حوله، ولكنه استمرّ في حديثه ونحّاها.

لم يكن أحد أنصح للناس ولا أشفق عليهم من أبي حنيفة، وكان حليماً يملك نفسه عند الغضب، واسع الصدر، إن سبّه أحد أو شتمه دعا له بالمغفرة..





5 المفكر الاجتماعي

امتاز أبو حنيفة في عقله، بأنه بعيد الغور في تفكيره، عميق النظرة، شديد الغوص في تعرف البواعث والأسباب والغايات، لكل ما يقع تحت نظره من أعمال وأمور، ولقد كان يغشى الأسواق، ويتجر، ويعامل الناس، ويدرس الحياة، كما يدرس الفقه والحديث، ويجادل في شؤون العقيدة ومناهج السياسة، لذلك أُثرت عنه آراء محكمة في مناهج الفكر، وأخلاق الناس ومعاملتهم، وما ينبغي أن يتبعه الشخص معهم.



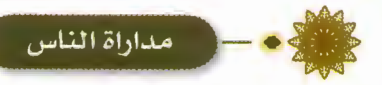
العلم قبل العمل

كان أبو حنيفة يرى أن العمل القويم، يجب أن يكون مبنياً على المعرفة الصحيحة، فليس الخيِّر عنده مَن يعمل الخيِّر فقط، بل الخيِّر عنده من يعلم الخير والشر، ويقصد إلى الخير لمعرفته لمزاياه، ويتجنب الشر فاهماً لمساوئه، وليس العادل عنده هو الذي يكون منه العدل من غير معرفة للظلم، بل العادل هو الذي يعرف الظلم ومغبته، والعدل وغايته، ويقصد إلى العدل لما فيه من شرف الغاية، وحسن المغبة.

وقد قال في هذا المقام: اعلم أن العمل تَبَع للعلم، كما أن الأعضاء تَبَع للبصر، والعلم مع العمل اليسير، أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك: الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية بها، أنفع من الجهل مع الزاد الكثير، وكذلك قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: من الآية 9).

فالعمل المستقيم لا بد أن ينبني على فكر مستقيم، وعلم مقرر ثابت.



مداراة الناس

وآراء أبي حنيفة في الناس والاجتماع، وعلاقة العالِم بالمجتمع الذي يعيش فيه، آراء عالم بأحوال النفوس، دارس لها، متعمق في دراستها، فاحص لأحوالها، قد ذاق حلوها ومرها، وقد اشتملت على وصيته التي ودّع بها تلميذه يوسف بن خالد السمتي على الكثير من محكَم تفكيره، وهذه زُبَدٌ منها:

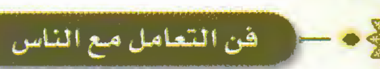
«اعلم أنك متى أسأتَ عشرة الناس صاروا لك أعداء، ولو كانوا لك أمهات وآباء.

وإنك متى أحسنتَ عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهات وآباء.

كأني بك، وقد دخلتَ البصرة، وأقبلتَ على المخالفة بها، ورفعت نفسك عليهم، وتطاولت بعلمك لديهم، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم، وهجرْتهم وهجروك، وشتمتهم وشتموك، وضللتهم وضللوك وبدعوك.

واتصل ذلك الشين بنا، وبك، واحتجت إلى الهرب للانتقال عنهم، وهذا ليس برأي، إنه ليس بعاقل من لم يُدارِ من ليس من مداراته بد، حتى يجعل الله له مخرجا..





فن التعامل مع الناس

ويتابع أبو حنيفة الوصية فيقول: «إذا دخلتَ البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك، فأنزل كل رجل منزلته، وأكرم أهل الشرف، وعظِّم أهل العلم، ووقِّر الشيوخ، ولاطف الأحداث، وتقرَّب من العامة، ودار الفجّار، واصحب الأخيار، ولا تتهاون بسلطان، ولا تحقِّرن أحداً، ولا تقصرَّن في مروءتك، ولا تخرجنَ سرّك إلى أحد، ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه، ولا تخادن خسيساً ولا وضيعاً، ولاتألفنَ ما ينكر عليك في ظاهره، وإياك والانبساط إلى السفهاء..

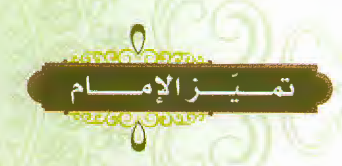
وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال، وحسن الخُلق، وسعة الصدر، واستجدّ ثياب كسوتك، واستفره (يستفره: يستكرم) دابتك، وأكثر استعمال الطيب..

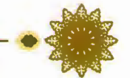
وابذل طعامك، فإنه ما ساد بخيل قط، ولتكن لك بطانة تعرفك أخبار الناسِ، فمتى عرفت بفساد بادرت إلى الصلاح، ومتى عرفت بصلاح ازددت فيه رغبة وعناية، واعمل في زيارة من يزورك ومن لا يزورك، والإحسان إلى من يحسن إليك أو يسيء، وخذ العفو، وأمر بالمعروف، وتغافل عما لا يعنيك، واترك كل ما يؤذيك، وبادر في إقامة الحقوق، ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك، وتعاهده برسلك، ومن غاب منهم افتقدت أحواله، ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه».



الابتعاد عن المعاصي

هذه الوصية تكشف عن أخلاق الإمام أبي حنيفة، وقوة استمساكه بالفضيلة، وقد صارت له مَلَكة كالطبع والجبلة، وليس بغريب أن تكون أخلاق الإمام على ذلك النحو، فقد راضَ نفسه على مكارم الأخلاق، والبعد عن سفاسف الأمور، حتى لقد كان يترك المعاصي، لأنها تنافي المروءة، لا لأنها تنافي الدين فقط، فقد كان يقول: «رأيتُ المعاصي مذلة، فتركتها مروءة، فصارت ديانة».





فن الحوار

ثم يقول: «وأظهر تودداً للناس ما استطعت، وأفشِ السلام، ولو على قوم لئام..

ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس، أو ضمّك وإياهم مسجد، وجرت المسائل، وخاضوا فيها بخلاف ما عندك، لم تبدِ لهم خلافاً، فإن سئلت عنها أخبرتَ بما يعرف القوم (أي ابدأ بعرض الرأي الذي يعرفه الناس)، ثم تقول: فيها قول آخر، وهو كذا وكذا، والحجة له كذا وكذا.

فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك، فإن قالوا: هذا قول من؟ قل: بعض الفقهاء.

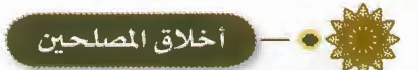
وإذا استمروا على ذلك وألفوه، عرفوا مقدارك، وعظموا محلك.

وأعطِ كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظرون فيه، وآنسهم ومازحهم أحياناً، وحادثهم، فإن المودة تستديم مواظبة العلم، وأطعمهم أحياناً، واقضِ حوائجهم، واعرف مقدارهم، وتغافل عن زلاتهم، وارفق بهم وسامحهم، ولا تبدِ لأحد منهم ضيق صدر أو ضجراً، وكن كواحد منهم. واستعن على نفسك بالصيانة لها، والمراقبة لأحوالها..

ولا تكلّف الناس ما لا يطيقونه، وارضَ لهم ما رضوا لأنفسهم، وقدّم لهم حسن النية، واستعمل الصدق، واطرح الكبر جانباً، وإياك والغدر، وإن غدروا بك، وَأَدِّ الأمانة وإن خانوك، وتمسك بالوفاء، واعتصم بالتقوى، وعاشر أهل الأديان، وأحسِن معاشرتهم».

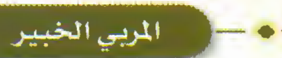
وهنا يُعلّم أبو حنيفة تلميذه كيف يكسب قلوب الناس والتلاميذ، وكيف يعرض عليهم العلم، ويحببهم فيه، بحُسن المعاملة وحُسْن العرض، وحُسن النية..





أخلاق المصلحين

كما تكشف عن دراية أبي حنيفة بشؤون الاجتماع وأخلاق الناس، وما يعالجون به، وقد انتهى رحمه الله في علاجه إلى أن مصلح الجماعة يجب أن يكون ودوداً، يألَف ويؤلَف، لا يخالف ولا ينافر، بل يجيء إليه الناس من ناحية ما يألفون ويطيقون، لا من ناحية من ينكرون، فإذا كان له رأي يخالفهم فيه لا يفجؤهم بالمخالفة، حتى لا تجمع نفوسهم، بل يقرر رأيهم، ثم يقرر أن هناك من يخالفه، ويدلي برأيه من غير أن ينسبه إليه، ويدعمه بالحجة، ويقويه بالبرهان، فإن سألوه عن صاحب هذا الرأي قال: إنه رأي بعض الفقهاء، بذلك يتقبلون الرأي من غير اصطدام.



المربي الخبير

وتكشف الأيام أيضاً عن المربي الذي يتعهد تلاميذه، والذي يعرف كيف يبث فيهم علمه وآراءه، ويقربها إليهم، وهو في ذلك يعطي نصائح الخبير المجرِّب، فهو يدعو المعلم إلى أن يعطي تلاميذه من أنواع العلم وأبوابه، ما يتفق مع مواهبهم ونزوعهم، ومداركهم، حتى يستأنسوا به، ولا يقدم لهم من العلم أولاً ما يخالف منازعهم، فينفروا، ثم يبتدئ المسائل بالواضح الجلي، ويتدرج بهم حتى يصير إليهم الخفي واضحاً جلياً، ويوصي المربي بأن يحادث تلاميذه في فنون الأحاديث ليجلب مودتهم، ويستديم مواظبتهم، ثم يدعوه إلى أن يمازحهم ويؤنسهم، ويتغافل عن زلاتهم، ويرفق بهم ويسامحهم، ولا يضيق صدره حرجاً بهم، وليكن كواحد منهم.

وإن من عالج الدرس وخبر التعليم، ليعرف قيمة تلك النصائح، وجدواها في النفوس، وأثرها في تحبيب الطلبة للعلم، وتسهيله عليهم، وتشويقهم إليه.

امتاز أبو حنيفة في عقله بأنه بعيد الغَور في تفكيره، عميق النظرة، خَبَر الناس فتكوّنت لديه حصيلة ضخمة من التجارب الاجتماعية، استفاد منها، وأفاد مَنْ حوله..



تلاميذ الإمام



العقل المستنير الحر



الفصل الثاني: العقل المستنير الحر

1 عميق التفكير

العقل الفلسفي المتعمق

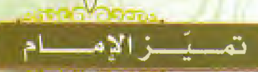
وكان أبو حنيفة عميق الفكر، لا يقف عند ظواهر النصوص، بل يسير وراء مراميها البعيدة والقريبة، ويبحث عن العلل والغايات غير متوقف، ولعلّ هذا العقل الفلسفي المتعمق، هو الذي دفعه لأن يتجه في أول حياته إلى علم الكلام، ليرضي تلك النهمة العقلية، وإن ذلك التعمق دفعه لأن يدرس الأحاديث باحثاً عن الغاية لما اشتملت عليه من أحكام، مستعيناً في ذلك بإشارات الألفاظ، وملابسات الأحوال، وما يترتب على الحكم من جلب مصالح، أو دفع مضار..

حتى إذا استقامت بين يديه العلة، اطّرد القياس، وفرض الفروض، وصوّر الصور، وسار في الفرض والتصوير شوطاً بعيداً.

القلب المخلص

وكان أبو حنيفة مخلصاً في طلب الحق وتلك هي صفة الكمال التي رفعته، ونوّرت قلبه، وأضاءت بصيرته بالمعرفة، فإن القلب المخلص الذي يخلو من الغرض، ودور النفس والهوى في بحث الأمور وفهم المسائل، يقذف الله فيه بنور المعرفة، فتزكو مداركه، ويستقيم فكره..

وإن الاتجاه المستقيم في طلب الحقائق، يسهّل إدراك العقل لها، بخلاف العقل الذي أركسته الشهوات، فإنها تقتله، وما يدري أهو في مهاوي شهواته، أم في مدارك عقله.





فراسة دقيقة

وقد كان مع الهيبة له فراسة دقيقة عميقة، يستبطن بها ما يخفيه الرجال، ويدرك عواقب الأمور، وحياته كلها تنبئ عن قوة الشخصية، وقوة الفراسة، وإن قوة الفراسة تنمو عند ذي العقل القوي، والإحساس العميق، عند دراسته لأحوال تلاميذه، وعند دراسة أحوال الناس..

وهي بعد ذلك نور يفيض الله به على المخلصين، الذين يتصدون للقيادة الفكرية، وقد كان أبو حنيفة كل ذلك، فكان قوي العقل، قوي الإحساس، دارساً لأحوال الناس.

أفاض الله عليه بنور الإخلاص، فلماذا لا يكون ذا فراسة قوية، وقد ورد في بعض الآثار المنسوبة للنبي ﷺ أنه قال: "اتقوا فراسة المؤمن".



إن عمق التفكير عند أبي حنيفة جعله لا يقف عند ظواهر النصوص، بل يبحث عن عللها وغاياتها، مع إخلاصه في طلب الحق، وفراسته الدقيقة العميقة..

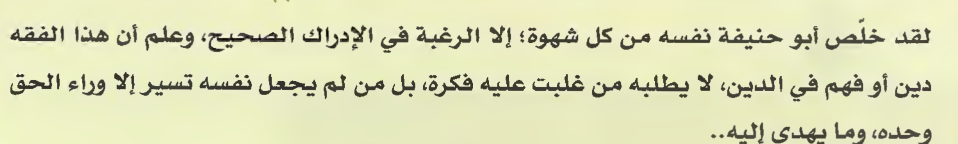
2 حر التفكير



ومع هذا العمق قد أوتي استقلالاً في تفكيره، جعله لا يفنى في غيره، ولا يأخذ فكرة أو رأياً من غير أن يعرضه على عقله، وقد لاحظ عليه ذلك شيخه حماد بن أبي سليمان، إذ كان ينازعه النظر ويناقشه في كل قضية تعرض، فلم يمنعه احترامه وحبه لأستاذه أن يناقشه ويحاوره..

واستقلال فكره هو الذي جعله يرى ما يرى حراً، غير خاضع إلا لنص من كتاب أو سنة، أو فتوى صحابي، أما التابعي فله أن ينظر في قوله، ويخطئه ويصوبه، لأن رأيه ليس واجب التقليد، ولا من الورع تقليده.





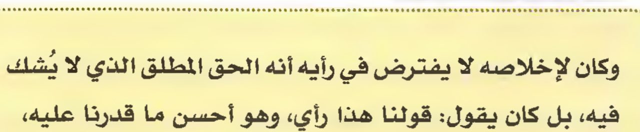
لقد أوتي أبو حنيفة استقلالاً في تفكيره، فلم يمنعه احترامه وحبه لأستاذه أن يناقشه ويحاوره، وكان هدفه دائماً الوصول للحق، ويرجع عن رأيه إن تبين له أنه أخطأ فيه..

الإدراك الصحيح

لقد خلّص أبو حنيفة نفسه من كل شهوة؛ إلا الرغبة في الإدراك الصحيح، وعلم أن هذا الفقه دين أو فهم في الدين، لا يطلبه من غلبت عليه فكرة، بل من لم يجعل نفسه تسير إلا وراء الحق وحده، وما يهدي إليه..

وسواء عنده أن يكون غالباً في المناظرة أو مغلوباً، فإنه هو الغالب دائماً ما دام يطلب الحق، ويصل إليه، ولو كان الذي هداه إليه خصمه في الجدال.





قولنا رأي

وكان لإخلاصه لا يفترض في رأيه أنه الحق المطلق الذي لا يُشك فيه، بل كان يقول: قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا، فهو أولى بالصواب منا.

وقيل له: يا أبا حنيفة، هذا الذي تفتي به هو الحق لا شك فيه؟ قال: والله لا أدري، لعله الباطل الذي لا شك فيه..

يعني به المسائل الاجتهادية، والتي يكون سبيل الحكم فيها الرأي والنظر.



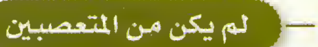
ويحك يا يعقوب

قال زُفر تلميذ أبي حنيفة: كنا نختلف إلى أبي حنيفة، ومعنا أبو يوسف ومحمد بن الحسن، فكنا نكتب عنه، فقال يوماً لأبي يوسف: ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمعه عني، فإني قد أرى اليوم الرأي فأتركه غداً، وأرى الرأي غداً فأتركه بعد غد..

وهذا لا يخالف ما ثبت من أن أبا يوسف كان يسجِّل مسائل الإمام جميعها، لأن ذلك كان بعد تمحيصها، واتفاق الآراء من الإمام وأصحابه عليها.

وكان لإخلاصه في طلب الحق يرجع عن رأيه، إن ذكر له مناظره حديثاً لم يصح عنده غيره، ولا مطعن له فيه، أو ذكرت له فتوى صحابي كذلك.





لم يكن من المتعصبين

هذا هو إخلاص أبي حنيفة لفقهه ودينه، فلم يكن من المتعصبين لآرائهم، بل دفعه الإخلاص للحق - مع سعة عقله - لأن يفتح قلبه لغير رأيه من الآراء، وإن التعصب إنما يكون ممن غلبت مشاعره على أفكاره، أو من ضعفت أعصابه وضاق نطاق فكره، ولم يكن أبو حنيفة كذلك، بل كان القوي في عقله، المستولي على نفسه وأعصابه، المخلص في طلب الحق، الخائف من ربه. . فغرض احتمال الخطأ في رأيه.

قوة الروح

وكان يتوج هذه الصفات كلها صفة أخرى، لعلها مظهر لهذه الصفات كلها، أو هي هبة الله لبعض النفوس، تلك الصفة هي قوة الشخصية، والنفوذ، والمهابة، والتأثير في غيره، والجاذبية، وقوة الروح.

كان له تلاميذ كثيرون، ولم يكن يفرض عليهم رأيه، بل كان يدارسهم، ويتعرف آراء الكبار، ويناقشهم مناقشة النظير، لا مناقشة الكبير للصغير، وكان ينتهي هو برأي فيصمت الجميع عنده ويسكنون إليه، وقد يستمر بعضهم على رأيه، وفي الحالين لأبي حنيفة مكانته وشخصيته.

وقد وصف مجلس أبي حنيفة مع أصحابه، معاصره مسعر بن كدام، فقال: كانوا يتفرقون في حوائجهم بعد صلاة الغداة (الفجر)، ثم يجتمعون إليه، فيجلس لهم، فمِن سائل، ومن مناظر، ويرفعون الأصوات لكثرة ما يحتج لهم، إن رجلاً يسكن الله به هذه الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام.


مسعر بن كدام

تلميذ معتدل لأهل البيت

ولقد كان الإمام يعيش وسط آراء متناحرة، فكان يأخذ من كل ذي رأي رأيه، ويدرسه حراً غير متبع..
التقى بأئمة الشيعة من ذرية علي رضي الله عنه، ولهم في قلبه منزلة وإكرام، وانتفع منهم من غير أن يُعرف عنه تشيع لآل البيت، وإن عرفت عنه محبة واضحة لهم، أخذ عن زيد بن علي، ومحمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، وعبد الله بن حسن بن حسن، ولم يُعرف أنه كان تابعاً لهؤلاء، أو لواحد منهم في تفكيره، ومع أن الكوفة قد اشتهرت بالتشيع، والطعن في أئمة الصحابة، كان رضي الله عنه يكرم الصحابة أجمعين..
قال سعيد بن أبي عروبة: قدمت الكوفة فحضرت مجلس أبي حنيفة، فذكر يوماً عثمان بن عفان، فترحم عليه، فقلت له: وأنتَ يرحمك الله، فما سمعت أحداً في هذا البلد يترحم على عثمان بن عفان غيرك.
هذا هو الفكر المستقل، لا يخضع للعامة، ولا يفنى في الخاصة، ولا يؤثر فيه الحب والبغض.
مع أن أبا حنيفة التقى بشيوخ متنوعين، وبكثير من أئمة الشيعة الذين كان يحبهم من غير تشيُّع، إلا أن فكره المستقل جعله يأخذ من كل ذي رأي رأيه، ويدرسه حراً غير متبع..

سعيد بن أبي عروبة



3 البديهة الحاضرة

وكان رحمه الله حاضر البديهة، تأتيه أرسال المعاني متدافعة في وقت الحاجة إليها، فلا تحتبس فكرته، ولا يغلق عليه في نظر، ولا يُفحم في جدال ما دام الحق في جانبه، وعنده من الأدلة ما يؤيده، ولقد اشتهر بذلك بين فقهاء عصره..
روى عن الليث بن سعد فقيه مصر أنه قال: كنت أتمنى أن أرى أبا حنيفة، حتى رأيت الناس متقصفين على شيخ، فقال رجل: يا أبا حنيفة، وسأله عن مسألة، فوالله ما أعجبني صوابه، كما أعجبني سرعة جوابه! (أي سرعة جوابه أدهشتني أكثر من صحة جوابه).



التخلص من المؤامرات

كانت عند أبي حنيفة قدرة عجيبة على التخلص من المؤامرات التي تُحاك ضده، ففي قصة طريفة حدثت في مجلس أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي حين دخل أبو حنيفة على الخليفة أبي جعفر، وعنده أعداد كبيرة من الناس.

فقال أحد كبار القوم، وهو أبو العباس الطوسي لمن حوله: اليوم أقتلُ أبا حنيفة. (أي أغلبه في الحجة والمنطق، فإن أخطأ قتله الخليفة) فنادى في المجلس: يا أبا حنيفة، عندي سؤال.

قال أبو حنيفة: هات - والخليفة يسمع -.

قال الطوسي: إن أمير المؤمنين يدعو الرجل منا، فيأمره بضرب عنق الرجل ـــ وهو لا يدري ما فعل ذلك الرجل ـــ أيسعه أن يضرب عنقه؟ (أي حين يأمرنا الخليفة بقتل الرجل دون أن نعرف ذنبه، فهل يجوز لنا طاعة الخليفة؟).

السؤال خطير، فإن أجاب بأنه يجوز، فكأنه يقول: اقتل بغير سبب.

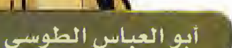
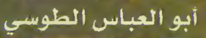
وإن أجاب: بأنه لا يجوز، فكأنه يقول: أوامر الخليفة لا قيمة لها.

لكن انظر الفطنة والدهاء، وسرعة البديهة عند أبي حنيفة، ردّ على الطوسي حيث قال: يا أبا العباس، أمير المؤمنين يأمر بالحق أم بالباطل؟

فقال الطوسي: بالحق.

فقال أبو حنيفة: أنفذ الحق حيث كان.

والتفت إلى من كان جنبه وقال: أراد هذا أن يوثقني فربطته.



أبو العباس الطوسي

هناك أمرٌ أخطر

دعا المنصور يوماً أبا حنيفة، فقال الربيع بن يونس حاجب المنصور ـ وكان بينه وبين أبي حنيفة عداء ـ: يا أمير المؤمنين، هذا أبو حنيفة يخالف جدك عبد الله بن عباس.

قال أبو جعفر: فيمَ يخالفه؟

قال الربيع: يقول ابن عباس: إذا حلف الإنسان على يمين، ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء، (أي من حلف بحلف ثم قال: إن شاء الله. بعد ذلك بيوم أو يومين يجوز ذلك ولا يقع يميناً لازماً، أو يحلف ثم يضع شرطاً بعد يوم أو يومين فيقول: إلا إذا حدث كذا أو صار كذا). وأبو حنيفة يقول: لا يجوز الاستثناء بهذه الصورة، فمن أراد أن يستثني يجب أن يتبع الاستثناء الكلام فوراً.

فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، هناك أمر أخطر من هذا.

قال الخليفة: ما هو؟

قال أبو حنيفة: الربيع حاجبك هذا يقول للناس: ليس في عنقكم بيعة للخليفة، ويقول للجنود: ليس في عنقكم بيعة للخليفة.

فيقول الربيع: واللهِ ما قلت.

قال أبو حنيفة: بل قلت.

قال الربيع: كيف؟

قال أبو حنيفة: ألستَ تفتي بقول ابن عباس؟

قال الربيع: نعم.

قال أبو حنيفة: يأتي الناس ويحلفون بالبيعة أمام أمير المؤمنين، ثم يذهبون ويستثنون، إلا كذا وكذا.. ويضعون شروطاً لا تنطبق على الخليفة، فتبطل أيمانهم.

فضحك المنصور، وعرف أن الاستثناء بهذه الطريقة لا يصح، فقال: يا ربيع، لا تعرض لأبي حنيفة.

فلما خرج أبو حنيفة أمسكه الربيع يعاتبه، وقال: أردت أن تشيط بدمي؟ (أي تقتلني)

قال أبو حنيفة: لا، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصتُ نفسي.



واسع الحيلة

الخوارج فرقة منحرفة، وكانت هذه الفرقة تقتّل المسلمين إذا لم يقولوا بقولهم، ويتركون المشركين إذا استجاروا بهم، فدخلت عصابة منهم يوماً مسجد الكوفة، وأخذت تقتّل الناس، فهرب الناس، فلما رأى أبو حنيفة المشهد، أمر أصحابه بالجلوس، فلم يتحركوا، وقال لهم: لا تبرحوا.

وما هي إلا لحظات حتى كان الخوارج واقفين على رأس الحلقة، فقال رئيس الخوارج: ما أنتم؟

فقال أبو حنيفة: نحن مستجيرون.

فقال الخارجي: اتركوهم، وأبلغوهم مأمنهم، واقرؤوا عليهم القرآن. فأخذ الخوارج يقرؤون القرآن، وأصحاب أبي حنيفة مستغربون، ثم طلبوا منهم أن يخرجوا معهم، وحرسوهم إلى أن أخرجوهم من المسجد بكل أمان.

فلما التقى أبو حنيفة بأصحابه سألوه: كيف استطاع أن ينجيهم وينجي نفسه من هؤلاء؟

فقال: هؤلاء من عقيدتهم قتل من يخالفهم من المسلمين،

الخوارج واقفون على رأس الحلقة



لكنهم أيضاً يطبقون ما يفهمون من القرآن، وفهمهم للقرآن في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:6)،

فلما قلتُ لهم: نحن مستجيرون، طبقوا عليّ الآية فأسمعوني كلام الله، وأبلغوني مأمني.

وهذا يدل على فطنة وعلى بديهة سريعة، لأن الموقف خطير، فمَن يستطيع أن يتصرف بهذه السرعة في لحظات والناس تُقتّل من حوله؟ وأيضاً يدل على علم أبي حنيفة، ليس فقط بمنهج السلف الصالح، لكن حتى بمنهج الفرق الضالة.

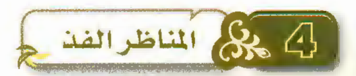
والأخبار مستفيضة بسعة حيلة أبي حنيفة في المناظرات، وحسن استدراجه للطائف القول في أشدّ المواقف حرجاً وضيقاً، حتى لقد قال له أبو جعفر المنصور: أنت صاحب حيل.

وكان يسهّل له سبيل الجدال قوة فراسته، وبصره بنفوس الرجال، وقدرته على فتح مغاليق قلوبهم، وخفايا أنفسهم، فيأتي إليهم من قِبَل ما يدركون، ويألفون، ويسوِّغ الحق لهم، ويسهل قبوله عليهم.



كان أبو حنيفة حاضر البديهة، سريع الجواب، لا يُفحم في جدال ما دام الحق في جانبه، ويستطيع التخلص بسعة حيلته في أشد المواقف حرجاً..





4 المناظر الفذ

كان رحمه الله في مناظراته واسع الإدراك قوي الحجة، يعرف كيف ينفذ إلى أن يفحم خصمه من أيسر سبيل، إذا كان خصمه متعنتاً، أو يريد إحراجه، وله في ذلك غرائب ومدهشات معجبات، قد امتلأت بها كتب المناقب والتراجم والتاريخ، وهذه بعضها:

ليس عليّ يمين

يروى أن رجلاً مات، وأوصى إلى أبي حنيفة وهو غائب، وارتفع الأمر في القضية إلى ابن شبرمة، الذي كان قاضياً، وجاء أبو حنيفة وأقام البينة، على أن فلاناً مات، وأوصى إليه.

فقال ابن شبرمة: يا أبا حنيفة، أتحلف على أن شهودك شهدوا بحق؟

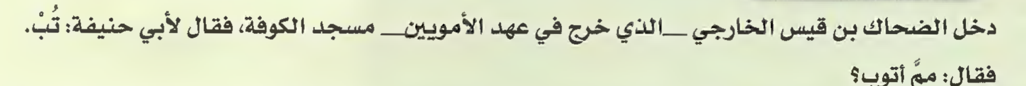
فقال أبو حنيفة فقيه العراق: ليس عليّ يمين، كنتُ غائباً.

فقال ابن شبرمة: ضلّ مقاييسك. (أي أخطأتَ وانحرفتَ)

قال أبو حنيفة: ما تقول في أعمى شُج، فشهد له شاهدان بذلك، أعلى الأعمى يمين أن يحلف أن شهوده شهدوا بحق، وهو لم يرَ؟

فحكم ابن شبرمة له بالوصية وأمضاها.

تقتلني أو تناظرني؟



دخل الضحاك بن قيس الخارجي ـــ الذي خرج في عهد الأمويين ـــ مسجد الكوفة، فقال لأبي حنيفة: تُبْ.

فقال: ممَّ أتوب؟

قال: من تجويزك التحكيم. (أي لأنك رضيت بالتحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وكان الخوارج يكفرون من يقول بجواز التحكيم لأنه عندهم تحكيم للبشر في دين الله تعالى).

فقال أبو حنيفة: تقتلني أو تناظرني؟ (أي تقتلني لأني عندك كافر أو تناقشني).

فقال: بل أناظرك.

قال: فإن اختلفنا في شيء مما تناظرنا فيه، فمَن بيني وبينك؟

فقال الخارجي: اجعل أنتَ من شئت.

فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك: اقعد فاحكم بيننا فيما نختلف فيه إن اختلفنا.

ثم قال للضحاك: أترضى بهذا بيني وبينك؟

قال الضحاك: نعم.

قال الإمام أبو حنيفة: فأنت بهذا قد جوّزتَ التحكيم، فانقطع. (أي أفحم الضحاك).

أتيتك خاطباً

يروى أنه كان بالكوفة رجل يقول: عثمان بن عفان كان يهودياً، ولم تستطع العلماء إقناعه أو حمله على أن يقول غير مقالته.

فأتاه أبو حنيفة، قال: أتيتك خاطباً.

قال: لمن؟

قال أبو حنيفة: لابنتك يخطبها رجل شريف، غني بالمال، حافظ للكتاب، سخي، يقوم الليل في ركوع، كثير البكاء من خوف الله تعالى.

فقال: في دون هذا مقنع يا أبا حنيفة. (أي لو كانت صفاته أقل من ذلك لرضيت).

فقال أبو حنيفة: إلا أن فيه خصلة.

قال: وما هي؟

قال أبو حنيفة: يهودي.

قال الرجل: سبحان الله! أتأمرني أن أزوج ابنتي من يهودي؟!

قال أبو حنيفة: ألا تفعل؟

قال: لا.

قال أبو حنيفة: فالنبي ﷺ قد زوّج ابنتيه من يهودي (أي عثمان رضي الله عنه الذي يعتبره هذا الرجل كذلك)..

قال: أستغفر الله، إني تائب إلى الله عز وجل.

بهذه الفطنة السمحة كان يرد الجاهلين إلى الصواب.



مُغْرَمٌ بالمناظرة

وكان أبو حنيفة رجلاً نظّاراً، أُغرم بالجدل والمناظرة، منذ شبّ في طلب العلم، وقد كان ينتقل إلى البصرة موطن الفرق الإسلامية، ويجادل رؤوسها، وينازلهم في آرائهم، حتى يروى أنه جادل نحو اثنتين وعشرين فرقة، ثم جادل وهو كبير دفاعاً عن الإسلام.

مناظرة مع الدهرية

روي أنه جادل الدهرية مرة، فقال لهم يوجههم إلى ضرورة الإيمان بمنشئ العالم: «ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة، مملوءة بالأمتعة والأحمال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية، ليس فيها ملّاح يجريها ويقودها، ولا متعهد يدفعها ويسوقها، هل يجوز ذلك في العقل؟

فقالوا: لا، هذا شيء لا يقبله العقل، ولا يجيزه الوهم.

فقال أبو حنيفة رحمه الله: فيا سبحان الله! إذا لم يجز في العقل وجود سفينة مستوية من غير متعهد، ولا مجرٍ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وتغير أمورها وأعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانع وحافظ، ومحدث لها».

المناظرة ترهف التفكير، وتُعمِّق المدارك، وتزيد المعرفة، وقد أُغرم أبو حنيفة بالمناظرة منذ شبابه، وكان في مناظراته واسع الحيلة، يعرف كيف ينفذ إلى أن يفحم خصمه من أيسر سبيل..

فوائد المناظرة

ومجادلته في العقائد، أرهفت تفكيره، وعمّقت مداركه، ثم كانت مناظراته في الفقه في كل مكان في رحلاته، ففي مكة والمدينة، وسائر ربوع الحجاز، كانت تُعقد المناظرات، وتُقام سوق الفقه، كلٌ يدلي بنظره وحجته، فكان بهذا يطلع على أحاديث لم يكن يعرفها من قبل، وأوجه للقياس عساه لم يكن قد تنبه إليها، وفتاوى للصحابة لم يكن قد اطّلع عليها، كقوله بعدم جواز الأمان للعبد، حتى نبهه مناظره إلى أمر عمر رضي الله عنه بجواز أمانه، فأفتى بالجواز ورجع عن رأيه.

مفتاح شخصيته

هذه جملة صفات أبي حنيفة، بعضها فطري وبعضها كسبي، راضَ نفسه عليها، وأخذها على سمته، وهي مفتاح شخصيته، وهي التي جعلته ينتفع بكل غذاء روحي يصل إليه، فكانت في نفسه كالأجهزة التي يتمثل بها الغذاء في الأجسام الحية، وكانت بها المجاوبة بينه وبين عصره، وشيوخه وتجاريه، تتغذى من كل هذه العناصر، وتمدها بنوع جديد من الفكر والرأي، عميق النظر، بعيد الأثر في النفوس والأجيال.

تباين الناس فيه

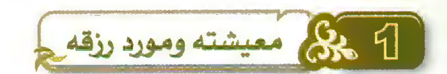
وبهذه الصفات استولى أبو حنيفة على المعجبين به، فدفعهم إلى الثناء عليه، وأثار حقد الحاقدين فاندفعوا إلى الطعن في سيرته، وقد جاء في كتاب الخيرات الحسان: «يُستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه، ألا ترى علياً كرّم الله وجهه، هلك فيه فئتان: محب أفرط ومبغض أفرط؟».

وكذلك كان أبو حنيفة في عصره؛ فمن الناس من غالى في تقديره، ومنهم من غالى في تنقيصه، وهو عند أهل الحق عظيم، وشيخ فقهاء العراق غير منازع.


3 الفصل الثالث
التاجر الخلوق



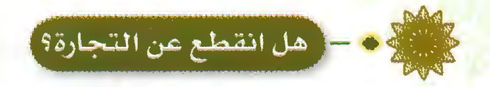
الفصل الثالث: التاجر الخلوق



1 معيشته ومورد رزقه

إن أبا حنيفة نشأ في بيت من بيوت أهل اليسار والغنى، فأبوه كان تاجراً، ويغلب على الظن أن تجارته كانت في الخز (قماش يدخله الحرير)، وهي تجارة تدر على صاحبها الخير الوفير، والربح الكثير، وقد أخذ أبو حنيفة عنه هذه التجارة، فنشأ أول ما نشأ يختلف إلى السوق، ولا يعكف على الاستماع إلى العلماء، حتى نبهه الشعبي إلى أن يختلف إلى العلماء، ويعكف على الاستماع إليهم.

كان أبو حنيفة خزازاً، يبيع الحرير الخالص، أو المخلوط بالصوف، وقديماً كان نبي الله إدريس أول من خاط الثياب، وكان أبو بكر الصديق بزازاً، وكثيرون من جلّة الأصحاب كانوا تجاراً.



هل انقطع عن التجارة؟

كل الرواة يقولون: إنه لم ينقطع عن التجارة، بل استمر تاجراً إلى أن مات، ويذكرون أنه كان له شريك، ويظهر أن ذلك الشريك أعانه على الاستمرار في طلب العلم، وخدمة الفقه، ورواية الحديث، فإن الرواة مع إجماعهم على أنه كان تاجراً، أجمعوا أيضاً على انصرافه إلى خدمة الفقه والدين، ولا يتسنى له ذلك إلا أذا أعانه شريك أمين أغناه عن ملازمة السوق، وإن كان له بها علم واتصال وخبرة، وإشراف ومعاملة، وذلك شأن العلماء الذين جمعوا بين العلم والتجارة.

في السوق

نشأ أبو حنيفة في بيت من بيوت التجار، ثم لم ينقطع طول حياته عن التجارة، وإن كان قد أناب عنه من يلازم عمله ويزاول التجارة، وبهذا كان عليماً بالصفق في الأسواق، وأحوال المبايعات، والعرف التجاري.

وفي الجملة كانت تجاربه في السوق هادية له مرشدة، تجعله يتكلم في معاملات الناس وأحكامها كلام الخبير الفاهم، ولعله من أجل ذلك جعل للعرف مكاناً في تخريجه الفقهي، إذا لم يكن كتاب ولا سنة، كما سنبين إن شاء الله تعالى، ولعل تلك الخبرة هي التي جعلته يحسن التخريج بالاستحسان، عندما يكون في القياس منافاة للمصلحة، أو العدالة، أو العرف.

ولقد قال محمد بن الحسن تلميذه: «كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينتصفون منه، ويعارضونه، حتى إذا قال: أستحسن، لم لا يلحقه أحد منهم، لكثرة يورد في الاستحسان مسائل، فيذعنون جميعاً، ويسلّمون له».

وما ذاك إلا لإدراكه لدقيق المسائل، وصلتها بالناس، ومعاملاتهم، وأغراضهم، فإن استحسن فإنما يأخذ مادته من دراساته لأحوالهم، مع دراسات أصول الشرع الشريف ومصادره.





عطاء الخلفاء

ثبت ثبوتاً لا يقبل الريب أن أبا حنيفة رحمه الله لم يقبل عطاء الحكام، سواء أكانوا خلفاء أم كانوا في مرتبة دون الخلافة.

وإن التاريخ ليثبت أن الأئمة الأربعة، منهم من ترخص في الأخذ من الحكام، وهو الإمام مالك رحمه الله، فقد كان يعتقد أن للعلم حقاً في بيت المال، وأن الحكام لا يعطونه هبة من مالهم، وإنما يُجرون عليه رزقاً، لأنه حبس نفسه على العلم والبحث والفتيا، فانقطع عن الكسب..

فكان حقاً على بيت المال أن يسدّ حاجته، وأن يعطيه ما يكفيه وأهله بالمعروف، وإن هذا العطاء الذي ترخص في أخذه كان ينفق منه على طلاب العلم، فإليه كانوا يأوون، وقد آوى إليه الشافعي رحمه الله، وعاش في كنفه نحو تسع سنين، ولم يشعر بالخصاصة في حياته، ثم بعد وفاته اضطر لأن يتولى ولاية اليمن.

والشافعي بعد أن حبس نفسه على العلم، كان يأخذ من سهم بني المطلب الذي فرضه لهم النبيﷺ، فما كان يأخذ عطاء، بل كان يأخذ سهماً مقدراً في القرآن، باعتباره قرشياً من ذوي القربى للرسول ﷺ .

وأما الإمامان أبو حنيفة وأحمد بن حنبل، فقد امتنعا عن الأخذ من بيت المال امتناعاً مطلقاً، ورضي أحمد بأن يعيش في قلّ من أن يأخذ مالاً لا يدري أجُمع بحلّه، أم جُمع بغير حلّه.

أما أبو حنيفة فقد كان في بحبوحة من العيش، لأنه استمر تاجراً إلى أن مات.

وهكذا نرى اختلاف الأئمة الأربعة في التعامل مع عطاء الخلفاء، فمن متشدد إلى متساهل، ولكن لا ينكر أحد منهم على الآخر بشرط ألا يؤدي ذلك إلى التنازل عن المبادئ أو الحق في سبيل إرضاء الخلفاء أو الكبار..

أخذ أبو حنيفة تجارة الخزّ عن أبيه، واستمر تاجراً إلى أن مات، وكان يمتنع عن عطاء الخلفاء امتناعاً مطلقاً..

2 تاجر صناعته الفكر

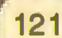
كان أبو حنيفة تاجراً صناعته الفكر، ومفكراً يعمل في التجارة، ومن ثمّ كان توفيقه التجاري الذي انحدرت إلينا أنباؤه مع التاريخ.

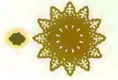
رجل كله أناقة ولباقة، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر، وما أقلّ من كان الفكر مشغلة حياتهم، وقُدِّر لهم مع ذلك أن يجدوا في الأرض مراغماً وسَعة، تجنبهم أن يسعوا لدى الأمراء والأغنياء، مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم في معترك الحياة.

بهذا حلّ أبو حنيفة العقدة التي بإزائها المفكرون حزنى مبلسون، عقدة الفقر الذي عوّد الناس أن يلازم أهل الفكر ورجال العلم.

ولهذا فإني أرى ضرورة أن يكون للمفكر أو العالم مصدر رزق حر مستقل من غير الوظيفة حتى لا يضغط عليه أحد في فكره أو علمه، وليبقى عزيز النفس حر الوقت لينصرف إلى العلم والفكر والدعوة..







ضرورة المال للعالِم

عرف أبو حنيفة أنه كلما بَعُد الفقيه عن الحاجة إلى ما في أيدي الناس، قَرُبَت الفتوى من الله، وكلما أغناه الخالق عن الخلق، أدناه من الحق..

وإذا لم يكن الفقه أداة للطعام، تداول الدنيا كلها بين أنامله.

وأدرك الشافعي ذلك من بعده بنصف قرن، فقال: «لا تُشاور من ليس في بيته دقيق، فإنه مُوْلَهُ العقل».

بدأ أبو حنيفة حياته في التجارة، يطبعه الطابع العلمي، فدخل السوق يدرس على أستاذ يعلمه التجارة، سمّاه للإمام الشعبي يوم وجهه للدرس الفقهي، لما فيه من مزاج جامع بين العلم والعمل، فيتدرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملي محض.

المقر التجاري

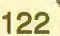
وهكذا دخل أبو حنيفة إلى السوق مدخلاً كريماً، فأضحى فيه من المجددين، والمجدودين، اختار له مكاناً من بين أبرز الأمكنة في الكوفة، في دار ليست هينة على التاريخ، هي دار عمرو بن حُريث رضي الله عنه - الصحابي الجليل- يلتقي بها المؤرخ حيث يجد الجد في حياة العراق، وحيث يكون للأماكن شأن، وقد اشترى أبو حنيفة هذه الدار، وصارت مركزاً كبيراً للتجارة.

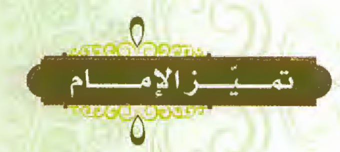


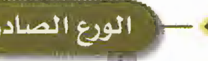




استطاع أبو حنيفة أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر والدعوة، واختار لتجارته مركزاً بارزاً في الكوفة، هو دار الصحابي الجليل عمرو بن حريث رضي الله عنه ..







3 أخلاق تجارية فريدة

الورع الصادق

هذا المقر التجاري كان يمثل مدرسة في أخلاق التجارة، وفي أدب التعامل، وكان له نظام دقيق في البيع والشراء.

من ذلك الحرص على الربح بالمعقول دون استغلال.

وإذا تعامل مع الفقراء كان يخفض الربح، أو يبيع دون ربح.

وإذ اشترى من غيره كان يشتري بسعر معقول أيضاً.

ولا يخدع الناس ولا يستغلهم.

وكان حريصاً على أن يطرح البضاعة ويذكر مواصفاتها دون مبالغة.

وإذا وجد شيئاً فيه عيب لا يبيعه إلا أن ينبِّه المشتري إلى هذا العيب، ويبيعه بسعر يتناسب مع وجود هذا العيب.

فينبغي للتجار أن يطبقوا هذه الأخلاق في تجارتهم.

وكان أبو حنيفة إذا تجاوز ربحه أربعة آلاف درهم في السنة يتصدق بالباقي، وينفقه على تلاميذه.



قدوته أبو بكر رضي الله عنه

أبو حنيفة التاجر اتصف بصفات لها صلة بمعاملة الناس، جعلته في الذروة بين التجار، كما هو في الذروة بين العلماء.

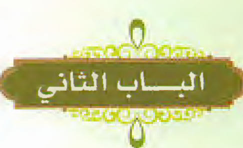
فكان غني النفس، لم يستولِ عليه الطمع الذي يفقر النفوس.

وكان عظيم الأمانة، شديداً على نفسه في كل ما يتصل بها.

وكان سمحاً، وقاه الله تعالى شح النفس.

وكان بالغ التدين، يرى في حسن المعاملة عبادة.. فمع أنه كان صواماً قواماً، كان يرى أن ثمة عبادة عالية، وهي المعاملة الحسنة.

فكان لهذه الصفات مجتمعة أثرها في تجارته، حتى كان غريباً بين التجار، وقد شبهه كثيرون في تجارته بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكأنه كان يحكي مثاله، ويسير على منهاجه، وهو من السلف المتبع.





أمين في الشراء

وكان أبو حنيفة أميناً في شرائه، كأمانته في بيعه.

جاءته امرأة بثوب من الحرير تبيعه له، فقال: كم ثمنه؟

قالت: مائة.

فقال أبو حنيفة: هو خير من مائة، بكم تقولين؟

فزادت مائة، مائة، حتى قالت: أربعمائة.

فقال: هو خير من ذلك.

قالت: أتهزأ بي؟!

قال: هاتي رجلاً يقومه، فجاءت برجل، فاشتراه بخمسمائة.

ألا تراه مشترياً يحتاط للبائع، قبل أن يحتاط لنفسه، فهو لا يرى في غفلة البائع فرصة ينتهزها، ولكن يرى فيها مكان للإرشاد فيرشد.

التاجر الأمين، لا يرى في غفلة البائع فرصة فينتهزها، ولكن يرى فيها مكان للإرشاد فيرشد، فهو أمين في شرائه، كأمانته في بيعه.



مراعاة الضعفاء

وكان وهو بائع، يترك الربح إذا كان المشتري ضعيفاً، أو صديقاً.

جاءته امرأة، فقالت: إني ضعيفة، وإنها أمانة، فبعني هذا الثوب بما يقوم عليك. (أي بعني الثوب برأس ماله دون ربح)

فقال: خذيه بأربعة دراهم.

فقالت: أتسخر مني وأنا عجوز؟

فقال أبو حنيفة: إني اشتريت ثوبين، فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم، فبقي هذا الثوب عليّ بأربعة دراهم. (أي هذا ما تبقى من رأس مال الثوبين بعد أن خصم سعر بيع الثوب الأول من رأس المال).

بقي هذا بدرهم

وتتكرر هذه القصة عندما جاءه صديق له، يطلب إليه ثوب حرير على وصف ولون حددهما الرجل، فقال أبو حنيفة: اصبر حتى أجده، وآخذه لك، إن شاء الله تعالى.

فما دارت الجمعة حتى وجده، فمرّ به الصديق، فقال له أبو حنيفة: قد وجدت حاجتك، وأخرج إليه الثوب.

فقال صاحبه: كم إذن؟

قال أبو حنيفة: هو بدرهم.

قال: ما كنت أظنك تهزأ بي.

قال أبو حنيفة: ما هزأت، إني اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً، ودرهم، وإني بعت أحدهما بعشرين ديناراً، وبقي هذا بدرهم.

لا شك أن هذه معاملة قد خالطها العطاء، أو هي عطاء قد لبس صورة البيع والشراء، فهي ليست من التجارة، ولكنها تنبئ عن ذلك التاجر العظيم، في نفسه، وأمانته، وعقله، ودينه، ووفائه، وتبين وجه السماحة في قلبه.

أي أخلاق هذه، وأي سمو هذا!

احرص أخي التاجر على أن تكون أموالك ليست فقط حلالاً، بل أن تكون طاهرة، بهذا الرقي، وهذا النقاء.



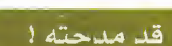


ورعٌ شديد

ولقد كان شديد الحرج في كل ما تخالطه شبهة الإثم، ولو كانت بعيدة، فإن ظن إثماً أو توهمه في مال خرج منه، وتصدق به على الفقراء والمحتاجين.

يروى أنه بعث إلى شريكه حفص بن عبد الرحمن ببضاعة، وأعلمه أن فيها ثوباً فيه عيب، وأوجب عليه أن يبين العيب عند بيعه، فباع حفص المتاع، ونسي أن يبين، ولم يعلم الذي اشتراه، فلما علم أبو حنيفة، تصدق بثمن البضاعة كلها حرصاً منه على ألا يدخل عليه مال فيه إثم.

حفص بن عبد الرحمن



قد مدحتَه !

طلب رجل ثوب حرير، فقال لابنه حماد: يا حمّاد، أخرج ثوباً.

فأخرج حمّاد ثوباً ونشره قائلاً: صلى الله على محمد..!

فقال أبو حنيفة: مَهْ، قد مدحتَه.. ورفض أن يبيعه.

وتجول المشتري في السوق يبحث عن ثوب آخر، ولم يوفّق، فعاد إلى دار ابن حُريث أشد ما يكون حاجة إلى الثوب، وأظهر ما يكون استعداداً لدفع الثمن، ولكن الشيخ في غير مخاشنة، ولا مشاقة، بل في سماح، رفض أن يبيع، وعاد المشتري أدراجه.

فانظر إلى هذا الورع الشديد والحرص على عدم استغلال الدين لأجل الدنيا.

ربحٌ وفير

ومع هذا الورع الشديد، والاكتفاء من الربح بالقدر الحلال، كانت تجارته تدرُّ عليه الدَّر الوفير، وكان ينفق من ربحه على المشايخ والمحدِّثين.

جاء في تاريخ بغداد: «أنه كان يجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة، فيشتري بها حوائج الأشياخ والمحدِّثين، وأقواتهم، وكسوتهم وجميع حوائجهم، ثم يدفع باقي الدنانير من الأرباح إليهم، فيقول: أنفقوا في حوائجكم، ولا تحمدوا إلا الله، فإني ما أعطيتكم من مالي شيئاً، وإنما هو من مال الله».

فكان ربح تجارته رحمه الله؛ ليحفظ مروءة العلماء، ويسدَّ حاجاتهم، ويدفع خلتهم، ويجعل العلم في غناء عن كل عطاء.



استمتاع حلال

وقد كان -رحمه الله- مع كل هذا حريصاً على أن يستمتع بالحياة استمتاعاً بريئاً..

فكان كثير العناية بثيابه، ويختارها جديدة، حتى قالوا: إن كساءه كان يقوَّم بثلاثين ديناراً من الذهب، وكان حسن الهيئة، كثير التعطر، قال تلميذه أبو يوسف: «كان يتعهد شسعه (نعله)، حتى لم يُرَ منقطع الشسع».

وكان يحث من يعرفه على العناية بملبسه، وسائر مظهرِه، فلا بأس بذلك ما دام من حلال ولا ينشغل الإنسان عن العمل الصالح ولا يتعلق بسببه بالدنيا..

تنظيم الوقت

كان أبو حنيفة منظَّماً في عمله وحياته، وكان الجزء الأكبر من حياته للعلم، والباقي للسوق ولبيته.. روي عن يوسف بن خالد السمتي أنه قال في توزيع حياته في أيام الأسبوع: كان يوم السبت لحوائجه، لا يحضر في المجلس، ولا يحضر في السوق، يتفرغ لأسبابه في أمر منزله وضياعه، وكان يقعد في السوق من الضحى إلى الظهيرة، وكان يوم الجمعة له دعوة، يجمع أصحابه في بيته، ويقدم لهم ألوان الطعام.

فتنظيم الوقت والتوازن بين الأدوار المختلفة في الحياة من أهم أسباب النجاح في الدنيا والآخرة.

كان أبو حنيفة مدرسة في أخلاق التجارة، وفي أدب التعامل، عظيم الأمانة، سمحاً، شديداً على نفسه، شديد الورع في كل ما تخالطه شبهة.. وقد شبهه كثيرون في تجارته بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ..



4 القدوة الحسنة للتجار

في ذلك الحانوت، في دار ابن حُريث التي بقيت خالصة للتجارة، يجلس سيِّد وقور، غير عَجِل، مخبور التجارب، يتقبل الناس بقبول حَسَن، وضَّاء المحيا، منبسط الطبع، ميمون النقيبة، ينصف الناس منه قبل أن ينصف نفسه من الناس، لا يمايل، ولا يتحيف، ولا يستكبر، ولا يستنكف، يقصده فظّ القلب فيألفه، ويمر به الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة، فإذا قام سأل عنه، فإن كانت به فاقة وصله، وإن كان به مرض عاده، حتى يجره إلى مواصلته.

صدق بلا جدال

أما صدق المعاملة، والنفرة من المماكسة والمناقشة لأجل تنزيل السعر، فكانتا كلمة السر في دكانه، لكأنما كانت كل ألواح «الثمن محدد» مرسومة في مخيلة حرفائه وعملائه، قبل أن تشدّ إلى جدار الدار، فلئن كان صاحب الدكان، أستاذ الأساتيذ في الجدال، فإن لكل مقام مقالاً.. وليس هنا مقام الجدال.

كان الناس في ذلك العصر حديثي عهد برسالة الرسول ﷺ، تأسرهم الكلمة إذا سيقت ولو في السوق، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفي دكانه.

وكان الذين يعرفونه يُحذرون الذين لا يعرفونه من المماكسة، وللحرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل.

الفكر التجاري

وكما كان التفكير أداته في الفقه، كان الفكر أداته في التجارة، فقد كان الثمن في دار ابن حُريث يتحدد على أساس من الربح المعقول، يضاف إليه نفقات الشراء والبيع مقيسة بقياس العدل والعقل، فكلما كان القياس الأعظم في تاريخ الفقه كما سنرى، كان القياس المنصف في ثياب الحرير في دار ابن حُريث.

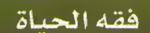
حقاً، إنك لا تستطيع أن تجزم، هل كان التوفيق التجاري قد جاءه عن الفقه؟ أم أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده؟ لكن ثمة قدراً متيقناً تستطيع أن تقرره بين الجوابين هو: أن الصدق والحزم في التجارة، قد هيأ له من النجاح أسباباً مواتية، للتفرغ لدين الله، في روحانية المتعبد، يتستقبل تلك اللمحات التي يبعثها الإلهام في الكون كومضات النور.

فقه الحياة

كما تستطيع أن تقرر أن التجارة ربطت بين دنيا الفقه، ودنيا الناس، في أفكاره، فغدا فقهه فقه الحياة التي نحياها، ورَحِمَ قلبُه ضعفَ الإنسان، وكان التسامح كبرى قواعده.

وتحمّل مسؤولية المخاطرة، فصدع بالرأي في مزاج موفق بين العمل والعلم، والمعقول والمنقول، وامتد بصره فشمل المستقبل، ووضع لاحتمالاته ما يحكمها من الأصول، متحرزاً من البلاء قبل نزول البلاء -كما قال-..

وكما أثّرت في الفقه التجارة، أحدث الفقه في التجارة آثاره.



قاعدة الإصلاح

إن قاعدة الإصلاح في جيل هي: أن يصلح المُصلح نفسه، قبل أن يتحدث في إصلاح سواه، فالنفس هي التي تسمع لا الأذن، وفي الناس لجاجة تنبعث من أعماق حب الذات، أو الدفاع عن النفس، تسوقهم إلى الاستمساك بما هم عليه، والاستسلام إليه.

خطب عمر بن الخطاب ﷺ يوماً، وعليه ثَوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟

قال سلمان: لا نسمع.

قال عمر: ولِمَ يا أبا عبد الله؟

قال: إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً، وعليك ثوبان.

قال: لا تعجل، ونادى: يا عبد الله، فلم يجبه أحد، فنادى: يا عبد الله بن عمر -ابنه-

قال: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: نشدتك بالله، الثوب الذي ائتزرْتُ به، أهوَ ثوبك؟

قال: اللهم نعم.

قال سلمان: أما الآن، فقل؛ نسمع.

وقديماً قيل: خير من الخير فاعله، وشر من الشر فاعله، إن المصلح قبل أن يتحدث في إصلاح الناس، عليه أن يصلح نفسه أولاً، فالنفس تستمسك بما هي عليه، ما لم ترَ القدوة أمامها.



العلم ما نفع

ولقد علّم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الآراء، فقال: «إنِ الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق قوله فعله، فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف فعله قوله، فإنما يوبخ نفسه».

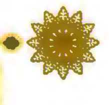
ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام: «إن في جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء، فيشرف عليهم من كان يعرفهم في الدنيا، فيقول: ما صيّركم في هذا؟ إنما كنا نتعلم منكم؟ قالوا: كنا نأمر بالأمر، ونخالفكم إلى غيره».

وقال: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا».

من هنا تدرك أثر القدوة في عمل التاجر الكريم النفس والكريم الفعال.

مَنْ وافق قولُه فعلَه، فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف فعله قوله، فإنما يوبخ نفسه، فتعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا..





قدوة في علمه وعمله

إن أبا حنيفة قدوة للناس في علمه، فليكن قدوة للناس في عمله.

قال لأبي يوسف: «لا ترضَ من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك، فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال على الطاعات، بأكثر مما يفعلونها، يعتقدون فيك السوء، وقلة الرغبة فيها، ويعتقدون أن علمك لا ينفعك، ولا يفيدك إلا ما أفادهم الجهل الذي فيهم.. وكن من الناس على حذر، وكن لله في سرك كما أنت في علانيتك، فلا يصلح أمر العلم إلا بأن تجعل سره كعلانيته».

ولما نهاه الأمير عن الفتيا فانتهى، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة في داره، فلم يجبه.

قال حماد: يا أبتِ، ما لكَ لا تجيبني؟

قال أبو حنيفة: أخاف أن يسألني السلطان: هل أجبتَ أحداً؟ فلا أستطيع أن أقول شيئاً.

فانظر إلى حرصه على الصدق حتى في السر..









الدنيا مدرسة مُكبَّرة

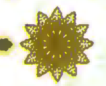
إنك لا تستطيع أن تقنع الناس بالرأي ولا بالعلم، فالدنيا مدرسة مكبرة، والحقائق لا تُفهم مصورة، ولا مجهرة، قدر ما تفهم بالتطبيق، والناس في الدنيا كالتلاميذ في المدارس، لن يفهموا شيئاً إلا إذا صنعوه بأنفسهم، أو صُنع على أعينهم بالرفق وحسن الأداء، والكلام لا يهدي، قدر ما يهدي العمل وما تهدي القدوة، والقدوة في العلم أن تبدأ بنفسك، فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد، أو تصبه من قوالب.

التقرير الختامي

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة في التجارة ثلاثين عاماً، وكان رجلاً صالحاً، روى عن شريكه الحديث والفقه، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمير التجاري للزميل التاجر.

وما أدراك ما في الضمير التجاري: المخالب المخضبة تقطر من دماء الضحايا! والمخارج، والحيل، والسعار المعذب، المندفع نحو كل ما هو مادي ومالي..!

إلى جوار القاعدة الرشيدة، والسجايا الحسان، والآداب العالية للتجارة، فلنستمع إذن لحاصل التقرير الختامي عن الشركة، حيث يقول حفص: «جالستُ أنواع الناس من العلماء، والفقهاء، والزهّاد، والنسّاك، وأهل الورع منهم، فلم أرَ أحداً أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة».



وقال بعد أن تتاركا وفكا الشراكة بينهما: «في طول ما صحبت أبي حنيفة وخالطته، لم أره يعلن بخلاف ما يُسر، ولم أرَ أحداً يتوقى مما لا خطر له (أي يحرص حتى من الأمور المحرمة الصغيرة) مثلما كان يتوقاه، وكان إذا دخلت عليه شبهة من شيء أخرج من قلبه ذلك، ولو بجميع ماله».

ذلك رجل من أقوى الرجال، يبطن مثل ما يعلن، ولا يصنع في السر إلا ما يصنعه في الجهر، فيرى الله أمامه، ولا يرى البشر.

على هذه القواعد وأشباهها، قام ذلك البيت التجاري في بيت ابن حُريث بضع عشرات من السنين، تكفي للتمكين لتاجر صيّت، زاكي الأحدوثة، نقب في البلاد ذكره، يحف به الحسن من كل جانب.

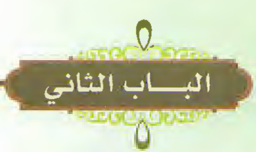
الناس لا يفهمون إلا بالعمل والقدوة، وقد كان أبو حنيفة خير قدوة في تعامله، كان التسامح كبرى قواعده، وكانت كلمة السر في دكان ذلك التاجر صدق المعاملة.. فكان بحق القدوة الحسنة للتجار..



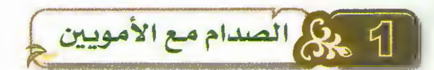


4 الفصل الرابع

السياسي المعارض



الفصل الرابع: السياسي المعارض



عاش أبو حنيفة رحمه الله اثنتين وخمسين سنة من حياته في العصر الأموي، وثماني عشرة سنة في العصر العباسي، فهو قد أدرك دولتين من دول الإسلام، أدرك الدولة الأموية في قوتها وعنفوانها، ثم في تحدرها وانهيارها.

وأدرك الدولة العباسية وهي دعاية سرية تجوس خلال الديار الفارسية، ثم أدركها وهي تدبير يُفرِّخ في خلايا مستورة عن العيون المترقبة، وأدركها بعد ذلك وهي حركة تغالب الأمويين وتنزع الملك من أيديهم، وتفرضه على الناس سلطاناً تحسبه دينياً نبوياً، لأن خلفاءها من أقرب أقارب الرسول ﷺ في أصولهم، ثم تحمل الناس عليه بالرغب والرهب.

أدرك أبو حنيفة ذلك كله، فكان له أثر في نفسه، وإن لم يكن خرج مع الخارجين، أو ثار مع الثائرين، وإن جُلَّ ما تشير إليه أخباره في هذا المقام يبين أنه كان قلبه مع العلويين في خروجهم أولاً على الأمويين، ثم في خروجهم ثانياً مع العباسيين.

تأييده لآل البيت

كان -رحمه الله- لنزعته العلوية من غير تشيع، لا يرى لبني أمية أي حق في إمرة المؤمنين، ولكنه ما كان ليثور عليهم، ولعله كان يهم أن يفعل.

يُروى أنه لما خرج زيد بن علي (زين العابدين)، على هشام بن عبد الملك سنة 121 هـ، قال أبو حنيفة -رحمه الله- : "ضاهى خروجه خروج رسول الله ﷺ يوم بدر".

فقيل له: لِمَ تخلّفت عنه؟

قال: "حبسني عنه ودائع الناس، عرضتها على ابن أبي ليلى فلم يقبل مني، فخفتُ أن أموتَ مجهلاً".

ويروى أنه قال في الاعتذار عن عدم الخروج مع زيد: "لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا جده، لجاهدتُ معه، لأنه إمام بحق، لكني أعينه بمالي". فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال للرسول الذي أرسله: "ابسط عذري له". (أي اشرح عذري له بالتفصيل).

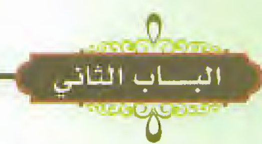
فمن هنا نرى بعض المبادئ السياسية لأبي حنيفة -رحمه الله-، فهو يرى عدم الإقرار بحكم بني أمية، ويرى أن الحكم في آل علي أولى، وأن الثورة على الحاكم الظالم جائزة، ووجوب مساندة من يثور عليهم إذا كان من أهل العلم والتقوى، وأن صاحب العذر (مثل المضطر لحفظ أمانات الناس) له العذر، وأن من لم يستطع الخروج بنفسه فيساند بالمال أو بغيره..



وتتوالى الجراحات

وهكذا نرى أن أبا حنيفة كان يرى الثورة على الأمويين أمراً جائزاً شرعاً، إذا كانت من إمام عادل مثل زيد بن علي، وأنه كان يود لو حمل السلاح مع المجاهدين، ويدل أيضاً على أنه لم يكن مؤمناً بحسن النتائج، بل إنها عنده عمل حق، ولكن لا ينتج نتائجه، لعدم وجود من يؤيده، وعدم القلوب التي تحوطه بإيمانها، ومع ذلك لا يريد أن يكون من المثبطين المعوقين، فأرسل المعاونة بماله، لتكون دليل تأييده، وفي المال قوة.

انتهت ثورة زيد بن علي بقتله سنة 122هـ، ثم قام من بعده في خراسان ابنه يحيى سنة 125هـ، فقتل كما قتل أبوه، ثم قام عبد الله بن يحيى يطالب بحق آبائه، فنازل في اليمن من أرسله مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولكنه قُتل سنة 130هـ، كما قُتل أبواه من قبل.





آلام أبي حنيفة

إن هذه الحوادث كان لها أثر في نفس التقي الإمام أبي حنيفة، حيث كان لزيد بن علي منزلة في نفسه، وكان يقدّره في علمه وخلقه ودينه، وعدَّه الإمام بحق، وأمدّه بالمال، لئلا يكون من المخلفين، ورأى أن خروجه كان يضاهي خروج رسول الله ﷺ يوم بدر، رآه يُقتل بسيف الأمويين، وتصلب جثته، ورأى الجراحات تسري في أولاده، فيُقتل ابنه ثم حفيده، فلا بدّ أن يكون لسانه قد جرى بذكر هذه المظالم، واندفع في بيانها، وألسنةُ العلماء وهم غضاب تعمل ما لا تعمل السيوف العضاب، فتكون أحدّ، وضرباتها أشد.

ابن هبيرة عامل الأمويين في العراق

تترصده الأعين

أخذت أعين الأمويين تترصد أبا حنيفة وتتبعه، وخصوصاً أنهم رأوا الأرض تميد من تحتهم بالدعاية العباسية، ثم بترتيب الخروج المحكم، ولما رأى عامل الأمويين ابن هبيرة أن الفتن ابتدأت رؤوسها تظهر، خشي جانب الفقهاء والمحدّثين، وخصوصاً أن أكثرهم كان ضالعاً مع زيد بن علي لمكانه في العلم والفقه، فجمع فقهاء العراق ببابه، وفيهم ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وداود ابن أبي هند، فولى كل واحد منهم عملاً لبني أمية، ليختبر ولاءهم للحكم الأموي، وأرسل إلى أبي حنيفة ليعطيه عملاً، فأبى، واشتد في الإباء، وأصر ابن هبيرة حرصاً منه على اختبار درجة ولاء أبي حنيفة للأمويين..

ضربٌ وإباء

وطلب إليه أن يكون في يده الخاتم (أي الختم على قرارات والي العراق)، يمضي الأمور به، ولا ينفذ كتاب إلا من يده، ولا يخرج شيء من المال إلا بإذنه.. فامتنع الفقيه العظيم الأبيّ، فحلف ابن هُبيرة إن لم يقبل ليضربنه، فأخذ الفقهاء يستلينون أبا حنيفة ليقبل، وقالوا له: «إنا ننشدك الله أن لا تهلك نفسك، فإنا إخوانك، وكلنا كاره لهذا الأمر، ولم نجد بدّاً من ذلك».

فقال الفقيه القوي، المؤمن التقي: «لو أرادني أن أعد له أبواب مسجد واسط، لم أدخل في ذلك، فكيف وهو يريد مني أن يكتب دم رجل يضرب عنقه، وأختم أنا على ذلك الكتاب؟! فوالله لا أدخل في ذلك أبداً».

فقال ابن أبي ليلى: دعوا صاحبكم، فهو المصيب، وغيره المخطئ.



إصرار عجيب

أصرَّ أبو حنيفة، وتخاذلت كل القوى أمام إصراره، فحبسه صاحب الشرطة.. وضربه أياماً متتالية، حتى يئس الضارب، وخشي أن يموت الفقيه، فتكون السبّة على الحكم الأموي إلى الأبد، فجاء الضارب إلى ابن هبيرة، وقال له: إن الرجل ميت.

فقال ابن هبيرة: قولوا له يخرجنا من يميننا (أي يعلن فتوى تحلل ابن هبيرة من قسمه، حيث حلف بأن يستمر في ضرب أبي حنيفة إلى أن يقبل تولي المنصب).

فطلبوا ذلك إلى أبي حنيفة فرفض، وأصر على موقفه إصراراً شديداً، وقال: لو سألني أن أعدّ له أبواب المسجد ما فعلت.

فطلب ابن هبيرة أن يتوسطوا له، فقال: ألا ناصح لهذا المحبوس أن يستأجلني (أي يطلب مهلة للتفكير) فأؤجله؟!

فأُخبر أبو حنيفة بذلك، فقال: دعوني أستشر إخواني، وأنظر في ذلك. (أي أعطوني مهلة لأستشير أصحابي)، فهو بذلك استجاب لطلب ابن هبيرة..

فأمر ابن هُبيرة بتخلية سبيله، فركب أبو حنيفة دوابه، وهرب إلى مكة، وكان ذلك في سنة 130هـ.



حازم ورحيم

لما أصاب أبا حنيفة ما أصابه على يد ابن هُبيرة، لم تَهُن نفسه، ولم يضعف أمام جلاده، ولم تدمع عيناه، حتى علم غمَّ أمه لما ناله، فانهمرت عيناه مدراراً، تألماً لألمها، وإشفاقاً عليها، وهذا من بره بوالدته رحمه الله..

وذلك هو القوي حقاً، لا يهمه ما يناله فيما يعتقد، فإذا تعدى الأمر إلى عزيز على نفسه، كريم عندها، اشتدت آلامه، وبلغ الهم غايته، فليس القوي من يكون قاسياً جافياً، بل هو إرادة حازمة، وعاطفة سامية، وقلب رحيم، ونفس عطوف، وجَنان رابط، وعقل ثابت متزن لا يطيش، وكل ذلك كان أبو حنيفة.



هارب في مكة

فرّ أبو حنيفة إلى مكة بعد أن مكّن له الجلاد أسباب الفرار، واتخذ مكة مستقراً ومقاماً، من سنة 130هـ إلى أن استقام الأمر للعباسيين، ولقد وجد في الحرم أمناً، والفتن تتخطف الناس في كل مكان، فعكف على الحديث والفقه يطلبه بمكة التي ورثت علم ابن عباس، ولقد التقى أبو حنيفة بتلاميذه فيها، وذاكرهم علمه، وذاكروه ما عندهم.

الإمام يرحل إلى مكة

نهاية بني أمية

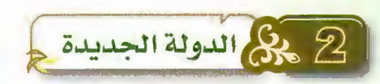
سقطت دولة بني أمية في ظروف سياسية متشابكة، وقتل آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد.

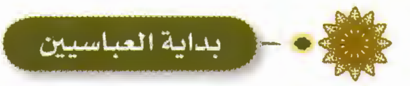
وتاريخ بني أمية فيه صفحات مشرقة لامعة، مزدهرة، فيها من الخير الكثير، بالإضافة إلى أنه كانت فيه صفحات من الظلم والقصور والنقص، وإن كان الخير بشكل عام أكثر في تلك الأجيال الأولى، ويزداد الشر مع الأيام، ويقل الخير، وحزن بعض الناس على دولة بني أمية، وخاصة الذين كانوا يرون أن في ملكهم عزاً للعرب، لأنهم كانوا يقرِّبون العرب، لكن بالغوا في هذه المسألة إلى درجة أنهم أهملوا وأهدروا كرامة غير العرب، أو تجاهلوهم، مما جعل بعض الناس، وخاصة الفرس يكرهون بني أمية، ولذلك عندما قامت ثورة العباسيين عليهم كانوا من أسرع الناس تأييداً لهذه الدولة.

وانتهت بنهاية الأمويين مرحلة هامة من مراحل حياة الإمام الأعظم أبي حنيفة..

كان أبو حنيفة لا يرى حقاً لبني أمية في إمرة المؤمنين، فكان يؤيد الخارجين عليهم من آل البيت لأنهم أحق بها، وحاول ابن هبيرة أن يُغري أبا حنيفة بالمناصب، لكنه امتنع وأبى.. ثم فرَّ أبو حنيفة هارباً إلى مكة إلى أن استقام الأمر للعباسيين..

سقوط الدولة الأموية





قامت دولة العباسيين الجديدة، وبدأ الناس ينضمون تحت لوائها، لأنهم كانوا يتوقعون أن يكون العدل على أيديهم، والحب الأكبر للمسلمين، وبالذات لأهل بيت النبي ﷺ، ولذلك انضم تحت لوائها أبو حنيفة النعمان، لشدة حبه لأهل البيت.

فلما استتب لهم النظام، عاد أبو حنيفة إلى الكوفة، ودخل أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس الكوفة، وجمع العلماء، فالخليفة أو الحاكم في ذلك الزمان، وفي كل زمان، يحرص على موقف العلماء، لأن الناس تَبَع للعلماء، يستفتونهم، ويحرصون على مواقفهم، فحرص أبو العباس أن يستجلب له تأييد هؤلاء العلماء.

السفاح والعلماء



بعد أن جمع أبو العباس العلماء، بيَّن لهم سيرته في الحكم التي سيسير عليها، وتوجه بالكلام إلى علماء الكوفة، فقال: «إن هذا الأمر (الحكم) قد أفضى إلى أهل بيت نبيكم، وجاءكم الله بالفضل، وأقام الحق، وأنتم معاشر العلماء أحق من أعان عليه، ولكم الحباء والكرامة، والضيافة من مال الله ما أحببتم، فبايعوا بيعة تكون عند إمامكم حجة لكم وعليكم، وأماناً في معادكم، لا تلقوا الله بلا إمام، فتكونوا ممن لا حجة له».



بيعة العلماء

هنا بدأ العلماء ينظر بعضهم إلى بعض، وتوجه النظر إلى أبي حنيفة، صاحب العقل والعلم والدين والذكاء، وصاحب التجربة السياسية الأليمة مع بني أمية، فقال: «إن أحببتم أن أتكلم عني وعنكم؟

قالوا: قد أحببنا ذلك.

قال: «الحمد لله الذي بلغ الحق من قرابة نبيه ﷺ، وأمات عنا جور الظلمة، وبسط ألسنتنا بالحق، قد بايعناك على أمر الله، والوفاء لك بعهدك إلى قيام الساعة، فلا أخلى الله هذا الأمر من قرابة نبيهﷺ».

فأجابه أبو العباس بجواب جميل، وقال: مثلك من خطب عن العلماء، لقد أحسنوا اختيارك، وأحسنت في البلاغ.

فلما خرجوا قال العلماء لأبي حنيفة: ما أردت بقولك: إلى قيام الساعة؟ (أي لماذا بايعته إلى قيام الساعة؟).

قال أبو حنيفة: فإن احتلتم عليّ، احتلت عليكم، وأسلمتكم للبلاء. (أي إذا خذلتموني في كلامي نيابة عنكم، فقد ألزمتكم أمراً يجب عليكم الوفاء به ما دام الخليفة ملتزماً بأمر الله إلى قيام الساعة).

فسكت القوم، وعلموا أن الحق ما فعل.



الدولة العباسية



من مكة إلى الكوفة

بايع أبو حنيفة بيعة رضا، ما أُجبر عليها، وعنده أمل كبير أن يكون هذا الحكم الجديد، حكم عدل وإنصاف، وعاد الإمام إلى مكة، وظل يزور الكوفة بين حين وآخر، ولما شعر أن الدولة الجديدة استقرت فعلاً، واستقر لها الحكم، رجع، وانتقل انتقالاً كاملاً إلى الكوفة، وانتقلت معه حلقته أو جامعته العلمية، تنشر العلم من جديد، وبكل ارتياح، وبلا اضطهاد.



أبو حنيفة وقيم الإسلام

استمر أبو حنيفة بتأييده لهذا الحكم إلى أن بدأ يشعر أن هذا الحكم بدأ ينحرف، وأبو حنيفة لا تحركه العواطف ولا تحركه العصبيات، ليس لأن هؤلاء أقرب إلى بيت النبي ﷺ إذن يؤيدهم! وليس لأنهم أقرب إلى فارس وهو من أهل فارس فيسكت عن أخطائهم.

القضية أكبر من ذلك، أكبر من نفسه، وأكبر من أهله، وهذا شأن المؤمن الواعي، القضية قضية حق وعدل، ومهما كان من إكرام الخليفة له، وإرسال الأموال له فهو غني، غني عن هذا الإكرام بكرامته بين الناس، العلم رفعه.

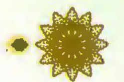
غني عن المال لأن الله رزقه من التجارة الشيء الواسع، وكان غنياً بتقواه لله عز وجل عن أن يتزلف لأحد، القضية عنده إقامة شرع الله عز وجل، وإقامة العدل، ورفع الظلم، وإشاعة الأمن بين الناس، والحفاظ على أموال الدولة، التي هي أموال المسلمين، والكف عن العدوان، هذه هي أخلاق الإسلام التي التزم بها أبو حنيفة، وكان يريد من الخليفة أن يلتزم بها ليطيعه، أما إذا فرط الخليفة في هذه الأمور، فيجب تعديله بالنصح والإرشاد، وإلا فقد وجب الضغط عليه ليلتزم بشرع الله رب العالمين، وإقامة العدل بين الناس.

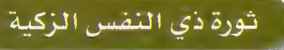
القضية ليست قضية عصبيات وعواطف، القضية أكبر من ذلك؛ قضية حق وعدل، قضية إقامة شرع الله عز وجل، ورفع الظلم، وإشاعة الأمن بين الناس، والحفاظ على أموال المسلمين.. هذه هي قيم الإسلام، وأخلاق الإسلام..

صراع العباسيين والعلويين

رأى أبو حنيفة الظلم يزداد بشكل كبير على يد العباسيين، ثم رأى أمراً آخر أزعجه إزعاجاً شديداً، وهو الصراع بين العباسيين وبين أهل بيت النبي ﷺ، وأدت هذه المواقف إلى تغير جذري في موقف أبي حنيفة من الدولة العباسية الناشئة، ولم يُعرف عن أبي حنيفة أنه تكلم في حكم العباسيين، حتى نقم عليهم أبناء علي رضي الله عنه، واشتدت الخصومة بينهم، ويظهر أنه من ذلك الموقف كان لا يرى الولاء لبني العباس صواباً، ولكنه كشأنه في ماضيه لا يزيد عن النقد والكلام في غضون درسه أحياناً، لا يدعو إلى فتنة، ولا يمتشق حساماً، ولقد كان أبو جعفر يعرف ذلك أو يظنه، فكان يغضي أحياناً، ويختبر أحياناً، حتى كانت المأساة.







ثورة ذي النفس الزكية

قامت ثورات أهل البيت ضد العباسيين، ومن أبرزها ثورة محمد ذي النفس الزكية، وأخيه إبراهيم، ابني عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد خرج إبراهيم بالعراق، وخرج أخوه ذو النفس الزكية بالمدينة، وكان ذلك عام 145هـ.

وكان يوالي النفس الزكية أهل خراسان، وغيرهم، ولكنه كان بعيداً عنهم غير متحيزين إليه، فلم يكن له منهم نصرة، وإن كان له منهم الولاء والمحبة والرضا.

ويروى أن مالكاً أفتى بجواز الخروج مع محمد، فقد جاء في تاريخ ابن جرير وابن كثير أنه أفتى الناس بمبايعة محمد بن عبد الله.

فقيل له: فإن في أعناقنا بيعة للمنصور.

فقال الإمام مالك: إنما كنتم مكرهين، وليس لمكرَه بيعة، فبايعه الناس عند ذلك على قول مالك، ولزم مالك بيته.

وانتهى أمر محمد هذا بقتله. رحمه الله تعالى.



أبو حنيفة والثورة

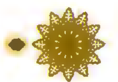
وقد كان لأبي حنيفة موقف أشد من موقف مالك، فقد كان يجهر بمناصرته في درسه، بل إن الأمر وصل به إلى أن ثبَّط بعض قواد المنصور عن الخروج لحربه.

يروى أن الحسن بن قحطبة، أحد قوّاد المنصور، دخل على أبي حنيفة، وقال له: عملي لا يخفى عليك، فهل لي من توبة؟

فقال أبو حنيفة: إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت، ولو خُيرتَ بين قتل مسلم وقتلك، لاخترتَ قتلكَ على قتله، وتجعل مع الله عهداً على أن لا تعود، فإن وفيتَ فهي توبتك.

قال الحسن: إني فعلتُ ذلك، وعاهدتُ الله تعالى أن لا أعود إلى قتل مسلم.

وفعلاً التزم هذا القائد المؤمن الحسن بن قحطبة بذلك..



جاء أوان توبتك

ثم ثار إبراهيم بن عبد الله بن حسن أخو محمد ذي النفس الزكية، فأمر المنصور قائده الحسن بن قحطبة أن يذهب إليه ويقاتله.

فجاء هذا القائد إلى الإمام، فقصّ عليه القصة.

فقال: جاء أوان توبتك، إن وفيتَ بما عاهدتَ فأنت تائب، وإلا أُخِذتَ بالأول والآخر.

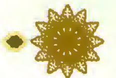
فجدّ القائد في توبته، وتأهب وسلّم نفسه إلى القتل، ودخل على المنصور، وقال: لا أسيرُ إلى هذا الوجه (أي هذا الاتجاه)، فإن كان لله طاعة في سلطانك فيما فعلت، فلي منه أوفر الحظ، وإن كان معصية فحسبي.

فغضب المنصور، وقال حميد بن قحطبة أخوه: إنا نكره عقله منذ سنة، وكأن خلط عليه (أي أن أخي دخل عليه شيء من الجنون، ويظهر عليه من حين لآخر، وقد مضى عليه في هذا الخلط والجنون المؤقت سنة). ، وأنا أسير. (أي أنا أسير بدلاً عنه).

وعرف المنصور بذكائه أن الأمر لا علاقة له بالجنون، ولكنه تأثير من أحد العلماء الذين أفتوه بعدم جواز هذا القتال..

فسأل المنصور بعض ثقاته: مَن يدخل عليه من الفقهاء؟

فقالوا: إنه يتردد على أبي حنيفة.



المقصود رقبته

لم يكن موقف أبي حنيفة ليخفى عن أعين المنصور المترقبة المترصدة، وخصوصاً أنه في الكوفة، ولذلك أراد المنصور أن يختبر طاعته وولاءه له، وكانت الفرصة قد سنحت، فقد كان المنصور يبني بغداد، وأراد أن يجعله قاضياً عليها.

فامتنع أبو حنيفة، فأبى وأصرّ المنصور على أن يتولى له عملاً أياً كان.

وكأن أبا حنيفة أدرك أن المقصود رقبته، فأراد أن يفوّت رغبته، فيروى أنه قَبِل أن يعُدَّ اللَّبِن في بنائها (أي الأحجار التي ستبنى بها بغداد).

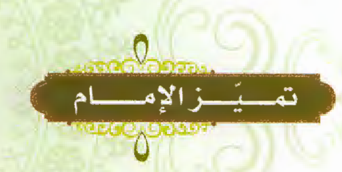
فقد جاء في رواية ساقها ابن جرير الطبري خلاصتها: أن المنصور أراد أبا حنيفة على القضاء بها، فامتنع، فحلف المنصور أن يتولى معه، وحلف أبو حنيفة ألا يتولى، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللَّبِن، وأخذ الرجال بالعمل، فتولى ذلك، حتى استقام حائط المدينة مما يلي الخندق.

وقال ابن جرير: وذكر عن الهيتم بن عدي أن المنصور عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم، فامتنع، فحلف ألا يقلع عنه حتى يعمل له، فأُخبر بذلك أبو حنيفة، فدعا بقصبة، فعدَّ اللَّبِن، ليبر بذلك يمين أبي جعفر.

فوّت أبو حنيفة على هذه الرواية مقصد أبي جعفر، وكان هذا في وقت المنازعة بين أبي جعفر والعلويين، لقد استطاع أبو حنيفة بهذا اللين، الذي لم يمس قلبه ودينه، أن يغمض عنه العين المترقبة وقتاً، وقد أغمض عنه عين المنصور، وإن لم يكن الإغماض كاملاً.

ارتاح أبو حنيفة للدولة الجديدة، وبايع أول خلفائها، واستمر بتأييد الحكم إلى أن بدأ ينحرف، ورأى الظلم يزداد بشكل كبير، ثم حدث صراع بين العباسيين وأهل البيت، عندها تغير موقف أبي حنيفة تغيراً جذرياً، وجهد بمناصرة الخارجين من أهل البيت..



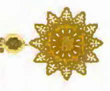


3 الصدام مع العباسيين



كان أبو حنيفة بعد مناوأة العلويين للمنصور، وإيذائه لهم، وقتله لرؤوسهم، لا يرتاح إلى حكومته، وقد استطاع أن يدرأ عنه أذاه، وانصرف إلى العلم كشأنه، ولكن كان من وقت لآخر يقول ما يظهر رفضه، أو تكون منه أمور تكشف عن رأيه فيه وفي حكمه، وتثير شكوك المنصور واتهامه، ومن ذلك:





ثورة الموصل

انتفض أهل الموصل على المنصور، وكان المنصور قد اشترط عليهم من قبل أنهم إن انتقضوا، تحلُّ دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء، وفيهم أبو حنيفة، فقال: "أليس صحَّ عن النبي ﷺ قال: المؤمنون عند شروطهم، وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا عليّ، وقد خرجوا على عاملي، وقد حلَّتْ لي دماؤهم؟".

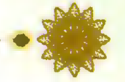
فقال رجل من الفقهاء: "يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم، فإن عفوتَ فأنت أهل العفو، وإن عاقبتَ فبما يستحقون".

وأبو حنيفة ساكت، فالتفت إليه المنصور، وقال له: "وأنت ما تقول يا شيخ.. ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟".

فقال الإمام أبو حنيفة قولة الحق: "إنهم شرطوا لك ما لا يملكون، وشرطتَ عليهم ما ليس لكَ، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معانٍ ثلاثة، فإن أخذتهم أخذتَ بما لا يحل لك، وشرط الله أحق أن توفي به".

فأمرهم المنصور أن يتفرقوا، ثم دعاه وقال: "يا شيخ، القول ما قلت، انصرف إلى بلادك، ولا تفتِ الناس بما هو شين على إمامك، فتبسط أيدي الخوارج". (أي تشجع الخوارج على الثورة).

وتأمل هنا فقه الإمام وحكمته وحرصه على الحق وحقنه لدماء المسلمين وشجاعته أمام المنصور، تأمل ذلك وترحم عليه.



رفض الهدية



كانت لأبي حنيفة مواقف صارمة تجاه محاولات الحكام، وبالذات أبي جعفر المنصور، فكان يرفض حتى عطاياهم، لأنه كان يرى أن هذه الدولة ظالمة، وأن المال الذي يصرفونه، يصرفونه في غير وجه حق، وهو حريص على أن يبقى ماله حلالاً، وحريص على أن يبقى بعزته، فكان يرفض هذه الأموال باستمرار، والحكام كانوا يرسلون هذه الهدايا ليس فقط إكراماً، وإنما اختباراً للولاء.

ومن الأمور التي كشفت رأي أبي حنيفة في حكومة أبي جعفر، أنه أرسل إليه بهدية عشرة آلاف درهم وجارية، يختبره في قبولها، فاعتذر منها.

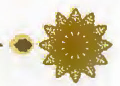


وكان عبد الملك بن حميد وزير أبي جعفر، كريماً وكان وجيد الرأي، فقال لأبي حنيفة عندما رفضها: «أنشدك الله، إن أمير المؤمنين يطلب عليك علة (أي يبحث عن عذر ليعاقبك)، فإن لم تقبل صدق على نفسه ما ظن بك».

فأبى أبو حنيفة، فقال الوزير: أما المال فقد أثبته في الجوائز، وأما الجارية فاقبلها أنت مني، أو قل عذرك (أي أعطني عذراً في رد الجارية حتى أخبر أمير المؤمنين به لكيلا يزداد سوء ظنه بك)، حتى أعذرك عند أمير المؤمنين.

فقال أبو حنيفة: «إني ضعفت عن النساء وكبرت، فلا أستحلّ أن أقبل جارية لا أَصِلُ إليها، ولا أجترئ أن أبيع جارية خرجت من ملك أمير المؤمنين».

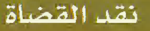
فأعطاه بذكائه عذراً يكفيه أمام أمير المؤمنين..



بطانة السوء

كانت هذه الآراء والمواقف الجريئة، مع ميوله العلوية من غير تشيع، سبباً في أن لا ينظر إليه المنصور نظرة رضا، بل كان يترصده، ويبث العيون حوله، وكان في حاشيته من يحرض عليه، ويجعل الخليفة في شك من أقواله وفتاويه.

ولكن أبو حنيفة استمر في أقواله وفتاويه التي يعتقد أنها الحق، لا يهمه أرضوا أم سخطوا، ما دام قد أرضى الله تعالى، وأرضى الحق وضميره، وإن كانت حاشية السوء تثير أحقاد المنصور عليه، ولا تني في تحريضه عليه بالأذى.



نقد القضاة

كان أبو حنيفة ينقد أحكام قضاة الكوفة إذا خالفت رأيه، ويصرِّح بخطئها في أوقات صدورها، ولمن قضى عليهم فيها، أو قضى لهم بها، ولقد كان ذلك يثير حفيظة القاضي عليه، ويجعله يظن به السوء، وقد يدفعه إلى القول فيه عند الأمراء، بل يروى أن ابن أبي ليلى قاضي الكوفة قد شكاه فعلاً، وجاء الأمر بمنعه من الفتوى حيناً، ثم أُبيحت له الفتوى بعد الحظر.

ومن القصص الشهيرة في انتقاده الصريح للقضاة إذا أخطؤوا ما روي أن ابن أبي ليلى، قد نظر في أمر امرأة مجنونة، قالت لرجل: يا ابن الزانيَين، فأقام عليها الحد في المسجد، قائمة، وحدَّها حدّين، حداً لقذف أبيه، وحداً لقذف أمه.

فبلغ ذلك أبا حنيفة، فقال: أخطأ ابن أبي ليلى في حكمه على المرأة في ستة مواضع:

1 - أقام عليها الحد في المسجد، ولا تُقام الحدود في المساجد.

2 - وضربها قائمة، والنساء يُضربْنَ قعوداً.

3 - وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً، ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد.

4 - وجمع بين حدين، ولا يُجمع بين حدين، حتى يخفَّ أحدهما.

5 - والمجنونة ليس عليها حد.

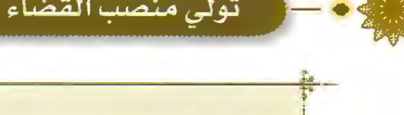
6 - وحدَّ لأبويه وهما غائبان، ولم يحضرا فيدعيا.

فبلغ ذلك ابن أبي ليلى، فدخل على الأمير وشكاه إليه أنه ينتقد أحكام القضاة علناً مما يضعف هيبة القضاء، فاستجاب الأمير وحَجَر على أبي حنيفة، وقال: لا يفتي.

فلم يفتِ أياماً، حتى قدم رسول من قِبَل ولي العهد، فأمر أن يعرض مسائل على أبي حنيفة حتى يفتي فيها.

فأبى أبو حنيفة وقال: أنا محجور عليّ، فذهب الرسول إلى الأمير، فقال الأمير: قد أذنتُ له، فقعد فأفتى.

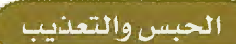
القاضي ابن أبي ليلى يشتكيه للخليفة



تولي منصب القضاء

ضاق صدر المنصور حرجاً من أبي حنيفة، بل إنه برم به وبمواقفه معه، وقتَ أن علم بميله للعلويين، وأدته اختباراته المختلفة إلى تأكد ذلك، ثم كانت جملة من فتاويه التي استفتاه فيها تؤكد ما تأكد لديه، ولكنه لم يجد حيلة للقضاء عليه، لأنه لم يتجاوز في عمله حلقة درسه، ولم يكن متهَماً في دينه، فيؤخذ بزيغه، ولا متَهماً في عمل من أعماله، فيؤخذ بظاهر من عمله، بل كان العالِم، الثبْت، الثقة، الورع، التقي، السخي، الذي تسايرت الركبان بذكر فضله وعلمه، وتقاه وهديه، فليست عنده حيلة ما دام لم يمتشق حساماً، ولم يخرج مع خارجة، ولكنه متململ منه، ومتبرم به.

ولقد وجد المنصور الفرصة سانحة في عرضه القضاء على أبي حنيفة، فعرض عليه أن يكون قاضي بغداد، وبذلك يكون القاضي الأول في الدولة، فإن قَبِل كان ذلك دليلاً على إخلاصه، وإن رفض كان ذلك ذريعة للنيل منه، أمام العامة من غير حريجة دينية، لأنه إن كان فاضلاً في نظرهم، فامتناعه امتناع عن واجب في عنقه، فليُحمل على ذلك الواجب ببعض الأذى ينزل به، وما ينزل به من أذى، إنما هو لإكراهه على ما هو في مصلحة الناس أجمعين، لا للكيد له، ولا لظلمه، وإنما ليؤدي ضريبة العلم والفضل، بالقيام بحق العامة في علمه وفضله، وهو القضاء بينهم.

الحبس والتعذيب

فدعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ليتولى القضاء، فامتنع، فطلب إليه أن يرجع إليه القضاة فيما يشكل عليهم ليفتيهم، فامتنع، فأنزل به العذاب بالضرب والحبس (أو الحبس وحده، على اختلاف الروايات).

جاء في المناقب للموفق المكي: «أن أبا حنيفة، لما أشخص إلى بغداد، خرج ملتمع الوجه، وقال: إن هذا (أي الخليفة) دعاني للقضاء، فأعلمته أني لا أصلح، وإني لأعلم أن البينة على المدعي، واليمين على من أنكر، ولكنه لا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك (أيها الخليفة)، وعلى ولدك وقوادك، وليست تلك النفس لي، إنك يا أمير تدعوني فما ترجع نفسي حتى أفارقك. (أي لك هيبة عندي كبيرة تكاد روحي تخرج بسببها، ولذلك لا أصلح للقضاء لأني لا أستطيع أن أحكم عليك وعلى أقاربك).

قال المنصور: فلِمَ لا تقبل صلتي (هديتي)؟!

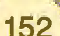
قال أبو حنيفة: ما وصلني (أهداني) أمير المؤمنين من ماله بشيء فرددته، ولو وصلني بذلك لقبلته، إنما وصلني (أهداني) أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين، ولا حق لي في بيت مالهم، إني لستُ ممن يقاتل من ورائهم، فآخذ ما يأخذه المقاتل، ولستُ من ولدانهم، فآخذ ما يأخذ الولدان، ولست من فقرائهم، فآخذ ما يأخذ الفقراء.

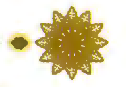
قال المنصور: فأقم، تأتك القضاة فيما لعلهم أن يحتاجوا إليك فيه». (أي تكون مستشاراً للقضاة).

فرفض أبو حنيفة..

الثبات على الحق

وجاء في المناقب لابن البزازي: «أن أبا جعفر حبس أبا حنيفة على أن يتولى القضاء، ويصير قاضي القضاة، فأبى، حتى ضُرب مائة وعشرة أسواط، وأخرج من السجن، على أن يلزم الباب، وطلب منه أن يفتي فيما يُرفع إليه من الأحكام (استشارات القضاة)، وكان يرسل إليه المسائل الاستشارية، ولكنه رفض أن يجيب عليها كذلك لما يراه من أن كل أمر الحكم العباسي قائم على الظلم، فأمر المنصور أن يعاد إلى السجن، فأعيد، وغلظ عليه، وضيق تضييقاً شديداً».





أقدر مني على كفارة أيمانه



وفي رواية أخرى في تاريخ بغداد: «طلب أبو جعفر أن يؤتى إليه بأبي حنيفة، فأراده على أن يوليه القضاء،

فأبى أبو حنيفة.

فحلف المنصور ليفعلن.

فحلف أبو حنيفة ألا يفعل.

فحلف المنصور ليفعلن.

فحلف أبو حنيفة ألا يفعل.

فقال الربيع ــ الحاجب ــ: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟

فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني. ورفض أن يلي، فأمر به إلى الحبس».

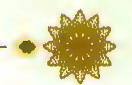
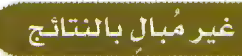


اخترتُ أن أغرق

وفي رواية أخرى عن الربيع بن يونس: «رأيتُ أمير المؤمنين ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وأبو حنيفة يقول: اتقِ الله، ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا بمأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك (أي لو صرت قاضياً واضطررت أن أصدر حكماً ضدك يا أمير المؤمنين)، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات، أو أن ألي الحكم، لاخترت أن أغرق، لكَ حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك، فلا أصلح لذلك.

فقال له المنصور: كذبت، أنت تصلح.

فقال أبو حنيفة: قد حكمت على نفسك، كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك، وهو كذّاب؟!».

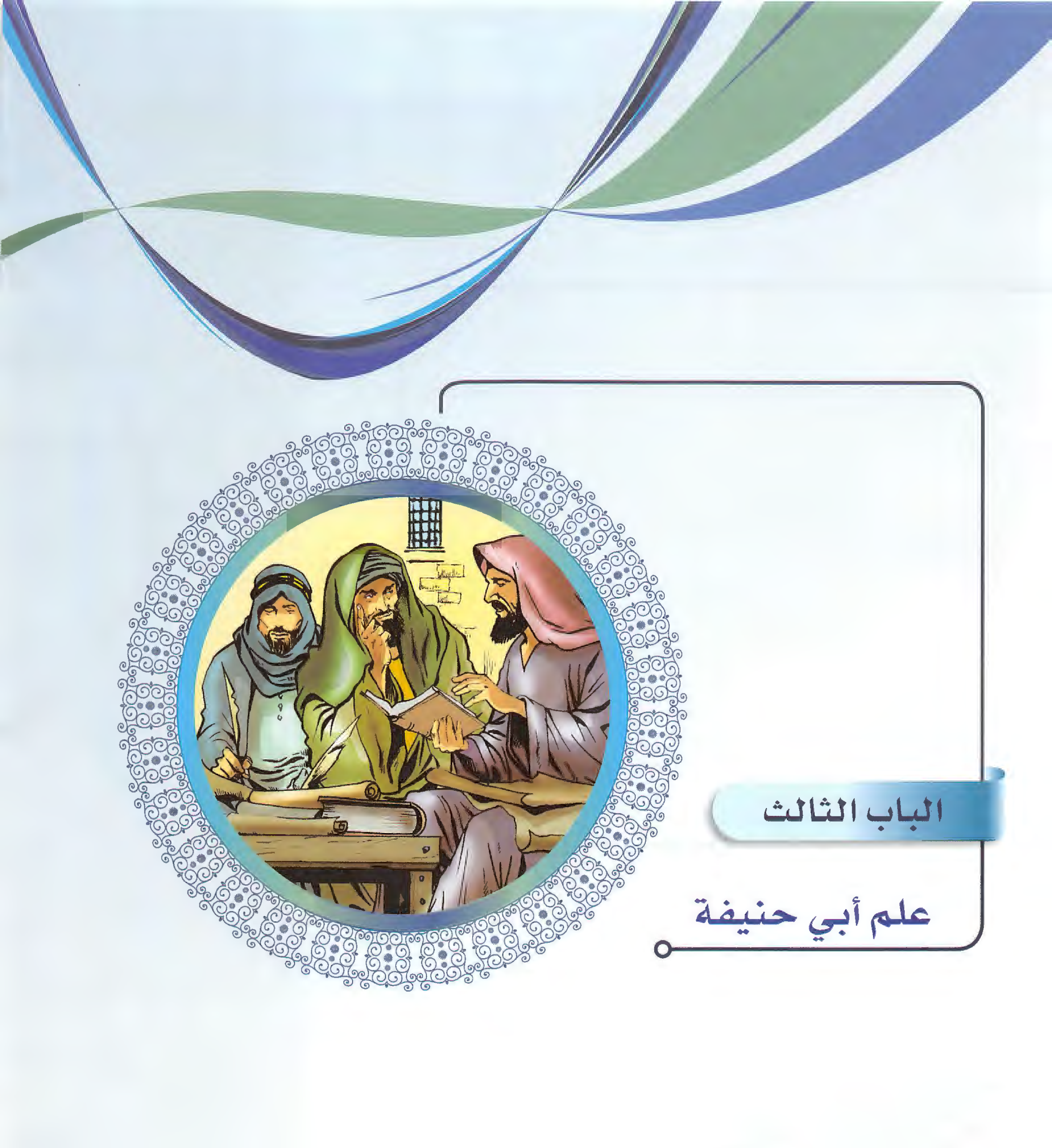
غير مُبالٍ بالنتائج

إن أبا حنيفة لم يكن رفيقاً في أجوبته، فلم يتكلم بمعسول القول، ولم يتخذ الحيلة مخرجاً، فكان يجأر بالحق غير مبالٍ بالنتائج، بل مترقباً لها محتملاً صبوراً، فهو يرفض القضاء، ويرفض الإفتاء، من غير تحايل، ويصرِّح بأنه رفض العطاء، لأنه من بيت مال المسلمين، وما كان ذلك يحلّ له، ثم يُقسم الخليفة، فيُقسم هو أيضاً ولا يبالي، ويغمز الربيع في القول، فلا يبالي أيضاً، لأنه احتسب الأمر، وأشرف فيه على النهاية، واللهُ يتولى الجزاء.

كل هذا أدى إلى صدامه مع العباسيين، فساءت علاقته بهم إلى نهاية حياته..

كان أبو حنيفة يرفض عطايا الحكام باستمرار، وكانت حاشية السوء تثير أحقاد المنصور على أبي حنيفة، وتحرضه عليه بالأذى، فعرض عليه القضاء فأبى، فأنزل به العذاب بالضرب والحبس، وأبو حنيفة يجأر بالحق غير مبالٍ بالنتائج..


يرفض عطايا الحكام


الباب الثالث
علم أبي حنيفة

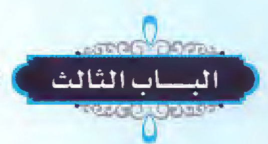


3



الفصل الأول 1

فقه أبي حنيفة



الفصل الأول: فقه أبي حنيفة

1 مصادر أبي حنيفة

الإمام أبو حنيفة

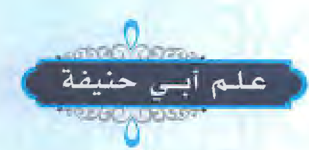
للإمام أبي حنيفة –رحمه الله– منهج واضح في استخراج الأحكام الشرعية من مصادرها، فقد جاء في كتاب تاريخ بغداد نقلاً عن أبي حنيفة ما نصه: "آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد، فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ، أخذتُ بقول الصحابة، آخذ بقول من شئت منهم، وأدع من شئت منهم، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم، والشعبي، وابن سيرين، والحسن، وعطاء، وسعيد بن المسيب –وعدد رجالاً– فقومٌ اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا".

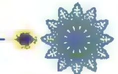
وجاء في مناقب أبي حنيفة للموفق المكي ما نصه:

"وكلام أبي حنيفة أخذ بالثقة، وفرار من القبح، والنظر في معاملات الناس، وما استقاموا عليه، وصلحت عليه أمورهم، يمضي الأمور على القياس، فإذا قبح القياس يمضيها على الاستحسان، ما دام يمضي له، فإذا لم يمضِ له رجع إلى ما يتعامل المسلمون به، وكان يوصل الحديث المعروف الذي قد أجمع عليه، ثم يقيس ما دام القياس سائغاً، ثم يرجع إلى الاستحسان، أيهما كان أوفق رجع إليه، قال سهل: هذا علم أبي حنيفة، علم العامة".

وجاء فيه أيضاً: "كان أبو حنيفة شديد الفحص عن الناسخ من الحديث، والمنسوخ، فيعمل بالحديث إذا ثبت عنده عن النبي ﷺ، عن أصحابه، وكان عارفاً بحديث أهل الكوفة، شديد الاتباع لما كان عليه ببلده".

هذه النصوص الثلاثة في مجموعها، تدل على مجموع المصادر عند أبي حنيفة.





خلاصة المصادر

وعلى ذلك تكون الأدلة الفقهية عند أبي حنيفة سبعة:

1 - الكتاب

2 - السنة.

3 - أقوال الصحابة.

4 - الإجماع.

5 - القياس.

6 - الاستحسان.

7 - العرف.

وإليك نظرة أبي حنيفة -رحمه الله- لكل منها:



1 - الكتاب

القرآن العظيم هو كتاب الله تعالى، المنزل على رسوله ﷺ بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام، المنقول إلينا تواتراً، والمجموع بين دفتي المصحف، الذي أعجز البشر عن الإتيان من مثله، وهو عمود الشريعة، وحبل الله المتين، ونور الشرع الساطع إلى يوم القيامة، وهو مصدر المصادر لهذه الشريعة، وينبوع ينابيعها، والمأخذ الذي اشتقت منه أصولها وفروعها، وأخذت منه الأدلة قوة استدلالها، فهو بهذا الاعتبار أصل الشريعة، وجامع أحكامها.

القطعي والظني

إذا ثبت الدليل بشكل لا شك فيه فيسمى قطعي الثبوت، مثل القرآن والحديث المتواتر، وما عداهما فيسمى ظني الثبوت، مثل الحديث غير المتواتر، حيث يحتمل أن يكون قد تطرق إليه الخطأ أو النسيان..

وإذا كان المعنى واضحاً لا شك فيه فيسمى قطعي الدلالة، وأما إذا كان ما يدل عليه النص يحتمل عدة وجوه فيسمى ظني الدلالة..

والقرآن الكريم عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، هو المصدر الأول والأعلى في مسائل الفقه، لأنه الكتاب القطعي الثبوت، لا يُشك في حرف منه، وأنه ليس يوازي كلام الله تعالى، ولا يصل رتبته في الثبوت إلا الحديث المتواتر(وهو قليل جداً).

الركن والواجب

لذلك لا يرى -رحمه الله تعالى- نسخ أحكام القرآن الكريم بخبر الآحاد من السنة، وإنما يعمل بهما ما أمكن، وإلا ترك السنة الظنية للكتاب القطعي.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قول الله تعالى:

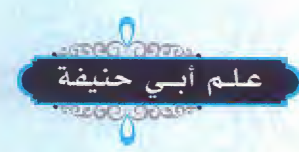
﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمل: من الآية 20).

وهذا يتعارض في الظاهر مع قوله ﷺ: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب". (متفق عليه).

فيحكم أبو حنيفة (بناءاً على محاولة الجمع بين القرآن والسنة ما أمكن) بأن: أصل قراءة القرآن الكريم في الصلاة ركن، أما تقسيم القرآن إلى الفاتحة، وبعض ما تيسر من القرآن، فذلك واجب، وبذلك عمل بالقرآن والسنة معاً، ولكنه يفرق بين الركن (وهو ما ثبت بالقرآن) وبين الواجب (وهو ما ثبت بالسنة).

وقد تأثر الفقه الحنفي بهذه القاعدة بشكل واضح، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها بناء على هذا الأصل عند أبي حنيفة، لم يجعل الطمأنينة في الركوع شرطاً لصحة الصلاة.

أما أبو يوسف والشافعي فيشترطانها.



وقال أبو حنيفة: إن الأصل هو قوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ (الحج: من الآية77)، والركوع: اسم للانحناء، والميلان عن الاستواء.

فالركوع فرض بنص الآية "اركعوا".

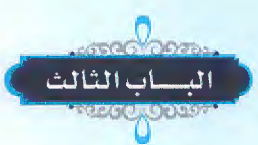
أما الطمأنينة فثابتة بخبر الآحاد، (وهو حديث المسيء صلاته، وهو حديث ثبوته ليس قطعياً كما هو حال الآية).

ولذلك يجعل الركوع ركناً في الصلاة، بينما يجعل الطمأنينة واجباً.. وهكذا.

وهذه الفروع تدل على أن فقهاء الأحناف، ما كانوا يأخذون بحديث الواحد ما أمكن عمل النص القرآني وما تبينت دلالته، وذلك هو المنهاج الذي ذكره العلماء عنهم، فهم يأخذون بدلالات القرآن ومفهوم عباراته وإشاراته، ويتركون حديث الآحاد عند ذلك احتياطاً في قبول الرواية، وترجيحاً لنص قرآني لا شك في صدقه، على رواية حديث تغلب عليها الصحة، في وقت راج فيه الكذب على رسول الله ﷺ.

القرآن الكريم هو أصل هذه الشريعة وجامع أحكامها، وهو المصدر الأول والأعلى في مسائل الفقه عند أبي حنيفة.. والقرآن قطعي الثبوت، ولا يصل رتبته في الثبوت إلا الحديث المتواتر..

الركن والواجب في الصلاة





2 - السنة

هذا هو الأصل الثاني الذي اعتمد عليه أبو حنيفة -رحمه الله- في استنباطه، وهي تلي الكتاب في مرتبته، فهي مبينة لكليه، مفصلة لمجمله.

والآثار متضافرة في أن السنة تأتي بعد القرآن في الاستدلال، فحديث معاذ رضي الله عنه يثبت ذلك، اذ سأله النبي ﷺ: بمَ تحكم؟

قال: بكتاب الله.

قال: فإن لم تجد؟

قال: فبسنة رسول الله.

قال: فإن لم تجد؟

قال: أجتهد في رأيي.

ولقد كتب عمر رضي الله عنه إلى شريح القاضي: "إذا أتاك أمر فاقضِ بما في كتاب الله، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله، فاقض مما سنَّ رسول الله ﷺ".

وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.



الفرق بين الثابت بالقرآن والسنة

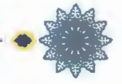
هذه حقيقة مقررة في المأثور عن أبي حنيفة، وقد صرّح هو بها كما بينا، ولقد وجدنا الحنفية يفرقون بين أمر ثابت بالقرآن، إذا كانت الدلالة قطعية، وأمر ثابت بالسنة الظنية.

والثابت بالقرآن من الأوامر فرض، والثابت بالسنة من الأوامر واجب.

وكذلك النهي، فالمنهي عنه في القرآن حرام إذا لم يكن ثمة ظن في الدلالة.

والثابت بالسنة الظنية الثبوت مكروه كراهة تحريمية، حتى وإن كانت دلالة الحديث قطعية، وذلك لتأخر مرتبة السنة الظنية عن القرآن الكريم من حيث الثبوت من جهة، والاستدلال بها على الأحكام من جهة أخرى.

الأوامر الثابتة بالقرآن فرض، والثابتة بالسنة واجب، والنواهي الثابتة بالقرآن محرّمة، والثابتة بالسنة مكروهة كراهة تحريمية.



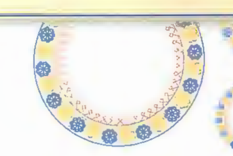
هل خالف أبو حنيفة السنة؟

رُمي أبو حنيفة رحمه الله تعالى في حياته بمخالفة السنة، فقال في نفي هذه التهمة عن نفسه: «كذب والله وافترى علينا من يقول إننا نقدِّم القياس على النص، وهل يحتاج بعد النص إلى قياس؟».

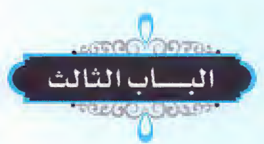
بل لقد صرّح –رحمه الله– بأنه لا يقيس إلا عند الضرورة الشديدة، فقد كان يقول: «نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة، وذلك أننا ننظر في دليل المسألة من الكتاب والسنة أو أقضية الصحابة، فإن لم نجد دليلاً، قسنا حينئذ مسكوتاً عنه، على منطوق به».

وكان يقول: "ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، بأبي وأمي، وليس لنا مخالفته، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن غيرهم، فهم رجال ونحن رجال".

ويروى أن أبا جعفر المنصور كتب إليه: "بلغني أنك تقدّم القياس على الحديث"، فرد عليه أبو حنيفة برسالة جاء فيها: "ليس الأمر كما بلغك يا أمير المؤمنين، إنما أعمل أولاً بكتاب الله، ثم بسنة رسول الله ﷺ، ثم بأقضية أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم، ثم بأقضية باقي الصحابة، ثم أقيس بعد ذلك إذا اختلفوا، وليس بين الله وبين خلقه قرابة". (أي أن باقي الناس بعد الصحابة اجتهدوا وأنا أجتهد مثلهم حيث ليس لهم منزلة خاصة عند الله تعالى).







الاحتجاج بالأحاديث

قسّم علماء الحديث والأصول الأحاديث بالنسبة لعدد رواتها إلى ثلاثة أقسام:

أحاديث متواترة، وأحاديث مشهورة، وأحاديث آحاد، أو أخبار الخاصة.

آ- الأحاديث المتواترة

وهي التي رواها عدد كبير يستحيل اتفاقهم على الكذب عن جمع آخر مثلهم عدداً عن مثلهم، وهكذا حتى يروون عن النبي ﷺ.

والأحاديث المتواترة هي بلا ريب حجة عند أبي حنيفة -رحمه الله-، ولم يُعرف عنه أنه أنكر خبراً على تواتره، وأنّى له ذلك!

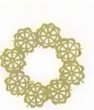
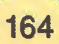
ب- الأحاديث المشهورة

وهي التي رواها عدد لا يبلغ التواتر عن مثلهم وهكذا..

والأحاديث المشهورة تعتبر حجة كذلك، ولو كانت منزلتها أقل من الأحاديث المتواترة..

ومن الأحكام التي ثبتت بأحاديث مشهورة: حد الرجم، فقد ثبت بحديث مشهور عندهم، وهو قوله ﷺ: "الثيب بالثيب جلد مائة، ورجم بالحجارة". والخبر المشهور من أن النبي ﷺ رجم ماعزاً المازني.

وكذلك المسح على الخفين ثبت بما روي مشهوراً عن النبي ﷺ من أنه مسح على الخفين.

ج- حديث الآحاد

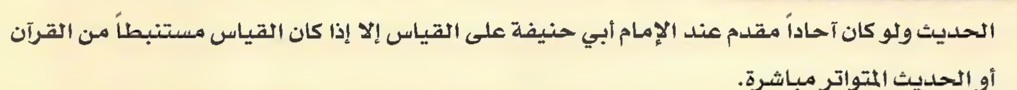
وهو الحديث الذي في أحد أجزاء سلسلته ونقله (أو كلها) أفراد لم يبلغوا حد التواتر أو المشهور من الحديث..

لقد وُجد في عصر الاجتهاد من أنكر الاحتجاج بأحاديث الآحاد، لكثرة من كذبوا على رسول الله ﷺ، ولاختلاط الصحيح بغير الصحيح من الأخبار.

أما أبو حنيفة -رحمه الله - فقد كان من أول الفقهاء قبولاً لأحاديث الآحاد، يحتج بها، ويعدل آراءه على مقتضاها إن وجد حديثاً يخالفها، ويقرر ذلك بين تلاميذه، ويأخذونه عنه.

وقد ساق الإمام محمد بن الحسن رحمه الله أمثلة كثيرة في إثبات أن أخبار الآحاد تقبل في أمور الدين لدى أبي حنيفة ويقدمها على غيرها من الأدلة من غير الكتاب والسنة، أو القياس المستنبط بشكل مباشر من القرآن الكريم أو الحديث المتواتر..



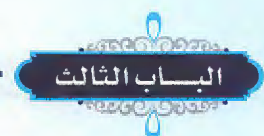


تعارض الحديث والقياس

الحديث ولو كان آحاداً مقدم عند الإمام أبي حنيفة على القياس إلا إذا كان القياس مستنبطاً من القرآن أو الحديث المتواتر مباشرة.

أما إذا كان القياس مع حديث آحاد وكان قطعياً في دلالته فيجب تقديم السنة على القياس لأنها على النسبة لرسول الله ﷺ، وهو مبين الشرع، ومفصل أحكامه.

أما إذا عارضت أخبار الآحاد أصلاً عاماً من أصول الشرع ثبتت قطعيته، وكان تطبيقه على الفرع قطعياً، فأبو حنيفة يضعف بذلك أخبار الآحاد، وينفي نسبته إلى رسول الله ﷺ، ويحكم بالقاعدة العامة التي لا شبهة فيها.





الحديث المرسل

وهو ما رفعه التابعي إلى رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً.. مثاله: قال الشافعي: أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع اللحم بالحيوان..

قال الحنفية: إن الإرسال يُقبل من الصحابي والتابعي، والقرن الثالث أي تابع التابعي، لأن الذي سقط من السند هو صحابي في الغالب. ولا يُقبل وراء ذلك.

ورأى طائفة كبيرة من المحدثين عدم قبول الحديث المرسل واعتبروه من الضعيف لأن الساقط من السند مجهول، والحديث لا يؤخذ إلا من ثقة، والمجهول كيف نثق به؟.

وقد يكون الساقط من السند تابعياً رواه عن تابعي رواه عن صحابي، فكيف نتأكد من صحة الحديث وضبطه؟

أما الشافعي فهو يقبل المرسل بشرطين:

أن يكون التابعي الذي أرسل من كبار التابعين الذين التقوا بكثير من الصحابة، كسعيد بن المسيب الذي التقى بعدد كبير من الصحابة، وبهذا نتأكد أن الساقط من السند صحابي.

والشرط الثاني: أن يوجد ما يقوي الإرسال، مثل وجود حديث آخر بنفس المعنى والمؤدىأو أقوال للصحابة ونحوها.

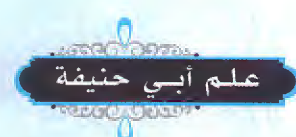
بيد أنه يُلاحظ أن أبا حنيفة لم يكن يقبل الحديث المرسل من كل الطرق، إنما كان يقبل الإرسال من ناس عرفهم، وتتبع طريقهم، وهم عنده في مقام من الثقة، لا يتطرق الريب إليه.

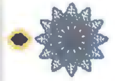
وعلى ذلك نقول: إن قبول المرسلات ممن روى عنهم أبو حنيفة، ليس دليلاً على أنه يجيز قبول المرسلات بإطلاق، فلا بد أن يكون لاحظ أن يكون التابعي أو تابع التابعي من الثقات الذين يؤخذ عنهم، ولا يروون إلا عن الثقات، فلا يأخذون عن ضعيف، ولا يكون فيمن يتلقون عنهم من لا يكون ثقة يطمئن إليه، ويؤخذ عنه، ولا يصح حينئذ أن يقال عن أبي حنيفة: إنه يعتبر كل مرسل من تابعي أو تابع تابعي، حجة من غير قيد ولا شرط.



المصدر الثاني من المصادر التي اعتمد عليها أبو حنيفة في استنباطه هو السنة المطهرة، وقد أخذ بالمتواتر من الأحاديث والمشهور منها، كما أخذ بخبر الآحاد، وبالحديث المرسل إن كان من الثقات..







3 - فتوى الصحابة

ذكرنا في صدر كلامنا في أصول أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: "إن لم أجد في كتاب الله، ولا سنة رسول الله ﷺ، أخذتُ بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت، وأدع قول مَن شئت منهم، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم، والشعبي، وابن سيرين، والحسن، وعطاء، وسعيد بن المسيب -وعدّ رجالاً- فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا".

وهذا الكلام يدل على أنه يأخذ بقول الصحابي، ويعتبره واجب الاتباع، وأنه إذا اجتهد في موضوع كانت للصحابة آراء فيه، يختار من هذه الآراء، ولا يخرج عن آرائهم إلى غيرها، وأنه إذا لم يكن لهم رأي اجتهد، ولا يتبع رأي التابعي، فهو لا يقلد التابعي، ولكن يقلد الصحابي.

وخلاصة القول: إن أبا حنيفة رحمه الله، كان يتبع قول الصحابة ويلتزم به، وإن كان بعض العلماء في مذهبه ذهب إلى أنه كان يرجح الرأي على قول الصحابي معتمداً على بعض الفروع، ولكن رجحنا الأخذ بنص قوله؛ لأن قوله هو المعتبر في بيان مسلكه، ولأنه هو الذي تؤيده الفروع المختلفة، وهو الذي يتفق مع ورعه وتقواه، وتقديره للسلف الصالح، واتباعه لأقوالهم.

ولم يكن أبو حنيفة يأخذ بفتوى التابعي على أنها واجبة الاتباع، بل يجتهد كما اجتهدوا .

كان أبو حنيفة يأخذ بقول الصحابة ويلتزم به، ولا يخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، ويختار من بين أقوالهمولا يأخذ بفتوى التابعي، بل يجتهد كما اجتهدوا..



4 - الإجماع

الإجماع هو اتفاق جميع المجتهدين من الأمة الإسلامية، في عصر واحد على الحكم في أمر من الأمور بلا اختلاف بينهم.

وهذا الإجماع حجة عند أبي حنيفة، معمول به، فقد جاء في المناقب للمكي: «كان أبو حنيفة شديد الاتباع لما كان عليه الناس ببلده».

وقال سهل بن مزاحم: «كلام أبي حنيفة أخذ بالثقة، وفرار من القبح، والنظر في معاملات الناس، وما استقاموا عليه، وصلحت عليه أمورهم».

فهاتان الروايتان تثبتان أنه كان يتبع ما يجمع عليه فقهاء بلده، وكان يسير عند عدم وجود النص على ما ظهر عليه تعامل الناس في زمنه، وهذا يثبت بلا ريب أنه كان بالأولى، يأخذ بإجماع المجتهدين عامة؛ فمن يكون شديد الاتباع لفقهاء بلده، أحرى بأن يكون شديد الاتباع لما يجمع عليه العلماء.

والإجماع في كل حال مقدّم على القياس.

وإن الإجماع في شرعيته، إنما كان حجة بعد النص، لمراعاة وحدة الجماعة، وتوحيد رأيها، ومنع العمل بالشاذ من الآراء.



الإجماع حجة عند أبي حنيفة معمول به؛ لأنه اتفاق جميع المجتهدين في عصر واحد على الحكم..





5 - القياس

القياس الذي أكثر منه أبو حنيفة، قد ضبطه العلماء من بعده في تعريف جامع مانع، فقالوا: إنه بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه، بأمر معلوم حكمه بالكتاب، أو السنة، أو الإجماع، لاشتراكه معه في علة الحكم.. كربوية الذرة قياساً على ربوية البرّ (القمح) بعلة الكيل..

وإن اجتهاد أبي حنيفة، ومسلكه في فهم الأحاديث، مع البيئة التي عاش فيها، من شأنه أن يجعله يكثر من القياس، ويفرِّع الفروع على مقتضاه، ذلك لأن أبا حنيفة في اجتهاده ما كان يقف عند بحث أحكام المسائل التي تقع، بل يتسع في استنباطه، فيبحث عن أحكام المسائل التي لم تقع، ويتصور وقوعها، ليستعد للبلاء قبل نزوله، ويعرف الخروج منه إذا وقع..

وإن ذلك بلا ريب يقتضي أن يستنبط العلل الباعثة للأحكام، والغايات المناسبة لشرعيتها، ويبني عليها، ويجعل العلل مطردة في كل ما تنطبق عليه.

وكل هذا يدل على قدرة عقلية عالية وذكاء فريد وتحليل ومنطق واستنتاج تميز بهم الإمام الأعظم

منهج خاص في استخراج الأحكام

كان للإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى مسلك خاص في فهم النصوص واستخراج الأحكام منها، ويؤدي هذا المنهج إلى الإكثار من القياس، ويقوم هذا المنهج على الجمع بين ما يلي:

1 - دراسة النصوص والأدلة ودرجة قوة كل منها..

2 - ترتيب الأدلة حسب مستواها (القرآن، فالحديث، المتواتر، فالمشهور، فحديث الآحاد إن صح، ثم قول الصحابي، ثم الإجماع، ثم القياس، فالاستحسان، فالعرف).

3 - دراسة ما تدل عليه الأحكام وفق قواعد اللغة العربية وأساليبها.

4 - النظر في الحالة التي تتطلب الفتوى، والحوادث التي اقترنت بها..



5 - مراجعة أهداف الشريعة من هذا الحكم أو الفتوى بناءً على إعادة النظر في مقاصد الشريعة وأسباب نزول النص والعلل الشرعية التي بني عليها الحكم.

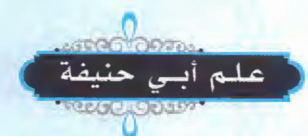
6 - النظر في النصوص الأخرى التي لها علاقة بالموضوع بشكل غير مباشر.

7 - عدم الاكتفاء بالنص الظاهر وأحكامه المباشرة، حتى عد الإمام الأعظم خير من يفسر الأحاديث، لأنه لا يكتفي بالتفسير الظاهر الذي يدل عليه سياق القول، بل يتعرف إلى ما ترمي إليه العبارة، وما تنبئ عنه الإشارة، وما يدل عليه النص بشكل غير مباشر من خلال مقتضاه وليس صريح القول..

8 - الجمع بين كل الأمور السابقة ليستخرج الحكم الشرعي في الأمر المستجد بالقياس على الأحكام الواضحة، باستنباط العلل من ثنايا النصوص، وتعميم أحكامها، والمواءمة بينها وبين النصوص المعارضة لها مواءمة عادلة مستقيمة، لا يخرج فيها عن النص، ولا يلغي قياسه..

9 - إذا قبح القياس في موضع وظهر أنه لا يتناسب مع أهداف الشريعة ومصلحة العباد عدل عنه إلى الاستحسان فقط في هذه المسألة، وليس كقاعدة عامة، بحيث يزيل قبح القياس في المواضع التي الأصل فيها القياس، ولكنه لا يلغي القياس بالجملة، ولكن في حالات استثنائية..

كل هذا جعل أبا حنيفة إماماً للقياس وأستاذاً في منهج الفقه بالرأي والنظر العقلي، فهو يعتبر من المؤسسين لهذه المدرسة الفقهية العظيمة والتي كانت بمقابل مدرسة النقل التي كان عليها معظم الفقهاء، والتي تعتمد على النظر المباشر في النص والاكتفاء بظاهر أحكامه في الغالب..



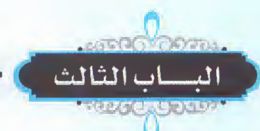
الأصل في القياس مصلحة العباد

إن الأصل الذي قام عليه القياس: أن أحكام الشارع وردت لصلاح الناس في دنياهم وآخرتهم، فهي قد قدرت فيها معان وحِكَم تؤدي إلى المصلحة لا محالة، وإن كل طلب لشيء أو تحريم لشيء، أو إباحة، أو كراهة، إنما كان ذلك لأوصاف اقتضت ذلك الحكم الشرعي، وشَرَع الله لأجلها ما شرع، وهو في ذلك غير مُكرَه ولا مُلزَم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولكنه رحمة بعباده، وإنعاماً منه وفضلاً، جعل ما يشرع من أحكام فيه مصالحهم، وفيه خيرهم في الحال، وحسن جزائهم في المآل.

وعلى ضوء هذا المعنى الجليل يفهم أبو حنيفة رحمه الله تعالى نصوص الكتاب والسنة، وما انعقد عليه إجماع الصحابة، وما أُثر عنهم من فتاوى، وما تتبعه من أحكام فقهية.

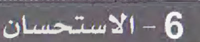
وهذا ما جعل أبا حنيفة يشتهر بالرأي أكثر مما يشتهر بالأثر لأنه ينظر أين يوجد في الحكم الشرعي المصلحة للعباد، وهذا جعل أقيسته واطرادها يذيع عنه وينشر، وإن كان هو إمام يتمسك بالسنة ويتبع ولا يبتدع.

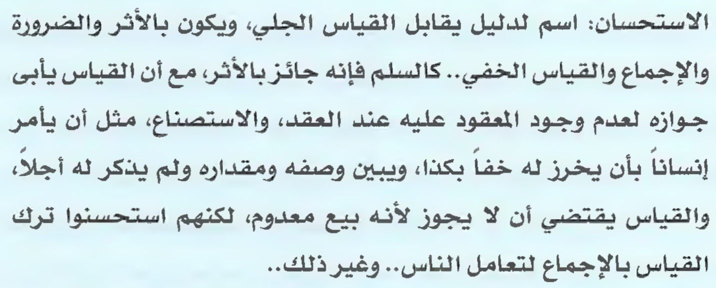
القياس هو بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه لاشتراكه معه في علة الحكم، وأبو حنيفة إمام أهل القياس، كان يستنبط العلل من ثنايا النصوص ويعمم حكمها.. مما جعله يكثر من القياس ويشتهر بالرأي..





6 - الاستحسان





الاستحسان: اسم لدليل يقابل القياس الجلي، ويكون بالأثر والضرورة والإجماع والقياس الخفي.. كالسلم فإنه جائز بالأثر، مع أن القياس يأبى جوازه لعدم وجود المعقود عليه عند العقد، والاستصناع، مثل أن يأمر إنساناً بأن يخرز له خفاً بكذا، ويبين وصفه ومقداره ولم يذكر له أجلاً، والقياس يقتضي أن لا يجوز لأنه بيع معدوم، لكنهم استحسنوا ترك القياس بالإجماع لتعامل الناس.. وغير ذلك..

وقد أَكْثَر أبو حنيفة من الاستحسان، وكان فيه لا يُجارى، حتى لقد قال تلميذه محمد بن الحسن - رحمه الله -: «إن أصحابه كانوا ينازعونه المقاييس، فإذا قال: أستحسن، لم يلحق به أحد، ولقد كان يقيس ما استقام له القياس، ولم يقبح، فإذا قبح القياس استحسن، ولاحظ تعامل الناس». (أي أنه يستعمل الاستحسان عندما يكون القياس غير مناسب ويؤدي إلى ما يخالف مصالح العباد، وهو عندما يستعمل الاستحسان يراعي ما عليه التعامل بين الناس).

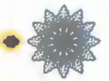
وكان إكثار أبي حنيفة من الاستحسان مثار طعن الذين ينتقصون قدره، ويبخسونه حظه من الفقه والتقى.

ولقد اختلف العلماء في عصر أبي حنيفة ومن بعده في الاستحسان بين مؤيد ومعارض:

ومن أبرز المؤيدين: الإمام مالك رحمه الله الذي عاصر أبا حنيفة رحمه الله حيث كان يقول: «الاستحسان تسعة أعشار العلم».

ومن أبرز المعارضين: الإمام الشافعي رحمه الله الذي جاء من بعدهما حيث كان يقول: «من استحسنَ فقد شرّع»، وعقد فصلاً في كتاب الأم سمّاه: «كتاب إبطال الاستحسان».

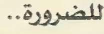




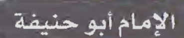
استحسان أبي حنيفة

لقد بيّن فقهاء الحنفية، الاستحسان المأثور عن أبي حنيفة، ووضعوا ضوابط للفروع التي كان الاجتهاد فيها بالاستحسان، ومن تعريفهم وضوابطهم يتبين أن استحسانات أبي حنيفة لم تكن خروجاً عن النص والقياس، بل كانت من الاستمساك بهما، وأن الاستحسان الذي أخذ به أبو حنيفة، إنما كان منعاً للقياس من أن يكون تعميم علته منافياً لمصالح الناس، التي قام الدليل من الشارع على اعتبارها، أو مخالفاً للنصوص، أو الإجماع، أو عندما تتعارض العلل الشرعية المعتبرة، فيرجح أقواها تأثيراً في موضوع النزاع، وإن لم يكن هو الظاهر الجلي.

ومن ذلك تطهير الآبار والأواني والحياض للضرورة المحوجة إلى التطهير، يعني، ترك القياس وهو أن لا تطهر بعد تنجسها لتعذر صب الماء على الحوض والبئر ونحوهما فتطهر للضرورة..

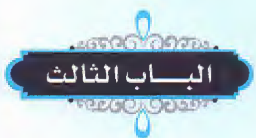






الإمام أبو حنيفة

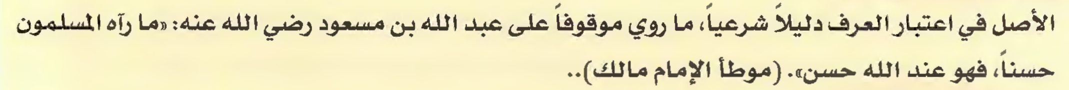
أكثر الإمـام أبو حنيفة من الاستحسان، وهو دليل يقابل القياس، فهو يقيس ما استقام له القياس، فإذا قبح القياس استحسن ولاحظ تعامل الناس.. وقد اختلف العلماء في الاستحسان بين مؤيد ومعارض..



7 - العُرْف

الأصل في اعتبار العرف دليلاً شرعياً، ما روي موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن». (موطأ الإمام مالك)..

فإن ذلك الأثر يدل بعبارته ومرماه، على أن الأمر الذي يجري عرف المسلمين على اعتباره من الأمور الحسنة يكون حسناً، وإن مخالفة العرف لا تخلو من حرج وضيق، والله تعالى يقول:


﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: من الآية 78).

وإن العلماء إذ يقررون أن العرف أصل من أصول الاستنباط، يقررون أنه يستعمل كدليل عندما لا يوجد دليل شرعي آخر، فهو دليل حيث لا كتاب ولا سنة، وإذا خالف العرف الكتاب والسنة، كتعارف الناس في وقت من الأوقات على بعض المحرمات كشرب الخمر، وأكل الربا، وغير ذلك بما ورد تحريمه نصاً، فهو مردود، لأن اعتباره إهمال للنص، واتباع للهوى، وإبطال للشرائع، فما جاءت الشرائع لتقرير المفاسد، وإن تكاثر الأخذ بما يدعو إلى مقاومتها، لا إلى إقرارها.

شروط العرف المعتَبَر



قال ابن عابدين: «إن ورد الدليل عاماً، والعرف خالفه في بعض أفراده، أو كان الدليل قياساً، فإن العرف معتبر إن كان عاماً، فإن العرف العام يصلح مخصصاً، ويترك به القياس، كما صرحوا به في مسألة الاستصناع، ودخول الحمام، والشرب من السقاء».

ومن هنا يتبين أن العرف يُعتبر إن كان العرف عاماً بين الناس، ولم يخالف النص الشرعي الصحيح من كل الوجوه، وبالأولى يترك به القياس، لأنه حينئذ يقبح القياس، بل إنهم يصرحون أن تعامل الناس يخصص النص العام، وذلك إذا كان العرف عاماً، فمثلاً: قد ورد نهي النبي ﷺ الإنسان أن يبيع ما ليس عنده، ولكن جرى تعامل الناس من أقدم العصور على جواز الاستصناع، فكان ذلك التعامل مخصصاً للنص، فكان النهي فيما عداه.

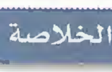
مرونة وقوة

أخذ أبو حنيفة –إذن- بهذا المنهج الذي اعتبر العرف العام دليلاً حيث لا نص، بل مخصصاً لعموم الآثار الظنية، التي تكون بعض صورها منافية للعرف العام، الذي يتطابق عليه المسلمون في كل الأقطار الإسلامية، فكان في مذهبه مرونة وقوة.

ولقد طبق علماء مذهبه ذلك في تخريجهم، فصار المذهب بهذا قابلاً للتجديد، ومتسعاً لأطوار الزمان، وأعراف الناس، فلم يقف المجتهدون فيه أمام ما استنبط السابقون جامدين، بل أخضعوه للعرف ما دام لا نص فيه.

ولهذا قالوا في شرط الاجتهاد: إنه لا بد من معرفة عادات الناس، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان، لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو فساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم الشرعي المبني على العرف السابق على ما كان عليه أولاً للزم منه المشقة، والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد، لبقاء العالَم على أتم نظام، وأحسن إحكام.

ولهذا ترى علماء المذهب خالفوا ما نص عليه أبو حنيفة في مواضع كثيرة، بناها على ما كان في زمنه، لعلمهم بأنه لو كان في زمنهم لقال ما قالوا، أخذاً من قواعد مذهبهم.

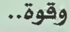


الخلاصة

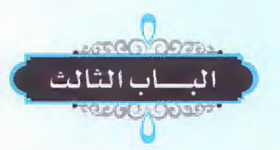
هذا هو العرف ومقامه في الفقه الإسلامي، في نظر أبي حنيفة وأصحابه، والمخرجين في مذهبه من بعدهم، يأخذون بالعرف حيث لا نص فيه، من كتاب أو سنة، ويخصصون النصوص العامة من الآثار، إن خالفت عرفاً عاماً، ويوائمون بين القياس الظني والعرف ما أمكنت الملاءمة، فإن لم تكن الملاءمة، وكان العرف ملزماً بضرورة المخالفة، أخذ بالعرف، والعرف الخاص يؤخذ به إذا لم يكن ثمة دليل سواه.



العرف هو ما يجري عرف المسلمين على اعتباره حسناً، وقد اعتبره أبو حنيفة دليلاً.. مما جعل مذهبه أكثر مرونة وقوة..







2 الفقيه التجاري

كان أبو حنيفة رحمه الله تاجراً ذا خبرة بالمعاملات في الأسواق، وقد قسّم وقته بين التجارة والفقه والعبادة قسمة عادلة، فهو في الليل المتهجد العابد، وفي ضحوة النهار التاجر الذي يتولى العقود كاسباً رابحاً، حتى إذا صلى الغداة عكف على العلم دارساً ومذاكراً، مفرِّعاً الفروع، أو مؤصلاً الأصول.

وهو في فقهه المالي، متأثر بفكره التجاري، يفكر في العقود الإسلامية المتصلة بالتجارة، تفكير التاجر الذي تمرَّس بها، وعرف عرفها، واستبان معاملات الناس فيها، وواءم مواءمة الخبير بين نصوص الشريعة من كتاب وسنة، وبين ما عليه تعامل الناس.





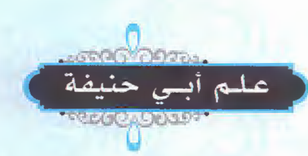
الميزة التجارية

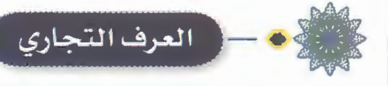
وإنا لنلمح في هذه الميزة أمرين:

الأول: عظم عنايته بالاستحسان، حتى لقد عُدَّ فيه الخبير الذي لا يلحق به أحد من أصحابه، وليس الأخذ بالاستحسان، وإحكام التخريج به، والاستنباط عن طريقه، إلا لإدراكه لمصالح الناس وعلمه بطرق تعاملهم، ومعرفة ما يقره الشارع الإسلامي، وقدرته على استخراج العلل الخفية، والأوصاف المناسبة، وبناء الأحكام عليها، وردّ الأقيسة الظاهرة، بتلك الأقيسة الخفية التي تؤثر في اطراد الأحكام، وقد تخفى على غير الفقيه الذي يستبطن الأمور.

فالاستحسان أساسه أن يرى تطبيق القياس، ويأخذ بالاستحسان المبني على المصلحة التي يردها إلى نص شرعي، أو المبني على العرف والتعامل بين الناس.

ولقد كان أقدر الفقهاء على تخير أبواب الاستحسان، حتى أن الإمام محمداً يقرر أن أصحاب أبي حنيفة ينازعونه المقاييس، فإذا قال: «أستحسن» لم يلحقه أحد.



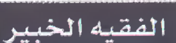


العرف التجاري

الأمر الثاني: أخذه بالعرف كأصل شرعي، يترك به القياس، ولعل العقل التجاري الذي امتاز به أبو حنيفة مع إكثاره من الاستحسان، هو السبب الذي من أجله اعتبر العرف أصلاً من أصول الفقه الإسلامي فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة.

ونجد في المأثور في فقه أبي حنيفة عناية كبيرة بتفصيل أحكام عقود من البيع، تبين أنواع المعاملات في الأسواق، وهي تكشف بما أعطيت من أحكام، عن العرف التجاري الذي كان يسود في عصور الاجتهاد، ومن هذه البيوع بيع المرابحة (وهي: نقل ما ملكه بالعقد الأول بالثمن الأول مع زيادة الربح) والتولية (وهي نقل ما ملكه بالعقد الأول بالثمن الأول من غير زيادة ربح)، والوضيعة، والإشراك، ثم السلم (وهو بيع آجل بعاجل).





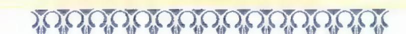
الفقيه الخبير

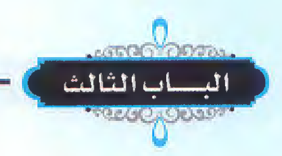


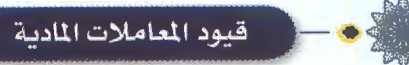
إن آراء أبي حنيفة في العقود التجارية، هي أحكم الآراء بين الفقهاء وأدقها بسبب خبرته التجارية، وهو أول من فصّل أحكام هذه العقود، وذلك لأن إمام ذلك الفقه هو التاجر الذي يتكلم في هذه العقود كلام الفقيه الذي عاين معاملات التجار وشاهدها، ولم يكن في فهمه مقصوراً على تأصيل الأصول، وتفريع الفروع، من غير نظر إلى ما يسير عليه الناس، وما تجري عليه أمورهم، وما تستقيم عليه أحوالهم.

وإنك تلمح في تفصيل أحكام هذه العقود نوع التجارة التي كان يتجر فيها أبو حنيفة، فترى عند الكلام في المرابحة، والتولية والإشراك والسلم في الثياب، أبا حنيفة بائع القماش والحرير الخبير بعرْف الناس في الثياب، وتعامل أهل عصره فيها، فيذكر أحكام تبادلها، مشيراً إلى أوصافها وميزاتها، وغير ذلك مما يتبين منه علم الفقيه بأنواعها، وخبرته بها، وإدراكه لما يمتاز به كل نوع من أنواعها.









قيود المعاملات المادية

إن أبا حنيفة ومعه أصحابه يقيدون تفريعهم في أحكام العقود والمعاملات بأصول أربعة:

- الأصل الأول: البدل

العلم بالبدل علماً تنتفي معه الجهالة التي تؤدي إلى النزاع، لأن أساس العقود في الشريعة: العلم التام بالبدلين، حتى لا يكون ثمة تغرير أو غش، وحتى لا تكون سبباً إلى التخاصم، وإن كلمة مبينة في العقد، تمنع خصومات كثيرة في المستقبل، تنقطع بتركها المودة بين الناس، وتضطرب شؤونهم وتحير القضاء في الفصل بينهم، فكان من الحتم اللازم، العلم التام، سداً لذرائع الخصام.

- الأصل الثاني: الربا

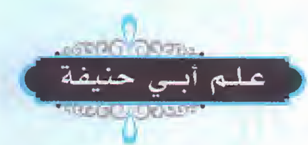
تجنب الربا، وشبهة الربا، وهذا أصل عام في كل البيوعات في الإسلام، فإن الربا بسائر أنواعه أبغض التصرفات في الإسلام وأشدها تحريماً.. فقد قال النبي ﷺ: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد عند الله من ستة وثلاثين زنية». (صحيح، رواه أحمد)

فكل عقد يكون فيه ربا فهو باطل، وكل عقد يكون فيه شبهة الربا يكون باطلاً، سداً للذرائع، ومحافظة على أموال الناس أن تؤكل بالباطل؛ ولأن أساس العقود المالية، التساوي في نظر العاقدين، ونظر الشارع الإسلامي والربا في نظره زيادة باطلة لا يقرها، ولا يحترم القضاء العقود التي اشتملت عليها.

- الأصل الثالث: العرف

إن العرف له حكمه في هذه العقود، حيث لا يكون نص، فما يقره العرف يؤخذ به، وما لا يقره العرف يُترك، فمثلاً عند ذكر الثمن الأول في المرابحة، تصح إضافة ما جرى العرف بإضافته إلى الثمن، كأجرة الصباغ والخياط في الثياب، ولا تصح إضافة ما لا يجري العرف بإضافته كأجرة الراعي والبيطار، وما أنفق على نفسه، والتعويل على هذا الباب على العادة.





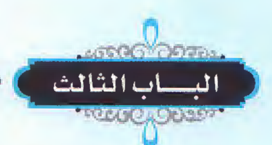
- الأصل الرابع: الأمانة

الأصل في هذه العقود التجارية: الأمانة، فلئن كانت الأمانة أصلاً في كل العقود الإسلامية -بل في الأعمال- لأنها رأس الفضائل، فهي في المرابحة والتولية وأخواتها أصلها الفقهي، لأن المشتري ائتمن البائع في إخباره عن الثمن الأول من غير بينة ولا يمين، فيجب صيانتها عن الخيانة والتهمة.



تمرّس أبو حنيفة في التجارة كما تمرّس في الفقه، فغدا فقهه المالي متأثراً بفكره التجاري، وامتازت آراؤه في العقود التجارية بالدقة والتفصيل لخبرته بمعاملات التجار وأعراف الناس، ووضع أصولاً قيَّد بها أحكام العقود لتحفظها وتصونها..

هذه أصول ثابتة في كل الفروع، التي أُثرت عن أبي حنيفة في هذه العقود التجارية، وهي تتفق مع نزعته الدينية وتَحَرُّجه، وتتفق مع خبرته في الأسواق، وتتفق مع أصوله العامة التي رسمها في منهاجه.



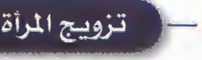
3 تقدير الحرية

كان أبو حنيفة رجلاً حراً، يقدِّر الحرية في غيره، كما يريدها لنفسه، ولذلك كان في فقهه حريصاً كل الحرص على أن يحترم إرادة الإنسان في تصرفاته ما دام عاقلاً،فهو لا يسمح لأحد أن يتدخل في تصرفات الإنسان العاقل الخاصة به، فليس للجماعة ولا لولي الأمر الذي يمثلها أن يتدخل في شؤون الأفراد الخاصة، ما دام لم يوجد أمر ديني قد انتهك، ولا حرمات قد أبيحت.



أهلية المرأة

تعطي الشريعة الإسلامية المرأة من الأهلية –سواء أكانت أهلية وجوب أم أهلية أداء– ما تعطيه للرجل فهما سواء، فيثبت للمرأة من الحقوق المالية ما يثبت للرجل، ويجب عليها مثل الذي يجب عليه، ولها الحق في مباشرة الأسباب التي تنشئ التزامات، وتوجب حقوقاً لغيرها، ما دامت عاقلة، مميزة رشيدة، فلها ذمة صالحة لكل الالتزامات، ولها إرادة مستقلة تنشئ بها تصرفات يقرها الشارع.



تزويج المرأة

اتفق الفقهاء على أن البالغة الحرة، لا يجبرها أحد على الزواج ممن لا تريده، إلا ما روي عن الشافعي أنه أجاز للولي إجبار البكر –ولو بالغة عاقلة– على الزواج، ولكن لم يوافقه أحد على ذلك.

ومع اتفاق الفقهاء على عدم إجبار البالغة العاقلة على زواج من لا تريده، قد اختلفوا مع أبي حنيفة، فهم يرون أن وليها لا يرغمها على الزواج، وهي أيضاً لا تستطيع أن تتزوج من غير موافقته، وإن موافقتها دون موافقة ولي أمرها لا تصلح لإنشاء عقد الزواج، بل يشترك وليها في الاختيار، وهو الذي يتولى صيغة العقد.

المرأة تزوج نفسها



هذا ما قرره جمهور الفقهاء في عدم تزويج المرأة نفسها، ولكن أبا حنيفة يخالفهم أجمعين، ويرى أن المرأة الراشدة يمكنها تزويج نفسها حتى بدون إذن ولي أمرها، وانفرد -رحمه الله- من بين الفقهاء بذلك الرأي.

(وروي عن أبي يوسف تلميذه أنه وافقه، ولكن الرواية الأخرى عن هذا التلميذ أنه انضم إلى الجمهور وترك رأي شيخه).

وإن انفراد أبي حنيفة بهذا الرأي دليل على تقديره للحرية الشخصية. (بغض النظر عن صواب هذا الرأي).

والأصل في ذلك عنه أنه يقدر أن الولاية على الحرة العاقلة، لا تثبت إلا لمصلحتها، وإذا فاتت هذه المصلحة لا تفرض هذه الولاية، وذلك لأن تقييد الحرية ضرر، فلا يصح أن تقيد إلا لدفع ضرر أشد.

ثم إن أبا حنيفة يقول: كما أن الولاية المالية تثبت للمرأة كاملة، فكان يجب أن تثبت لها كاملة أيضاً ولاية التزويج، ثم إنه يقرر المساواة بين الفتاة والفتى في الزواج، فكما أن له الولاية الكاملة في شأن الزواج، فلها أيضاً الولاية الكاملة في شأن الزواج.

شرط الكفاءة في الزوج

ولكن أبا حنيفة يلاحظ مع هذا أن المرأة قد تسيء الاختيار، وإذا أساءت الاختيار، فإن ذلك يكون سبباً لعار يلاحق أسرتها.. (وهذا ما لاحظه الفقهاء، فمنعوها من الزواج إلا بموافقة وليها)، فاحتاط أبو حنيفة للأسرة في الوقت الذي يعطي المرأة الحرية، فاشترط أن يكون زواجها بكفء يكافئ أسرتها، وإذا اختارت غير كفء من غير أن يرضى عنه وليها، فأصح الأقوال عنه: أن العقد يكون فاسداً.

فالخلاف بينه وبين الفقهاء في هذا خلاصته: أن جمهورهم يمنعون الحرية خشية أن يقع سوء الاختيار وما يجلب العار، أما أبو حنيفة فيرى أن تقييد الحرية ذاته ضرر شديد، ولا يصح أن ننزل بالمرأة ضرراً شديداً احتياطاً لضرر يحتمل أن يكون، ويحتمل ألا يكون..

بل إنه يطلق الحرية، فإن أساءت الاختيار فعلاً فسد العقد، وبذلك يكون قد احتاط للحرية وللأولياء معاً.



لا حجر على عاقل

ومن الأمثلة في الأحكام الفقهية التي تدل على تقدير الإمام أبي حنيفة رحمه الله للحرية: ما يتعلق بالحجر على العاقل (وهو منعه من التصرف في ممتلكاته بسبب أنه سفيه أو مبذر).

فأبو حنيفة لا يحجر على السفيه، ولا على ذي الغفلة؛ لأنه يرى أن الشخص ببلوغه عاقلاً –سواء أكان سفيهاً أم غير سفيه– قد بلغ حد الإنسانية المستقلة.. فمن كان يبذر ماله سفهاً، أو لا يحسن استغلاله غفلة، ليس لأحد أن يحجر عليه، ويمنعه من إدارة ماله، إذ إن الحجر عليه إهدار لآدميته وحريته، وإيذاء لكرامته، فمن الكرامة الإنسانية التي يستحقها الإنسان بمقتضى إنسانيته أن يكون مستقلاً في إدارة أمواله التي يملكها، وأن ينال الخير من تصرفاته الحسنة، وينال مغبة تصرفاته السيئة، ويقرر الإمام الحر أن الحجر في ذاته أذى لا يعدله أذى ضياع ماله.. إذ لا شيء آلم للحر من إهدار أمواله إلا الحجر على حريته.

لماذا منع الحجر؟

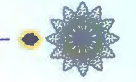


ولا يصح عند الإمام أبي حنيفة لأحد أن يقول: إن مصلحة الجماعة في الحجر على السفهاء أو ذوي الغفلة البالغين بدون جنون، لأن مصلحة الجماعة أن تنتقل الأموال إلى الأيدي التي تحسن استغلالها، بدل أن تبقى على ذمة من لا يحسنون القيام عليها، ويقوم غيرهم على حراستها..

والسبب في ذلك لدى أبي حنيفة أن من مصلحة الجماعة أن تنتقل الأموال من الأيدي الخاملة إلى الأيدي العاملة، وإذا وصل المال إلى يد رعناء ولم تستطع إمساكه، فليُترَك لتلقفه يد أخرى تستطيع المحافظة عليه واستغلاله.

وقد كان أبو حنيفة يقول: إني لأستحي أن أحجر على رجل بلغ الخامسة والعشرين. وإن ذلك دليل على مقدار احترامه للإنسانية، والحرية، وعلو شأن الإنسان في نظره -رحمه الله-.

وقد أثبتت التجارب التي تجري في القضاء أنه ما رفعت دعوى حجر للسفه أو الغفلة، وأريد بها مصلحة صاحب المال.. إنما كان يراد بها الأذى، ومنع فعل الخير، وكان الباعث عليها الأثرة من بعض الوارثين، وما كان الحجر عند الفقهاء لحماية الوارثين، لأنه لا حقّ لهم في المال، وصاحب المال على قيد الحياة.



لا يحجز على مدين

كما أن أبا حنيفة لا يحجر على سفيه ولا ذي غفلة، كذلك لا يحجز على المدين، ولا يمنعه من التصرف في ماله، ولو كانت ديونه مستغرقة لماله، ولكن يُجبر المدين على الأداء بالملازمة، وبالحبس، وبالإكراه البدني لأنه ظالم.. والنبي ﷺ يقول: «ليّ الواجد ظلم يحل عقابه»، ولكنه لا تُهمل إرادته في التصرف، وإمضاء قوله، وجميع الفقهاء يقررون هذه العقوبات البدنية، ويقررون معها إهدار كلامه في ماله، فلا يحلّ له التصرف فيما يملك حتى يوفي دينه، ويباع ماله جبراً عنه، ولو لم يستغرق الدين ماله.

أما أبو حنيفة فيحاجز في فقهه بين إهمال إرادته، وتنفيذ قول غيره في ماله.. لأنه يرى أن الملكية والحرية معنيان متلازمان، فحيث كانت الملكية كانت حرية التصرف، فلا يفصل بين المتلازمين، وإمام الحرية يغلب جانب الحرية دائماً على أي جانب سواه.



حرية المالك

وأبو حنيفة في سبيل حماية حرية التصرف في الملك، لا يسمح للقضاء أن يتدخل في تقييد حرية المالك، إذا ترتب على تصرفه في داخل ملكه أذى لغيره، ويترك القرار في ذلك للضمير الديني المستيقظ.. لأن تدخل القضاء قد يؤدي إلى المشاحنة والخصومة وإضعاف الوازع الديني، وإذا ضعف الوازع الديني لا يوجد ما يغني غناءه، بينما هو وحده كافٍ لقطع النزاع ومنع الاعتداء، وإن إشعار كل جار بأن مصلحته مع جاره مصلحة مشتركة قد يدفعه إلى الخير، وإذا تدخل القضاء ليلزم بأحكامه، ضعف الإحساس بالمصلحة المشتركة، ويكون النزاع بدل التعاون الحر المختار، وإن أبا حنيفة يؤثر في تعامل الناس دائماً الحرية المتسامحة المقيدة بالدين، على القضاء الملزم المقيد، القاطع لمعاني التسامح.

يروى أن رجلاً جاء إلى أبي حنيفة، يشكو إليه أن جاره حفر بئراً في داره بجوار جداره، وإن استمر البئر قد يؤثر في الجدار، فقال له: حدِّث جارك، فقال: حدثته وامتنع ظالماً، فقال: احفر في دارك بالوعة في مقابل بئره، ففعل، فاندفع ماء البالوعة القذر إلى البئر، فكبسها صاحبها..

وهكذا تضمنت إشارته إشعار الجار بمعنى التعاون.

الوقف وحرية التصرف

إن أبا حنيفة في سبيل حرية التصرف في الملك، لم يجز الوقف على أنه لازم للإنسان خلال حياته، لأن لزومه يقتضي في نظره أن يكون المالك غير قادر على التصرف في ملكه، إذاً هو يمنعه من التصرف فيه.. فهو لا يتصور مالكاً لا يملك التصرف، ولا يتصور أن الوقف يخرج الأمر المملوك عن ملك الواقف، لأنه يخرج من ملكه إلى غير مالك، ولا يعرف شيئاً جرى عليه الملك، ثم ينقلب إلى غير مملوك، وما يُقال من أنه يصير ملكاً لله، يعتبره أبو حنيفة ألفاظاً لا مؤدى لها، لأن كل شيء ملك لله تعالى بحكم سلطانه على كل شيء.

ولذلك فإن أبا حنيفة لا يجيز الوقف إلا في المسجد لأنه خالص لله تعالى، وأضاف الله تعالى إليه ملكه، فله اختصاص بالله تعالى دون غيره.





الحرية هي أغلى ما يملكه الإنسان، وأبو حنيفة الحرّ، لا يسمح لأحد أن يتدخل في تصرفات العاقل الخاصة به، ما دام لم ينتهك أمرٌ دينيّ، ولم تُستبح حرمات، فيُثبت للمرأة البالغة العاقلة ولاية تزويج نفسها، ولا يحجر على عاقل سفيهاً كان أو غير سفيه، لأن الحجر عليه إيذاء لكرامته، ولا يحجز على مدين، ويرى أن المالك حرّ التصرف في ملكه، ولا يجيز الوقف إلا في المسجد..

كثير الرحلة

كان أبو حنيفة رحمه الله كثير الرحلة، فقد حج كما يقول الرواة نحو خمس وخمسين حجة، وهو عدد يدل على الكثرة، ولا يخلو من مبالغة، وكان في حجه يدارس، ويذاكر، ويروي، ويفتي، فهو في مكة يلتقي بعطاء ابن أبي رياح، وفي أول مرة التقى به، يسأله عطاء: من أين أنت؟ فيقول له: من أهل الكوفة، فيقول له عطاء: من أهل القرية الذين فرقوا دينهم شيعاً؟ فيقول له: نعم، فيسأله عطاء: فمِن أي الأصناف أنت؟ فيقول: ممن لا يسبّ السّلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفّر أحداً بذنب، فقال له عطاء: عرفتَ فالزم.

ثمرات الرحلات

وهو في حجه يذهب إلى مالك ويذاكره الفقه، ويلتقي بالأوزاعي ويذاكره، وهكذا كانت رحلاته في الحج علمية، يعرف منها مواطن الوحي، وأماكن الرسالة، ومشاهد الرسول، وبذلك يحيط خبراً بمعاني الآثار، ودقائق الأخبار، ويكون كمن شاهد وعاين.

يعرض في رحلاته فتاويه، ويستمع إلى نقدها، فيمحصها، ويعرف مواضع ضعفها، هذا إلى ما تفيده الرحلات نفسها من فتق للذهن، ومعرفة بالبلاد المختلفة، فيحسن التفريع في المسائل الفقهية، ويحكم قصورها، والإلمام بأحكامها.



رحلاته للحج رحلات علمية



الفصل الثاني 2

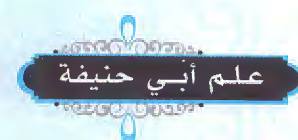
الحديث وأبو حنيفة

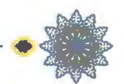
الفصل الثاني: الحديث وأبو حنيفة

1 آراؤه في رواية الحديث

كان أبو حنيفة رحمه الله في عصر التابعين وتابعيهم بإحسان، ولقد كان العالِم في تلك العصور هو العارف المتفقه في الكتاب والسنة وأقوال السلف، فلا عجب أن نجد الإمام - رحمه الله - يحفظ الكثير من سنة رسول الله ﷺ، بعد أن حفظ القرآن الكريم في طفولته.

وقد اشتغل الإمام بطلب علم الحديث بعد سنة مائة للهجرة، فسمع الحديث من شيوخ أجلّاء كثيرين، ومع ذلك فهو مقل في رواية الحديث، ولعلّ السبب في ذلك: تشدده في الرواية، فهو لا يرى الرواية إلا لمن يحفظ ولا يخطئ في حفظه أبداً، قال ابن الصلاح: «شدّد قوم في الرواية فأفرطوا، وتساهل فيها آخرون ففرّطوا، ومن التشدد، مذهب من قال: لا حجّة إلا فيما رواه الراوي من حفظه، وذلك مروي عن مالك وأبي حنيفة».





الجرح والتعديل لدى أبي حنيفة

والأغلب أنه لا يوجد للإمام أبي حنيفة رحمه الله تأليف في الحديث، وإنما هناك مسانيد أُلِّفتْ بعد وفاته، وليست من تأليفه، وكذلك ليس للإمام مؤلَّف في الجرح والتعديل، وإنما له أقوال مبثوثة تلقاها منه علماء هذا الفن بالقبول، وعملوا بها. من ذلك:

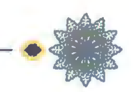
قول أبي حنيفة: «ما رأيتُ أكذب من جابر الجعفي، ولا أفضل من عطاء بن أبي رباح».

وقوله: «طلق بن حبيب كان يرى القَدَر». (أي له رأي منحرف في مسألة القضاء والقدر).

وقوله: «زياد بن عيّاش مجهول». (أي غير معروف في شخصه أو مدى الثقة به).

وسُئل أبو حنيفة عن الأخذ عن الثوري، فقال لمن سأله: «اكتب عنه فإنه ثقة، ما خلا أحاديث أبي إسحاق عن الحُريث، وحديث جابر الجعفي».

وقول سفيان بن عيينة: «أولَ من أقعدني للحديث بالكوفة أبو حنيفة، أقعدني في الجامع، وقال: هذا أعلم الناس بحديث عمرو بن دينار، فحدثتهم».



عدم الرواية عن الشيعة وعلماء السلاطين

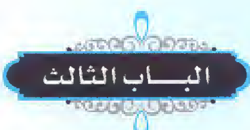
وللإمام أبي حنيفة أقوال وآراء في أصول الحديث، كانت موضع عناية علماء الحديث واهتمامهم، وهي مبثوثة في كتب المصطلح.

روى الخطيب بإسناده، عن عمرو بن إبراهيم قال: «سمعت ابن المبارك يقول: سأل أبو عصمة الإمام أبا حنيفة: بمن تأمرني أن أسمع الآثار؟

قال: من كل عدلٍ في هواه إلا الشيعة، فإن أصل عقائدهم تضليل أصحاب محمد ﷺ.

ومن أتى السلطان طائعاً (أي العلماء أتباع السلاطين). أما إني لا أقول إنهم يكذبونهم أو يأمرونهم بما لا ينبغي، ولكن وطّؤوا لهم (أي هؤلاء العلماء مهدوا للحكام) حتى انقادت العامة بهم، فهذان لا ينبغي أن يكونا من أئمة المسلمين».





رواية المستور



المستور: هو الشخص المعروف بشخصه، ولكننا لا نعرف مدى صلاحه، فإن كنا لا نعرف عنه شراً، فهو مستور الحال، ولما كان الأصل عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله أن الأصل في المسلم أنه ثقة وعدل؛ أجاز الرواية عن مستور الحال..

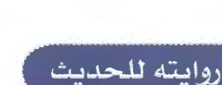
قال السرخسي: «روى الحسن عن أبي حنيفة أنه –أي المستور- بمنزلة العدل في رواية الأخبار، لثبوت العدالة له ظاهراً بالحديث عن رسول الله ﷺ: المسلمون عدول، بعضهم على بعض».

الاحتجاج بالمرسل



وعلى هذا الأصل كذلك أجاز رواية الحديث المرسل (الذي سقط منه صحابي) لأن الصحابة كلهم عدول..

قال النووي: «ثم المرسل حديث ضعيف عند جماهير المحدثين، والشافعي، وكثير من الفقهاء، وأصحاب الأصول، وقال مالك وأبو حنيفة في طائفة: صحيح».

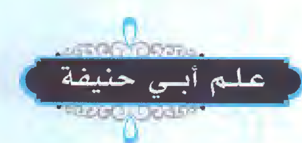




روايته للحديث

وأما الاحتجاج بحديث الإمام أبي حنيفة، فقد اختلف نقّاد الحديث في ذلك، فمنهم من قَبِل حديثه، ورأى أنه حجة فيما يرويه، ومنهم من ضعفه، ولم يحتج بحديثه، وقالوا: لكثرة غلطه، وعدم ضبطه.

قال الذهبي: «ولم يصرف الإمام همته لضبط الألفاظ والأسانيد، وإنما كانت همته القرآن والفقه، وكذلك حال كل من أقبل على فن، فإنه يقصِّر عن غيره، من ثم ليَّنوا حديث جماعة من أئمة الفقهاء كحفص، وقالون، وحديث جماعة من الزهّاد كفرقد السبخي، وشقيق البلخي، وحديث جماعة من النحاة، وما ذاك لضعف في عدالة الرجل، بل لقلة إتقانه للحديث، ثم هو أنبل من أن يكذب».

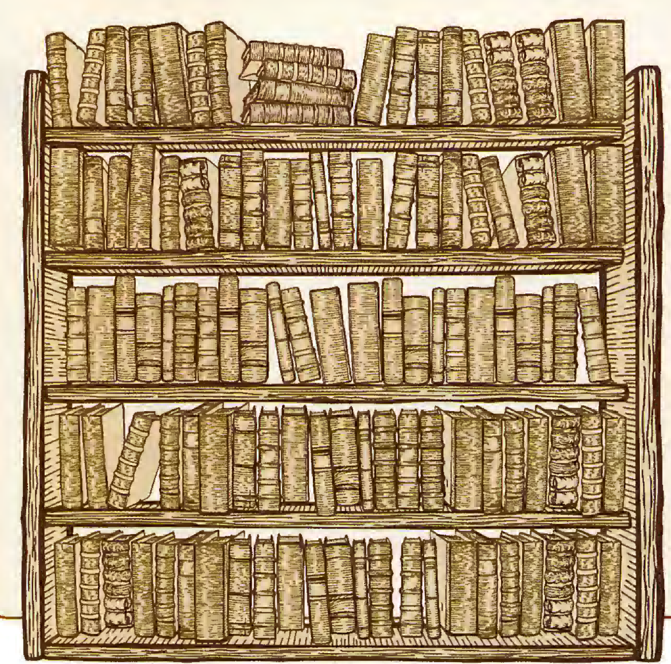




فقهاء الرأي ضعاف في الحديث

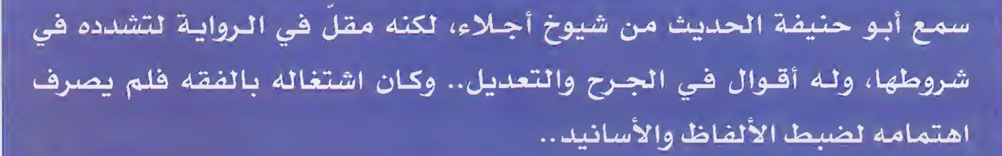
فأبو حنيفة قد اشتغل بالفقه، ولم ينصب نفسه للحديث، وضبط الألفاظ والأسانيد.

قال ابن رجب: «قاعدة الفقهاء المعتنين بالرأي (حتى يغلب عليهم الاشتغال به) لا يكادون يحفظون الحديث كما ينبغي، ولا يقيمون أسانيده، ولا متونه، ويخطؤون في حفظ الأسانيد كثيراً، ويروون المتون بالمعنى، ويخالفون الحفاظ في ألفاظه، ربما يأتون بألفاظ تشبه ألفاظ الفقهاء المتداولة بينهم، وقد اختصر شريك حديث رافع بن خديج في المزارعة، فأتى به بعبارة أخرى، فقال: «من زرع في أرض قوم بغير إذنهم، فليس له من الزرع شيء، وله نفقته».



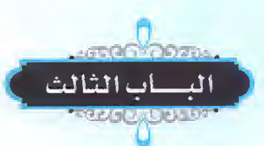
هذا يشبه كلام الفقهاء وليس حديث النبي ﷺ..

ثم قال: «وكذلك كانت رواية الحديث لدى فقهاء الكوفة، ورأسهم حماد ابن أبي سليمان (أستاذ أبي حنيفة) وأصحابه وأتباعهم، وكذلك الحكم ابن عتيبة، وعبد الله بن نافع الصائغ صاحب مالك، وغيرهم».



سمع أبو حنيفة الحديث من شيوخ أجلاء، لكنه مقلّ في الرواية لتشدده في شروطها، وله أقوال في الجرح والتعديل.. وكان اشتغاله بالفقه فلم يصرف اهتمامه لضبط الألفاظ والأسانيد..

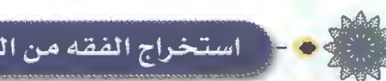




2 فقهه في الحديث



شُغِل الإمام -رحمه الله- عن رواية الحديث بفقه الحديث، وفهمه وجمع نصوصه، في سبيل تقرير مسائله، وتوحيد أحكامه، وكذلك كان أجلاء الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما يشتغلون بالعمل عن الرواية، حتى قلّت رواياتهم بالنسبة إلى كثرة اطلاعهم، وكذا الإمام مالك والشافعي، لم يرويا إلا القليل بالنسبة إلى ما سمعا، كل ذلك لاشتغالهم باستخراج المسائل من الأدلة..



استخراج الفقه من الحديث

الأعمش

لقد كان الإمام -رحمه الله تعالى-، جيد الفهم عظيمه، وعندما يبلُغه حديث عن رسول الله ﷺ، يفتح الله عليه فيه ما يغيب عن بعض شيوخه فضلاً عن تلاميذه، روي أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى كان عند الأعمش إذ سأله رجل، فقال الأعمش لأبي حنيفة: ما تقول في كذا وكذا؟

فقال أبو حنيفة: كذا وكذا.

فقال الأعمش: ومن أين لك هذا؟

قال أبو حنيفة: أنت حدثتنا عن أبي صالح عن أبي هريرة، وعن أبي وائل عن عبد الله، وعن أبي إياس عن أبي مسعود الأنصاري، قال رسول الله ﷺ كذا، وحدثتنا عن أبي مجلز عن حذيفة عنه ﷺ كذا، وحدثتنا عن أبي الزبير عن جابر كذا، وحدثتنا عن يزيد الرقاشي عن أنس عنه ﷺ كذا.

قال الأعمش: حسبك!! ما حدثتك في مائة يوم حدثتني في ساعة، ما علمتُ أنك تعمل بهذه الأحاديث! يا معشر الفقهاء، أنتم الأطباء ونحن الصيادلة، وأنتَ أيها الرجل أخذتَ بكلا الطرفين.

وقال الأعمش لأبي حنيفة يوماً: لو كان العلم بالطلب واللُّقى، لكنتُ أفقه منكَ، ولكنه عطاء من الله تعالى.

وقال إسرائيل: كان نِعْمَ الرجل نعمان، ما كان أحفظه لكل حديث فيه فقه، وأشدّ فحصه عنه، وأعلم بما فيه من الفقه، وكان قد ضبط عن حماد فأحسنَ الضبط.

وقال أبو يوسف رحمه الله تعالى: «ما رأيتُ أعرف بتفسير الحديث، ومواضع النكت التي فيه من أبي حنيفة».

كنز العلم

قال علي بن هاشم: كان أبو حنيفة كنز العلم، ما كان يصعب من المسائل على أعلم الناس فهو كان سهلاً على أبي حنيفة.

وقال زُفر - رحمه الله تعالى-: كان كبراء المحدثين مثل زكريا بن أبي زائدة، وعبد الملك بن أبي سليمان، والليث ابن أبي سليم، ومطرف بن طريف، وحصين بن عبد الرحمن، وغيرهم يختلفون إلى أبي حنيفة، ويسألونه عما ينوبهم من المسائل ويشتبه عليهم من الحديث.

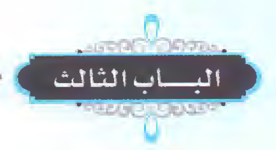
وعن تلميذه محمد بن الحسن قال: سمعت أبا يوسف يقول: كنا نكلِّم أبا حنيفة في باب من أبواب العلم، فإذا قال بقولٍ واتفق عليه أصحابه، أو قال: اتفقنا عليه، درتُ على مشايخ الكوفة، هل أجد في تقوية قوله حديثاً أو أثراً، فربما وجدتُ الحديثين أو الثلاثة، فآتيه بها، فمنها ما يقبله، ومنها ما يرده، ويقول: هذا ليس بصحيح أو ليس بمعروف، وهو موافق لقوله، فأقول: وما علمُك بهذا؟ فيقول: أنا عالم بعلم أهل الكوفة.

وقال أبو يوسف -رحمه الله تعالى-: كنا نختلف في المسألة، فنأتي أبا حنيفة فنسأله، فكأنما يخرجها من كمه فيدفعها إلينا.

وقال أبو حنيفة -رحمه الله تعالى-: مثل من يطلب الحديث ولا يتفقه، مثل الصيدلاني الذي يجمع الأدوية، ولا يدري لأيِّ داء هي، حتى يجيء الطبيب، وهكذا طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه.

انشغل أبو حنيفة بالعمل عن الرواية، وكان عظيم الفهم لحديث رسول الله ﷺ، ومن أعرف الناس بتفسير الأحاديث، وأعلمهم بالأحاديث التي فيها فقه..

زفر بن الهذيل



3 أقوال المحدثين فيه

ألّف الإمام الحافظ أبو عبد الله الذهبي كتاباً في طبقات الحفّاظ، وجعل فيه ترجمة محدودة للإمام وصاحبيه، مما يدل على أن الإمام الذهبي يعد الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى من الحفّاظ، قال الذهبي في مقدمة طبقاته: هذه تذكرة بأسماء معدّلي حملة العلم النبوي، ومَن يرجع إلى اجتهادهم في التوثيق والتصحيح والتزييف.

فهذه شهادة من الإمام الذهبي على أن الإمام رحمه الله حافظ مجتهد في الحديث، معدَّل، حامل للعلم النبوي.

وقال علي بن المديني: أبو حنيفة روى عنه الثوري، وابن المبارك، وحماد ابن زيد، وهشيم، ووكيع بن الجرّاح وعبّاد بن العوام، وجعفر بن عون، وهو ثقة لا بأس به.

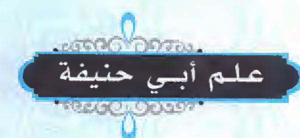
قال يزيد بن هارون: أدركتُ ألف رجل، وكتبتُ عن أكثرهم، فما رأيتُ فيهم أفقه ولا أورع ولا أعلم من خمسة، أولهم: أبو حنيفة.

وقال مكي بن إبراهيم –أحد شيوخ البخاري–: كان أبو حنيفة يصدق في قوله وفعله.

وقال أبو داود السجستاني صاحب السنن: إن أبا حنيفة كان إماماً، وإن مالكاً كان إماماً، وإن الشافعي كان إماماً.



أهل الكوفة يتحدثون عن علم أبي حنيفة





يحيى بن معين وأبو حنيفة

الإمام يحيى بن معين من أعظم العلماء في الرواية لحديث النبي ﷺ، فهو إمام الجرح والتعديل..

قال ابن عبد البر: سُئل يحيى بن معين وعبد الله بن أحمد الدورقي: أيُسمع من أبي حنيفة؟

فقال يحيى بن معين: هو فقيه، ما سمعتُ أحداً ضعفه، هذا شعبة بن الحجاج يكتب إليه أن يحدّث بأمره، وشعبة شعبة. (أي يكفي لدى يحيى بن معين لتوثيق أبي حنيفة أن يروي عنه شعبة).

وقيل ليحيى بن معين: يا أبا زكريا،أبو حنيفة كان يصدق في الحديث؟ فقال: نعم صدوق.

وسُئل يحيى بن معين: هل حدّث شعبة عن أبي حنيفة؟ قال: نعم، كان أبو حنيفة صدوقاً في الحديث والفقه، مأموناً على دين الله، وأثنى عليه.

وذكر الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب: قال محمد بن سعد العوفي: سمعتُ ابن معين يقول: كان أبو حنيفة ثقة لا يحدِّث إلا بما يحفظه، ولا يحدث بما لا يحفظ.





أعلمُ أهل زمانه

قال يحيى بن سعيد القطان: إنه والله لأعلمُ هذه الأمة بما جاء عن الله ورسوله.

وقال مكي بن إبراهيم: كان أبو حنيفة زاهداً، عالماً، راغباً في الآخرة، صدوق اللسان، أحفظ أهل زمانه.

وقال الثوري رحمه الله تعالى: إن الذي يخالف أبا حنيفة يحتاج إلى أن يكون أعلى منه قدراً، وأوفر علماً، وبعيد ما يوجد ذلك!

وقال مكي بن إبراهيم -شيخ البخاري-: كان أبو حنيفة أعلم أهل زمانه.

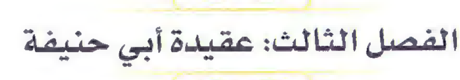
أثنى كثير من كبار علماء الحديث على أبي حنيفة، وقــالـوا: هــو ثـقــة صــدوق فــي الحـديـث مـأمـون على دين الله، لا يحدِّث إلا بما يحفظ..



الفصل الثالث 3

عقيدة أبي حنيفة





الفصل الثالث: عقيدة أبي حنيفة

1 الإيمان بالقلب واللسان

جاء في الفقه الأكبر لأبي حنيفة عن حقيقة الإيمان ما نصه: «الإيمان هو الإقرار والتصديق».

ويقول في الإسلام: «هو التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى».

فأبو حنيفة لا يعتبر الإيمان هو التصديق بالقلب وحده، بل حقيقته عنده: أنه تصديق بالقلب وإقرار باللسان، فهو يتلاقى مع الإسلام تلاقي اللازم بالملزوم، فلا يكون إيمان بلا إسلام، ولا إسلام بلا إيمان.



لا يكفي الإيمان بالقلب

جرت مناقشة بين أبي حنيفة، وجهم بن صفوان (وهو زعيم لفرقة منحرفة)، يتضح فيها رأي أبي حنيفة، ويبين حجته وقدرته في المنطق:

جاء في المناقب للمكي: «أن جهم بن صفوان قصد أبا حنيفة للكلام، فلما لقيه قال: يا أبا حنيفة، أتيتك لأكلمك في أشياء هيأتها لك.

فقال أبو حنيفة: الكلام معك عار، والخوض فيما أنت فيه نار تتلظى.

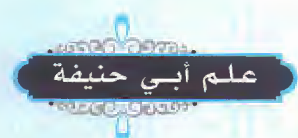
قال جهم: فكيف حكمتَ عليَّ بما حكمت، ولم تسمع كلامي، ولم تلقني؟

قال أبو حنيفة: بلغني عنك أقاويل لا يقولها أهل الصلاة.

قال جهم: أفتحكم عليّ بالغيب؟

قال أبو حنيفة: اشتهر ذلك عنك، وظهر عند العامة والخاصة، فجاز لي أن أحقق ذلك عليك.

فقال جهم: يا أبا حنيفة، لا أسألك عن شيء إلا عن الإيمان.



قال له أبو حنيفة: أو لم تعرف الإيمان إلى الساعة حتى تسألني عنه؟

قال جهم: بلى، ولكن شككتُ في نوع منه.

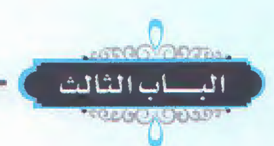
قال أبو حنيفة: الشك في الإيمان كفر.

فقال جهم: لا يحق لك إلا أن تبين لي، من أي وجه يلحقني الكفر.

قال أبو حنيفة: سَلْ.

فقال جهم: أخبرني عمن عرف الله بقلبه، وعرف أنه واحد لا شريك له ولا ند، وعرفه بصفاته، وأنه ليس كمثله شيء، ثم مات قبل أن يتكلم بلسانه، أمؤمناً مات أم كافراً؟

مناقشة مع الجهم بن صفوان



قال: كافر من أهل النار، حتى يتكلم بلسانه ما عرف بقلبه.

قال جهم: وكيف لا يكون مؤمناً، وقد عرف الله بصفاته؟

فقال أبو حنيفة: إن كنتَ مؤمناً بالقرآن، وتجعله حجة كلمتك به، وإن كنتَ لا تؤمن به، ولا تجعله حجة، كلمتكَ بما تكلمُ به من خالف ملة الإسلام. (أي بالمنطق).

قال جهم: أؤمن بالقرآن وأجعله حجة.

فقال أبو حنيفة: قد جعل الله تبارك وتعالى الإيمان في كتابه بجارحتين؛ بالقلب واللسان.

فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:83-85).

فأوصلهم إلى الجنة بالمعرفة والقول، وجعلهم مؤمنين بالجارحتين، بالقلب واللسان.

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ (البقرة: 136-137)

وقال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾(الفتح: من الآية 26).

وقال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾(الحج: من الآية 24).

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(فاطر: من الآية 10).

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾(إبراهيم: من الآية 27).

وقال النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» فلم يجعل الفلاح بالمعرفة دون القول.

وقال النبي ﷺ: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه كذا..» ولم يقل: يخرج من النار من عرف الله، وكان في قلبه كذا.

ولو كان القول لا يحتاج إليه، ويكتفى بالمعرفة، لكان من ردّد: «الله» بلسانه، وأنكره بلسانه إذا عرفه بقلبه مؤمناً،

ولكان إبليس مؤمناً، لأنه عارف بربه، يعرف أنه خالقه ومميته، وباعثه، ومغويه، قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ (الحجر: من الآية 93).

وقال: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الأعراف:14)

وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: من الآية 12).

ولكان الكفار مؤمنين بمعرفتهم ربهم، إذ أنكروا بلسانهم، قال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: من الآية 14).

فلم يجعلهم مع استيقانهم بأن الله واحد مؤمنين مع جحدهم بلسانهم.

وقال عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل: 38)

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ (يونس: 31-32).

فلم تنفعهم معرفتهم مع إنكارهم.

وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: من الآية 146).

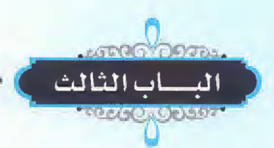
فلم تنفعهم المعرفة مع كتمانهم أمره وجحودهم به.

فقال له جهم: قد أوقعت في خلدي شيئاً، فسأرجع إليك. (أي جعلتني أفكر في أمر لم أفكر به من قبل، فدعني حتى أتأمل فيه ثم أرجع إليك).



بيّن أبو حنيفة حجته في أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، في مناظرة جرت بينه وبين جهم بن صفوان، فذكر آيات وأحاديث، تثبت صحة قوله وأقام فيها الحجة على من قال إن الإيمان بالقلب فقط..

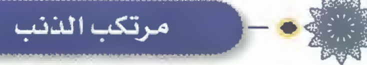




2 الإيمان هو التصديق

الإيمان في نظر أبي حنيفة لا يزيد ولا ينقص، ولذا يعتبر إيمان أهل السماء والأرض واحداً، فقد روي عنه أنه قال: «إيمان أهل الأرض، وأهل السماوات واحد، وإيمان الأولين والآخرين والأنبياء واحد، لأنا كلنا آمنا بالله وحده، وصدقناه، والفرائض كثيرة مختلفة، وكذا الكفر واحد، وصفات الكفار كثيرة، وكلنا آمنا بمن آمن به الرسل، لكن لهم علينا الفضل في الثواب في الإيمان وجميع الطاعات، لأنهم كما فضلوا في الطاعات، كذلك فضلوا في جميع الأمور في الثواب وغيره، ولم يظلمنا ربنا في ذلك لأنه لم ينقص من حقنا، بل زاد لهم ذلك إعظاماً لهم، لأنهم القادة للناس، وأمناء الله تعالى، ولا يساويهم في الرتبة أحد، ولأن الناس أدركوا الفضل بهم، وكل من يدخل الجنة يدخل بدعائهم».

فحقيقة الإيمان وهي التصديق، لا تزيد ولا تنقص عند أبي حنيفة، ولكن قد تجيء الزيادة في الفضل من ناحية أخرى لزيادة المؤمن به.



مرتكب الذنب

وقد بنى أبو حنيفة على اعتبار الإيمان أنه التصديق، وأنه لا يزيد ولا ينقص، ألا يكفِّر العصاة لعصيانهم، لوجود أصل الإيمان عندهم، إذ الإيمان قد توافر لهم، وإن لم يعملوا، ويعد العصاة مؤمنين، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسى الله أن يتوب عليهم.

جاء في الفقه الأكبر عن أبي حنيفة: «لا نكفِّر مسلماً بذنب، وإن كانت كبيرة، إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان».

فرقٌ كبير عن المرجئة

وضّح أبو حنيفة الفرق بين مذهبه وبين المرجئة (وهي فرقة ضالة منحرفة)

فقال: «لا نقول: إن المؤمن لا تضره الذنوب.

ولا نقول: إنه لا يدخل النار.

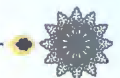
ولا نقول: إنه يخلد فيها، وإن كان فاسقاً بعد أن يخرج من الدنيا مؤمناً.

ولا نقول: إن حسناتنا مقبولة، وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة.

ولكن نقول: من عمل حسنة بجميع شرائطها، خالية من العيوب المفسدة، ولم يبطلها الكفر والردة والأخلاق السيئة، حتى خرج من الدنيا مؤمناً، فإن الله تعالى لا يضيعها، بل يقبلها منه، ويثيبه عليها.

وما كان من السيئات دون الشرك والكفر، ولم يتب عنها صاحبها، حتى مات مؤمناً، فإنه في مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه ولم يعذبه بالنار أصلاً».





حكم مرتكب الكبيرة

الخوارج يرَون أن مرتكب الكبيرة كافر، أما أبو حنيفة وأهل السنة فيرون أنه مذنب وأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ولكن لا يُحكم عليه بالكفر، وقد حدث نقاش بين أبي حنيفة وبين الخوارج، جاؤوا يريدون مناظرة أبي حنيفة، فقالوا: جنازتان على باب المسجد، أما إحداهما، فجنازة رجل شرب الخمر حتى كضته وحشرج بها فمات، والأخرى جنازة امرأة زنت وحملت من الزنا، حتى إذا خشيت الفضيحة قتلت نفسها، ما حكمها؟

فقال أبو حنيفة: من أي المِلَل كانا، أكانوا من اليهود؟

قالوا: من الملة التي تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

قال: أخبروني عن هذه الشهادة، أهي من الإيمان ثُلُث، أو ربع أو خُمس؟

فقالوا: إن الإيمان لا يكون ربعاً ولا ثلثاً ولا خمساً.

قال: فكم هي من الإيمان؟

قالوا: الإيمان كله.

قال: إذا كان هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وهذه الشهادة عندكم تساوي الإيمان كله، فما سؤالكم إياي عن قوم زعمتم وأقررتم أنهم كانوا مؤمنين؟!

فأقام عليهم الحجة من مذهبهم، فأسقط في أيديهم، وقالوا: دع عنك هذا، أمِن أهل الجنة هما أم من أهل النار؟

قال أبو حنيفة: أما إذا أبيتم، فإني أقول فيهما ما قاله نبي الله إبراهيم عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (إبراهيم: من الآية 36)

وما قاله نبي الله عيسى عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرماً منهم:

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (المائدة: 118)

وأقول فيهما ما قاله نبي الله نوح عليه السلام:

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ. إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ. وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الشعراء:111-114).



الأمر لله



أبو حنيفة رحمه الله يعلمنا منهج الإسلام، في التعامل مع هؤلاء الناس، منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، منهج الدعوة والرحمة؛ فالمسلمون أولى بنشر الحق، بالرحمة والأدب واللطف، نحن لا نقسو على أحد من البشر إلا بأمر الله تعالى، فالأمر لله من قبل ومن بعد، هو الذي يحكم، نحن لسنا قضاة، بل نحن دعاة.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ هو الذي يقضي سبحانه

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، إذا شاء أن يغفر لهم، فالله سبحانه وتعالى حكيم، عزيز، أمره لا يُردّ، وقراره لا يخطئ، فمَن نحن حتى نتألّه على الله؟! مَن نحن حتى نقول لهؤلاء الذين نحتقرهم بسبب ذنوبهم: «لن يؤتيهم الله خيراً»؟ هل نعلم بما في نفوسهم؟

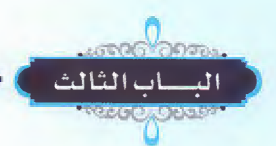
﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

(هود: من الآية 13).

هذا منهج الأنبياء، فيا ليتنا نقتدي بالأنبياء، وليتنا نفهم هذا الدين كما فهمه الأئمة الأعلام.



حقيقة الإيمان وهي التصديق لا تزيد ولا تنقص عند أبي حنيفة. وهو لا يكفّر العصاة لعصيانهم، كما لا يكفّر مرتكب الكبيرة بل يقول: هو مؤمن عاص، وأمره لله. إن شاء عذبه وإن شاء غفر له..

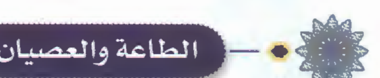


3 القضاء والقدر

كان أبو حنيفة رحمه الله ثاقب النظر، وكان يمتنع عن الخوض في القدر، ويحث أصحابه على عدم الخوض فيه، وقد دار حوار لطيف بين أبي حنيفة وبين يوسف بن خالد السمتي الذي كان يميل إلى المعتزلة، وكان قدم البصرة ليحاور علماءها في مسألة القدر، فذهبوا به إلى أبي حنيفة، وبدأ الحوار.

قال السمتي لأبي حنيفة: ما تقول أنت فيما اختلفوا فيه من القَدَر؟

فقال الإمام: أهل البصرة وأهل الكوفة اختلفوا في القدر على ما علمت، وهذه مسألة قد استصعبت على الناس، فأنّى يطيقونها، هذه قضية مقفلة قد ضل مفتاحها، فإن وُجد مفتاحها عُلم ما فيها، ولم يُفتح إلا بمخبر من الله، يأتي بما عنده، ويأتي ببينة وبرهان.



الطاعة والعصيان

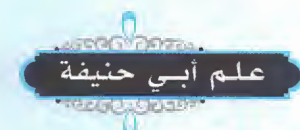


ولكن هنا مسألة، وهي: أتقع الطاعة والعصيان بمشيئة العبد أم بمشيئة الرب؟

فيجيب أبو حنيفة عن هذه المسألة، إجابة مشتقة من طاعة المعرفة الإنسانية المشاهدة، ومن أوصاف الجلال والكمال التي تليق بذات الله وكمال قدرته، وشمول علمه، فيقول:

«إني أقول قولاً متوسطاً، لا جبر ولا تفويض ولا تسليط، والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقون، ولا أراد منهم ما لا يعلمون، ولا عاقبهم بما لم يعلموا، ولا سألهم عما لم يعلموا، ولا رضي لهم بالخوض فيما ليس لهم بعلم، والله أعلم بما نحن فيه».

هذا كلام المتفكر الذي لا يريد أن يخوض خشية الغرق، وغلبة الأمواج المتلاطمة، فهو يعطي الإرادة الإنسانية حريتها، لأنه هو الأمر المحسوس، وغيره ليس بملموس، وهو يعطي الله تعالى ما يليق به.

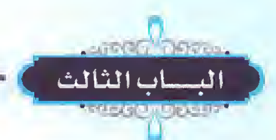


الخلاصة

إن أبا حنيفة كان يخوض في هذه المسألة بقدر محدود لا يتجاوزه، وهو في هذا يؤمن بالقدر خيره وشره، وشمول علم الله وإرادته وقدرته للأكوان، وأنه لا شيء من أعمال الإنسان بغير إرادته، وأن طاعات الإنسان ومعاصيه منسوبة إليه، وله فيها اختيار وإرادة، وأنه بذلك يُسأل ويُحاسب، ولا يُظلم مثقال ذرة من خير أو شر، وهي عقيدة قرآنية تستمد من محكم الكتاب، وإن ناقش القدريين فلكي يقطع عليهم السبيل، ويجعل كيدهم في تضليل.



أبو حنيفة يؤمن بالقدر خيره وشره، لكنه امتنع عن الخوض في هذه المسألة، ونهى أصحابه عن الخوض فيها..



4 خلق القرآن

في عصر أبي حنيفة ابتدأ بعض الناس يشيع بين المسلمين القول في خلق القرآن، ويقرِّر أنه مخلوق، وإن كان معجزة النبي ﷺ، وأول من عرف بهذا القول: الجعد بن درهم، وقد قتله خالد بن عبد الله القسري والي خراسان وكان يرى ذلك الرأي كذلك الجهم بن صفوان.

وأما موقف أبي حنيفة في هذه المسألة، فيتبين من هذين الخبرين:

جاء في تاريخ بغداد: «وأما القول بخلق القرآن، فقد قيل: إن أبا حنيفة لم يكن يذهب إليه».

وجاء فيه: «تكلّم في القرآن بشر المريسي وابن أبي دؤاد، فهؤلاء شانوا (خالفوا) أصحاب أبي حنيفة».

يحدث أصحابه وهو حزين مخافة أن يكونوا قد تكلموا في خلق القرآن



وجاء في الانتقاء: أن أبا يوسف قال: «جاء رجل إلى مسجد الكوفة يوم الجمعة يسألهم عن القرآن، وأبو حنيفة غائب بمكة، فاختلف الناس في ذلك، والله ما أحسبه إلا شيطاناً تصوّر في صورة الإنس، حتى انتهى إلى حلقتنا، فسألَنا عنها، وسأل بعضنا بعضاً، وأمسكنا عن الجواب، وقلنا: ليس شيخنا حاضراً، ونكره أن نتقدم بكلام، حتى يكون هو المبتدئ، فلما قدم أبو حنيفة، قلنا له بعد أن تمكنا منه -رحمه الله-: إنه وقعت مسألة، فما قولك فيها؟

فكأنه كان في قلوبنا، وأنكرنا وجهه، وظن أنه وقعت مسألة معينة، وأنا قد تكلمنا فيها بشيء.

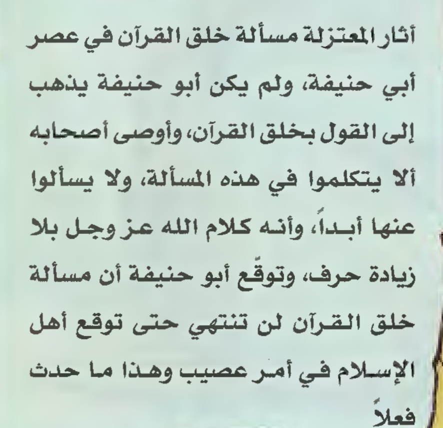
فقال: ما هي؟

قلنا: كذا وكذا. (أي هل القرآن مخلوق أم لا؟)

فأمسك ساكتاً ساعة، ثم قال: فما كان جوابكم فيها؟

قلنا: لم نتكلم فيها بشيء، وخشينا أن نتكلم بشيء فتنكره.

فسري عنه، وقال: جزاكم الله خيراً، احفظوا عني وصيتي: لا تكلموا فيها ولا تسألوا عنها أبداً، انتهوا إلى أنه كلام الله عز وجل، بلا زيادة حرف واحد، ما أحسب هذه المسألة تنتهي حتى توقع أهل الإسلام في أمر لا يقومون ولا يقعدون منه.



أثار المعتزلة مسألة خلق القرآن في عصر أبي حنيفة، ولم يكن أبو حنيفة يذهب إلى القول بخلق القرآن، وأوصى أصحابه ألا يتكلموا في هذه المسألة، ولا يسألوا عنها أبداً، وأنه كلام الله عز وجل بلا زيادة حرف، وتوقّع أبو حنيفة أن مسألة خلق القرآن لن تنتهي حتى توقع أهل الإسلام في أمر عصيب وهذا ما حدث فعلاً

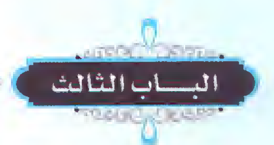


ينهى عن الخوض في خلق القرآن



الفصل الرابع 4

نقل المذهب



الفصل الرابع: نقل المذهب

1 تلاميذ الإمام



أخذ العلم عن الإمام أبي حنيفة كثيرون، من محدثين وفقهاء، ولقد ذكر المزي في تهذيب الكمال طائفة ممن أخذوا العلم عن أبي حنيفة، بلغ عدد من ذكرهم سبعين تلميذاً.

وأبو حنيفة كان يهتم اهتماماً خاصاً بتلاميذه، وكان يعلمهم أنه لا بد من الاهتمام بالعلم، ويجعل العلم أهم من العمل على كسب القوت والرزق، وأنه لا بد أن يبدأ الإنسان بالدراسة أولاً، ويكتفي بالقليل، وبعد ذلك فإن العلم سيهيئ له أسباب الحياة الطيبة بإذن الله.

الذكي الفطن هو الذي ينفق على تعليم أولاده، لأن هذا الذي سيهيئ لهم أسباب الحياة الكريمة، فيقدِّم العلم على طلب الرزق، لأن العلم يعطيك خير الدنيا والآخرة، بل يقدِّم العلم على الزواج، فيقول: ولا تتزوج إلا بعد أن تعلم أنك قادر على القيام بجميع حوائج الزوجة، واطلب العلم أولاً، ثم اجمع المال من الحلال، ثم تزوج، لأنك إن اشتغلت عن طلب العلم في وقت التعلُّم، عجزت عن طلب العلم.



جانب من تلاميذه

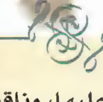


في نمو متواصل

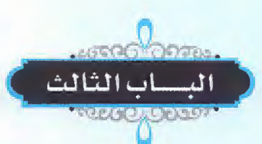
وطريقة أبي حنيفة في درسه تشبه أن تكون دراسة له، لا إلقاء للدروس على تلاميذه، تعرض له المسألة من المسائل، فيلقيها على تلاميذه، ويتجادل معهم في حكمها، وكلٌّ يدلي برأيه، وقد ينتصفون منه في القياس، كما روي عن الإمام محمد، ويعارضونه في اجتهاده، وقد يتصايحون، حتى يعلو ضجيجهم، وبعد أن يقلبوا النظر من كل نواحيه، يدلي هو بالرأي الذي تنتجه هذه الدراسة، ويكون صفوها، فيقرُّ الجميع به ويرضونه، والدراسة على هذا النحو هي تثقيف للمعلم والمتعلم معاً، وفائدتها للمعلم لا تقل عن فائدتها للتلميذ، وإن استمرار أبي حنيفة على ذلك النحو من الدرس، جعله طالباً للعلم إلى أن مات، فكان علمه في نمو متواصل، وفكره في تقدم مستمر.



الطبيب والصيدلاني



وكان إذا عرض له الحديث تعرّف أوجه العلة للأحكام التي يشتمل عليها، وناقشهم، ثم يفرع من المسائل ما يراه متفقاً مع الأصل في العلة، ويعدّ ذلك هو الفقه، حتى كان يقول: «مَثل مَن يطلب الحديث ولا يتفقه، مَثَل الصيدلاني يجمع الأدوية، ولا يدري لأي داء هي، حتى يجيء الطبيب، هكذا طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه، حتى يجيء الفقيه».





الغنى الأكبر

جعل أبو حنيفة من تلاميذه مناظرين، لا متلقين متوقفين، وكان يواسيهم بماله، ويعينهم على نوائب الدهر، حتى أنه كان يزوج من يكون في حاجة إلى الزواج، وليست عنده مؤنته، ويرسل إلى كلِ قدر حاجته، ولقد قال شريك فيه: كان يغني من يعلمه، وينفق عليه وعلى عياله، فإذا تعلم قال: لقد وصلتَ إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام.



مداواة الغرور

وكان ينظر إلى نفوس تلاميذه، فيتعهدها بالرعاية، فإذا وجد في أحدهم إحساساً بالعلم يمازجه غرور، أزال عنه درن الغرور ببعض الاختبارات، يثبت بها أنه لا زال في حاجة إلى فضل من المعرفة يأخذها عن غيره.

يروى أن أبا يوسف تلميذه وصاحبه، قد أحس من نفسه بأنه قد آن له أن يعقد مجلساً يستقل فيه بالدرس، فقال أبو حنيفة لبعض من عنده: اذهب إلى مجلس يعقوب (أبي يوسف) وقل له: ما تقول في قصار (خياط) دفع إليه رجل ثوباً ليقصره بدرهمين، ثم طلب ثوبه، فأنكره القصار، ثم عاد، وطلبه، فدفعه له مقصوراً، أَلَهُ أجرة؟ فإن قال: نعم، فقل له: أخطأت، وإن قال: لا، فقل له: أخطأت.

فصار الرجل إلى أبي يوسف، فسأله.

فقال أبو يوسف: نعم له أجرة، فقال: أخطأت.

فنظر أبو يوسف ساعة، ثم قال: لا، فقال: أخطأت.

فقام أبو يوسف من ساعته لأبي حنيفة، فقال له أبو حنيفة: ما جاء بك إلا مسألة القصار.

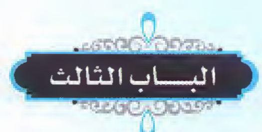
قال أبو يوسف: أجل.. علمني.

قال أبو حنيفة: إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له، لأنه إنما قصره لنفسه، وإن كان قبل غصبه، فله الأجرة، لأنه قصره لصاحبه.

ولعل ذلك كان أمراً ضرورياً للمسلك الذي كان يسلكه في حلقة درسه، فإن رفعه تلاميذه إلى مرتبته يجادلهم، وينتصفون منه، قد يدفع بعضهم إلى الغرور، فيحتاج من يكون موشكاً أن يدلي نفسه بغرورها، إلى من يرشده إلى مواطن نقصه، وحاجته إلى التكميل، وتنبيهه إلى أنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً.

فأبو حنيفة ينظر إلى نفوس تلاميذه، ويتعهدها بالرعاية، فإذا وجد في أحدهم إحساساً بالعلم، يمازجه غرور، أزال عنه دَرَن الغرور ببعض الاختبارات، ترشده إلى مواطن نقصه، وأنه لم يؤتَ من العلم إلا قليلاً، كما فعل مع أبي يوسف.







أنتم مسار قلبي



كما كان يتعهد تلاميذه بالنصيحة، خصوصاً من كان منهم على أهبة افتراق، أو من كان يتوقع له شأناً من الشأن، كوصيته ليوسف بن خالد السمتي، ووصيته لنوح بن أبي مريم الجامع، ووصيته لأبي يوسف، وغيرها.

وفي الجملة لقد جعل أبو حنيفة من تلاميذه نظراء وأصدقاء، وأعطاهم من نفسه، حتى لقد كان يقول لهم: «أنتم مسار قلبي، وجلاء حزني».



تربية التلاميذ

كان أبو حنيفة يهتم بهذه المدرسة التي أنشأها، وبهؤلاء التلاميذ، وكان يؤدبهم أدباً عظيماً، ويبين لهم طريقة التعامل مع العلماء، ومع السلاطين ومع العامة، فأنشأ لهم مدرسة في الأدب.

يقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى لأحد تلاميذه: واذكر الموت، واستغفر لأساتذتك، ومَن أخذت منهم العلم، وداوِم على تلاوة القرآن، وأكثر من زيارة القبور، وأكثر من زيارة المشايخ، وأكثر من زيارة الأماكن المباركة، مكة والمدينة..

يعلمهم أن العلم لا بد أن يصحَب برقة القلب، ومثل هذه العبادات ترقق القلب، ويبين لهم كيف يتعاملون مع الناس ومع عامة الناس، فيقول لهم: تجنبوا الإكثار من الخروج إلى الأسواق، والمشي مع عامة الناس في قارعة الطريق، وإذا تعاملتَ مع كبار السن فانتبه، ولا تمشِ معهم، خاصة إذا كانوا من العامة، لأنك إذا أخرتهم كان عيباً عليك، لأنك أخرت من هو أسن منك، وإذا قدمتهم، قدمت من هو أقل منك علماً.

نصائح عظيمة

ويعلم تلاميذه أيضاً فيقول: تجنّب كثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ولا تُجب من يناديك من خلفك فالبهائم هي التي تُنادى من خلفها.

وكان يذكرهم أن يتأنوا ويتبصروا قبل الزواج، ويتزوجوا من خيرة النساء.

وينصحهم بأخلاق العلماء، فيقول: تجنب البخل والطمع والكذب، ويأمرهم بتقوى الله تعالى، فيقول لأحد تلاميذه: أكثر ذكر الله تعالى فيما بين الناس، ليتعلموا ذلك منك، واتخذ لنفسك ورداً خلف الصلوات، تقرأ فيه القرآن، وتذكر الله تعالى، وتشكره على ما أودعك من الصبر، وما أولاك من النعم، واتخذ لنفسك أياماً معدودة من كل شهر تصوم فيها، يقتدي غيرك بك في ذلك، ولا ترضَ لنفسك من العبادات بما ترضى به العامة.





تلاميذ متميزون

نصائح عظيمة، ومدرسة عظيمة، أنتجت نِتاجاً غير عادي، أنتجت علماء نشروا العلم، وخلّدوا هذه المدرسة، علماء بعضهم كان تلميذاً مصاحباً لأبي حنيفة، والتزم معه، ويُقال إن هؤلاء الملازمين له كانوا ستة وثلاثين، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء، وستة يصلحون للفتوى، واثنان يصلحان لتأديب القضاة وأرباب الفتوى هما أبو يوسف وزُفر.

أي أن له ثمانية تلاميذ كلهم علماء مجتهدون، فأي أجر عظيم للإمام الأعظم أبي حنيفة الذي خرّج للأمة ثمانية علماء مجتهدين، غير الذين يصلحون أن يفتوا الفتاوى التقليدية، ويقضوا بين الناس، لذلك كانت مدرسة أبي حنيفة من أجلّ المدارس في تخريج العلماء.

سأل المزني – وهو من أصحاب الشافعي – رجلاً من فقهاء العراق: ما تقول في أبي حنيفة؟

قال: سيّدهم.

قال المزني: فأبو يوسف؟

قال: أتبعهم للحديث.

قال المزني: فمحمد بن الحسن؟

قال: أكثرهم تفريعاً.

قال المزني: فزُفر؟

قال: أحدّهم قياساً.

وهؤلاء الثلاثة: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وزُفر بن الهذيل، هم أشهر تلاميذ أبي حنيفة.



1 أبو يوسف

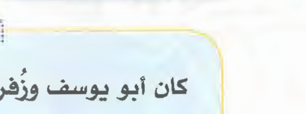
هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري نسباً، والكوفي منشأ وتعلماً ومقاماً، ولد سنة 113 وتوفي سنة 182هـ.

رفع العلمُ قدرَه، ورفع الفقهُ شأنَه، كان تلميذاً فقيراً، فصار أستاذاً مجتهداً في العلم.

وصل إلى مرتبة قاضي القضاة في زمن الرشيد، وهو أول من سُمّي بقاضي القضاة، وكان قد تولى القضاء في عهد هارون الرشيد، وقبله عند الهادي وعند المهدي.

كان في بداية أمره تلميذاً للقاضي ابن أبي ليلى، فما استطاع هذا القاضي أن يكسب قلبه.

وكان أبو يوسف شديد الذكاء، وشديد الحب للعلم، عظيم الفطنة، فلما حضر جلسات أبي حنيفة، فإذا أبو حنيفة يشمله برعايته، وينفق عليه وعلى أهله، ولم يكن تلميذاً له فقط بل ابناً، ولما وجد من فطنته وذكائه هذه الحدة، جعله كاتب الحلقة عنده.



أبو يوسف الرئيس

كان أبو يوسف وزُفر أفضل تلاميذ أبي حنيفة، وكانا كثيرا الجدل، يتناقشان فيما بينهما في حضرة أبي حنيفة، وهذا من منهج أبي حنيفة، أنه كان يسمح لهم بهذا النقاش والجدل، ما كان فقط يلقي الدرس، بل يستمع ويتركهم يتحاورون، وفي النهاية يحكم.

يروي حمّاد بن أبي حنيفة: أنه رأى أباه يوماً، عن يمينه أبو يوسف، وعن يساره زُفر، وهما يتجادلان في مسألة، كلما قال زُفر قولاً أفسده أبو يوسف، وكلما قال أبو يوسف قولاً أفسده زُفر، وبقيا يتجادلان من الفجر إلى وقت صلاة الظهر، وكان أبو حنيفة مسروراً بهذه القدرة العلمية التي عند تلميذيه، فلما أذّن المؤذن لصلاة الظهر، رفع أبو حنيفة يده، وضرب بها على فَخذ زُفر، وقال: لا يُطمع في رئاسة بلدة فيها أبو يوسف، وحكم لأبي يوسف بالنصر في هذا النقاش.



توجيه خاص لأبي يوسف

ومن الوصايا التي أوصاها أبو حنيفة لتلميذه أبي يوسف، قوله: أقبِلْ على متفقهتك (تلاميذك) كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً، لتزيدهم رغبةً في العلم، ومَن ناقشك من عامة الناس ومن السوقة، فلا تناقشه، فإنه يُذهب ماء وجهك، ولا تحتشم أحداً عند ذكر الحق، ولو كان سلطاناً (أي لا تُجامل أحداً في الحق) وأمره أن يكثر من العبادة وذكر الموت.

مناقشة علمية بين زفر وأبي يوسف



قضية ضد الخليفة

ذُكر أنه كانت خصومة بين الخليفة الهادي وبين أحد الرعية حول بستان أخذه الخليفة وفق شبهة في ملكية البستان، ومن الصعوبة أن تُرفع قضية ضد الخليفة، لكنها رُفعت، ولا بد للقاضي أن يحكم فيها، وكان الظاهر في القضية أن الحكم فيها للأمير، لكن لما دقق القاضي في الأمر وجده خلاف ذلك، فأراد أن يحكم دون أن يُحرج الخليفة، وهذا من الأدب، وهو مطلوب في التعامل مع الحكام والسلاطين، إذا أمكن الوصول إلى الحق دون أذى، وبدون توتر.

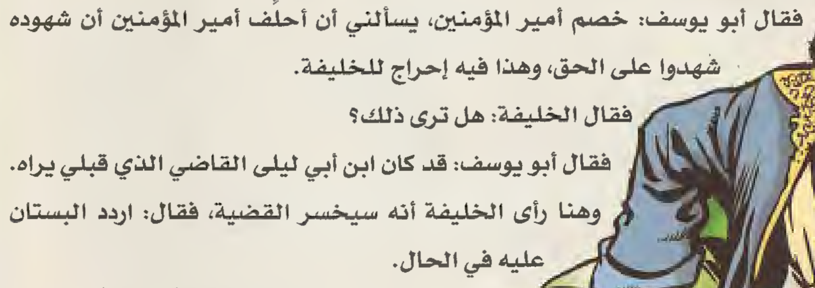
فانتظر القاضي أبو يوسف إلى أن سأله الخليفة: ما صنعتَ في الأمر الذي يُتنازع إليك فيه؟

فقال أبو يوسف: خصم أمير المؤمنين، يسألني أن أحلِّف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على الحق، وهذا فيه إحراج للخليفة.

فقال الخليفة: هل ترى ذلك؟

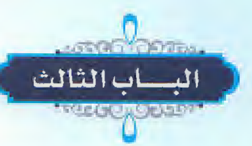
فقال أبو يوسف: قد كان ابن أبي ليلى القاضي الذي قبلي يراه.

وهنا رأى الخليفة أنه سيخسر القضية، فقال: اردد البستان عليه في الحال.



ونجد أن أبا يوسف اتخذ منهجاً لطيفاً، بخلاف أبي حنيفة، فأبو حنيفة كان منهجه شديداً، رفض القضاء ووقف موقفاً صارماً ضد الدولة، فهما منهجان، منهج القاضي اللطيف الذي وقف مع الدولة، وأعانها على إقامة الحق، ومنهج الرفض والشدة مع الدولة التي تتعدى الحق.







فتواه لهارون الرشيد

هارون الرشيد

لعل أطرف ما ذكر في فتاوي أبي يوسف، فتوى جميلة جداً: عندما حدثت بين هارون الرشيد وزوجته زبيدة مشكلة، انتهت بيمين الطلاق، ولكنه يمين غريب، حيث حلف هارون الرشيد فقال: عليّ الطلاق ألا تبيتي في ملكي الليلة، فأين تذهب؟ وملك هارون الرشيد واسع وكبير، تحتاج عدة أشهر حتى تخرج من ملكه، وكان يحب زوجته، لكنها كانت نزوة غضب، فقبل قدوم الليل ندم هارون الرشيد على هذا اليمين، وبدأ من حوله يسألون ليجدوا حلاً لهذه القضية، فتوجهوا إلى قاضي القضاة أبي يوسف، فقيه الفقهاء، فقالوا: هل من مخرج من هذه القضية؟

قال: نعم، فتعجبوا، قال: تبيت في المسجد، فالمسجد ليس من ملكه، وتلا قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن:81).

وحُملت زوجة الخليفة إلى المسجد، وقضت تلك الليلة فيه، ساجدة قائمة شاكرة لله عز وجل، وتعلّم الخليفة من هذا درساً عظيماً ألا يستعجل في الحلف، وتعلم أيضاً أن ملكه لا يتناول مساجد الله، فهذا ليس من ملكه، وإنما هو ملك لله رب العالمين.

وعرف الناس جميعاً وعلى رأسهم الخليفة عظمة الإمام أبي يوسف الذي تعلم على يد أستاذه العظيم أبي حنيفة فنون التحليل العقلي والاستنباط الشرعي..



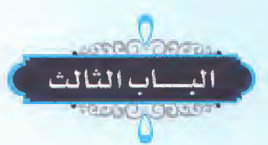
وريث أبي حنيفة

قاد أبو يوسف مدرسة أبي حنيفة بعد وفاته رحمه الله، وصار قاضي القضاة في الدولة العباسية، ومن خلال هذا المنصب عيّن من يؤيده في فتاويه التي يرى أنها الحق، وانتشر الفقه الحنفي بناء على ذلك.

ورغم انشغاله بهذا المنصب، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يدير حلقة أبي حنيفة بعد وفاته، فيُدرِّس، ويملي، ويحدِّث، بالإضافة إلى التأليف والكتابة، فهو رجلٌ انشغل بالعلم، وينشر العلم، وكان هذا هدفه في الحياة ومسيره فيها.

ولذلك يرى أكثر العلماء أن أبا يوسف هو أول من وضع أصول الفقه الحنفي، والحقيقة أن الذي وضعها هو أبو حنيفة، لكن هو الذي نشرها، وألّف بها التأليفات التي استمرت وظلّت وبُثت في أقطار الأرض.

قال عنه طلحة بن محمد بن جعفر: «أبو يوسف مشهور الأمر، ظاهر الفضل، وهو صاحب أبي حنيفة، وأفقه أهل عصره، ولم يتقدمه أحد في زمانه، وكان النهاية في العلم والحكم والرئاسة والقدر، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبثّ علم أبي حنيفة في أقطار الأرض».



مؤلفات أبي يوسف

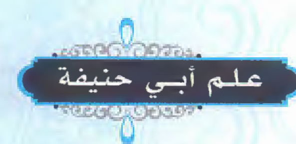
لأبي يوسف كتب كثيرة، دوّن فيها آراءه، وآراء شيخه، وقد ذكر ابن النديم تلك الكتب، فقال: «ولأبي يوسف من الكتب في الأصول والأمالي: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الحدود، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب الصيد والذبائح، كتاب الغصب والاستبراء، كتاب اختلاف الأمصار، كتاب الرد على مالك بن أنس، ورسالة في الخراج إلى الرشيد، كتاب الجوامع، ألفه ليحيى بن خالد، يحتوي على أربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به، ولأبي يوسف إملاء رواه بشر بن الوليد القاضي، يحتوي على ستة وثلاثين كتاباً مما فرغه أبو يوسف».

وله أيضاً كتاب الآثار، واختلاف ابن أبي ليلى، والرد على سير الأوزاعي.

وللأسف فإن معظم هذه الكتب فُقدت أو في حكم المفقود، ومعظمها فُقد في غزو التتار لبغداد، لما قُضي على الدولة العباسية، وكانت جريمة من جرائم التتار، لما أخذوا الكتب من المكتبات الإسلامية، ورموها في الأنهار، وجعلوها جسراً يمشون عليه، ويعبرون الأنهر به، ودُمِّرت هذه الثروة العلمية العظيمة، بهذه الطريقة الهمجية.



أبو يوسف وكتبه التي كتبها عن الإمام





أبو يوسف يوجه هارون الرشيد

كتاب الخراج عبارة عن رسالة كتبها أبو يوسف، يجيب فيها عن أسئلة للخليفة هارون الرشيد، مما يدل على حرص الحكام في ذلك الوقت على الحكم بشرع الله رب العالمين، فما كانوا يفعلون أمراً إلا بعد التأكد أنه يوافق شرع الله، فكانوا يطلبون الفتوى، ويطلبون الحكم من هؤلاء العلماء، ولذلك لما احتار هارون الرشيد في بعض القضايا،طلب من هذا القاضي العظيم، والعالِم الجليل أبي يوسف، أن يعطيه الجواب على هذه المسائل، بالاستدلال بالقرآن والسنة وأفعال الصحابة، ففعل ذلك، وأضاف إليها آراء أبي حنيفة في القضايا الاجتهادية، ولنسمع بداية هذا الكتاب، حتى نعرف طبيعة العلاقة بين العلماء والحكام في ذلك الزمان؛ لتكون نبراساً لعلمائنا على مدى الزمان.

يقول أبو يوسف في بداية كتاب الخراج: «أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولاً بنعيم الآخرة الذي لا ينفد ولا يزول، ومرافقة النبي ﷺ».

ثم قال: إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى، سألني أن أضع له كتاباً جامعاً، يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به.

ثم قال: وإنما أراد أمير المؤمنين بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم، وفّق الله أمير المؤمنين وسدده، وأعانه على ما تولى من ذلك.

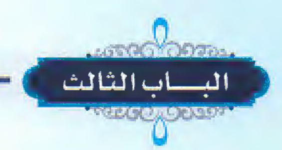
ثم قال: وطلب مني أن أبين له ما سألني عنه، مما أراد العمل به، وأفسره وأشرحه،وقد فسّرت ذلك وشرحتُه.

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن اللهَ وله الحمد، قد قلّدك أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلّدك الله تعالى أمر هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت، وأنتَ تبني لخلق كثير، قد استرعاكهم الله، وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم، وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان إذا أُسس على غير التقوى، أن يأتيَه اللهُ من القواعد، فيهدمه على من بناه، وأعان عليه، فلا تضيعنَّ ما قلّدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، فإنك إن فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل.

ثم بدأ بعد ذلك بالحديث المفصَّل عن أحكام هذه القضية.

فانظر إلى هذه المقدمة الرائعة الموجهة من عالم عظيم إلى خليفة عظيم حريص على الحكم بشرع الله..

أبو يوسف الإمام الجليل توفي بعد وفاة الإمام أبي حنيفة باثنتين وثلاثين سنة، كان فيها مركزاً ومصدراً للفقه الحنفي.



2 محمد بن الحسن

هو محمد بن الحسن الشيباني، ويكنى أبا عبد الله، ونسبته إلى شيبان بالولاء، لا بالنسب الأصيل.

ولد سنة 132هـ، ومات سنة 189هـ، ولقد كان عمره يوم مات أبو حنيفة نحو الثامنة عشرة، فهو لم يتلقَ عن أبي حنيفة أمداً طويلاً، ولكنه أتم دراسته لفقه العراق على أبي يوسف.

ولقد أخذ عن الثوري والأوزاعي، ورحل إلى مالك، وتلقى عنه فقه الحديث والرواية، وآراء مالك، بعد أن تلقّى عن العراقيين فقه الرأي والدراية، ومكث عند الإمام مالك رحمه الله تعالى ثلاث سنوات.

وقد ولي القضاء للرشيد، وإن لم يصل إلى مرتبة قاضي القضاة كشيخه أبي يوسف.

وكانت له دراية واسعة بالغة في الأدب، فاجتمع له بذلك ثقافة لسانية ودربة بيانية.

وكان يُعنى بملبسه، وله منظر جليل، حتى لقد قال فيه الشافعي: «كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب» وقال فيه أيضاً: «كان أفصح الناس، كان إذا تكلّم خُيِّل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته».



لم يقف لهارون الرشيد

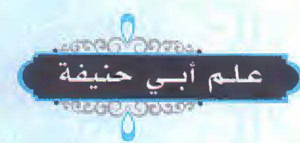
وكان الإمام محمد بن الحسن مع اتصاله بالسلطان، موفور الكرامة في نفسه، فلم يبذل نفسه، ولا ماء وجهه، روى الخطيب البغدادي: أن الرشيد أقبل يوماً، فقام الناس كلهم إلا محمد بن الحسن، فإنه لم يقم، فخرج الآذن، ونادى محمد بن الحسن، فجزع أصحابه له.

فلما خرج محمد بن الحسن سُئل عما كان، فقال: قال لي أمير المؤمنين: ما لَكَ لِمَ لم تقم مع الناس؟

قلت: كرهتُ أن أخرج من الطبقة التي جعلتني فيها، إنك أهلتني للعلم، فكرهتُ أن أخرج إلى طبقة الخدمة».

فقبل منه ذلك أمير المؤمنين واستحسن موقفه..

فانظر إلى حرص العلماء على إبقاء الهيبة للعلم، وانظر إلى حرص الأمراء على احترام العلماء..





تلميذ الكبار

اجتمع لمحمد بن الحسن ما لم يجتمع لغيره من أصحاب أبي حنيفة، غير شيخه أبي يوسف، فهو قد تلقى فقه العراق كاملاً، وقد صقله القضاء، إذ تلقى عن الإمام الأعظم أبي حنيفة، ثم عن أبي يوسف القاضي.

وتلقى فقه الحجاز كاملاً عن شيخ المدينة مالك، وفقه الشام عن شيخ الشام الأوزاعي.

وكانت له قدرة ومهارة في التفريغ والحساب، ويملك عنان البيان.

ثم تمرّس بالقضاء، فكانت هذه الولاية دراسة أخرى أفادته علماً وتجربة، وقربت فقهه من الناحية العملية، وجعلته ينحو نحو العمل، ولا يقتصر على التصور، والنظر المجرد.

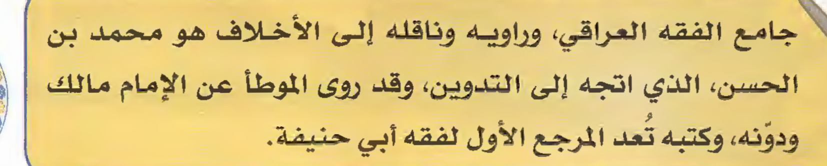


التدوين

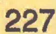
وكان في محمد اتجاه إلى التدوين، فهو الذي يُعد بحق ناقل فقه العراقيين إلى الأخلاف، ولم يكن نقله مقصوراً على العراقيين، فقد روى الموطأ عن مالك ودونه، وتعد روايته له من أجود الروايات.

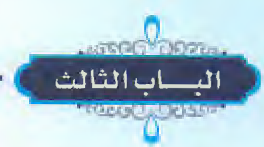
ومكانة محمد بن الحسن بين العراقيين أتت من كونه إماماً مجتهداً، له آراء ذات قيمة فقهية، ومن أنه قد جمع فقه العراق وفقه الحجاز، ومن كونه جامع الفقه العراقي، وراويه وناقله إلى الأخلاف.

وكُتُب الإمام محمد تعد المرجع الأول لفقه أبي حنيفة، سواء في ذلك ما كان بروايته عن أبي يوسف وراجعه عليه، وما كان قد دونه من المعروف من فقه العراق، وتلقاه عن أبي يوسف وغيره.



جامع الفقه العراقي، وراويه وناقله إلى الأخلاف هو محمد بن الحسن، الذي اتجه إلى التدوين، وقد روى الموطأ عن الإمام مالك ودوّنه، وكتبه تُعد المرجع الأول لفقه أبي حنيفة.





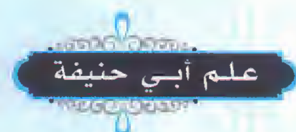
كُتُب محمد بن الحسن

كتب الإمام محمد قسمان: ما ثبتت نسبته إليه، وهي كتب ظاهر الرواية، وتُسمّى الأصول، وما يلحق بها، والقسم الثاني: لم تكن روايتها ثابتة كالأولى، وهي كتب غير ظاهر الرواية.

من أهم الكتب في الفقه الحنفي كتب ظاهر الرواية وهي: المبسوط، والزيادات، والجامع الصغير، والسير الصغير، والسير الكبير، والجامع الكبير، وتسمّى الأصول، وسُميت بظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد روايات الثقات، فهي ثابتة عنه، إما متواترة أو مشهورة.

ويلحق بهذا القسم غير كتب ظاهر الرواية، ككتاب الآثار، وقد جمع فيها الآثار التي يحتج بها الحنفية، وكتاب الرد على أهل المدينة، وقد رواه عنه الشافعي في الأم، وتعقبه بالرد والانتصاف لأهل المدينة في كثير من مواضعه.

القسم الثاني: كتب للإمام محمد لم تبلغ نسبتها إلى محمد مبلغ القسم الأول، وهي الكيسانيات، والهارونيات، والجرجانيات، والرقيات، وزيادة الزيادات، ويقال لها: غير ظاهر الرواية، لأنها لم تروَ عن محمد بروايات ظاهرة، ثابتة كالأولى.



3 زُفر بن الهذيل

هو أقدم صحبة لأبي حنيفة من صاحبيه أبي يوسف ومحمد، ولكنه توفي وعمره ثمان وأربعين سنة عام 158هـ.

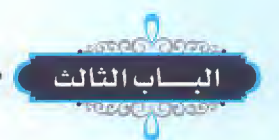
ولقد كان أبوه عربياً، وأمه فارسية، فكانت له خصائص العنصرين.

وكان قوي الحجة، أخذ عن أبي حنيفة فقه الرأي حتى غلب عليه ما سواه، وكان أقدر أصحاب أبي حنيفة على القياس.

وزُفر لم تؤثر عنه كتب، ولم تُعرف له رواية لمذهب شيخه، ويظهر أن السبب في ذلك قِصَر حياته بعد الإمام الأعظم أبي حنيفة، فقد توفي بعده بنحو ثماني سنوات، بينما الصاحبان عاش كل منهما بعده أكثر من ثلاثين سنة، فتوافر لهم زمن الكتابة والتدوين والمراجعة والدرس..

وقد نقل تلاميذه بعض آرائه وفقهه من بعده، فعرفنا منها قدرته العلمية والعقلية..





تلاميذ آخرون

ومن فقهاء المذهب الحنفي الذين يعدون من رواة أبي حنيفة: الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي، المتوفى سنة 204هـ، قال عنه الخطيب: «أحد أصحاب أبي حنيفة الفقيه، حدّث عن أبي حنيفة، روى عنه محمد بن سماعة القاضي، ومحمد بن شجاع الثلجي، وشعيب بن أيوب الصريفيني، وهو كوفي نزل ببغداد».

وقال عنه الذهبي: «العلامة فقيه العراق.. كان أحد الأذكياء البارعين في الرأي، ولي القضاء بعد حفص بن غياث، ثم عزل نفسه».

ومن تلاميذ أبي حنيفة كذلك: حفص بن غياث بن طلق بن معاوية أبو عمر الكوفي القاضي: قال عنه الذهبي: «الإمام الحافظ أبو عمرو النخعي الكوفي، قاضي بغداد ثم قاضي الكوفة».

وقال عنه ابن حجر: «القاضي، ثقة، فقيه، تغير حفظه قليلاً في الآخر، مات سنة 195هـ، وقد قارب الثمانين».

هذا العالِم الجليل أبو حنيفة، بهذه المدرسة العظيمة، خرَّج تلاميذ أصبحوا علماء مجتهدين، نشروا العلم، وخلَّدوا هذه المدرسة، وأشهرهم أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وزُفر بن الهذيل..
فكانت مدرسة أبي حنيفة من أجلّ المدارس في تخريج العلماء..



الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي



عبد الله بن المبارك

ومن تتلمذ على يد أبي حنيفة عبد الله ابن مبارك.

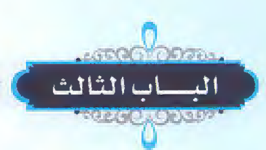
قال عنه الذهبي: الإمام، شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبد الرحمن الحنظلي، مولاهم ا لتركي، ثم المروزي، الحافظ الغازي، أحد الأعلام».

وقال الخطيب: «وكان من الربانيين في العلوم، الموصوفين بالحفظ، ومن المذكورين بالزهد».

وقال عنه أحمد بن سالم: «كان ابن المبارك إماماً يُقتدى به، وكان من أثبت الناس في السنة، إذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك بشيء فاتهمه على الإسلام».

مات سنة 181هـ، وهو ابن ثلاث وستين سنة.

عبد الله بن المبارك



2 كتب الإمام

لم يكن عصر الإمام رحمه الله تعالى عصر تأليف وتدوين، ولم يكن الإمام ذلك العالِم الذي فرّغ نفسه للتأليف والإملاء، فليله للعبادة، ونهارُه للعلم والتعليم، والتجارة، شَغَله التدريس عن التأليف، لذلك لم تكن للإمام رحمه الله تعالى تآليف كثيرة تتناسب مع مكانته العلمية العظيمة.

لقد ثبت أنه رحمه الله، ألّف في علم الكلام، الفقه الأكبر، الفقه الأوسط، وكتاب العالم والمتعلم، وكتاب الرسالة إلى مقاتل بن سليمان صاحب التفسير، وكتاب الرسالة إلى عثمان البتي فقيه البصرة، وكتاب الوصية، وهي وصايا عدة لأصحابه رحمه الله.

وقد أملى -من كتب الحديث- كتاب الآثار المنسوب إلى محمد بن الحسن رحمه الله تعالى.



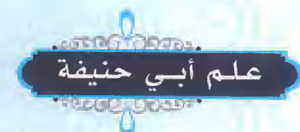
الأول في تبويب الفقه

كما أملى وألّف في الفقه وأصوله، سابقاً بذلك سواه من كرام العلماء، دوّن أبو حنيفة الفقه، فجعله أبواباً مبوبة، وكتباً مرتبة، فبدأ بالطهارة، ثم بالصلاة، ثم سائر العبادات، وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلاة؛ لأن المسلم يخاطب (بعد صحة الاعتقاد) أول ما يُخاطَب بالصلاة، لأنها أخص العبادات، وأعم وجوباً.

وأخّر المعاملات، لأن الأصل عدمها وبراءة الذمة منها، وختمه بالوصايا والمواريث؛ لأنها آخر أحوال الإنسان، فما أحسَنَ ما ابتدأ به وختم، وما أحذقه، وما أفهمه، وأفقهه، وأمهره، وأعلمه، وأبصره، فصار منهجه في هذا التبويب منهجاً للعلماء في كل زمان.

ثم جاء الأئمة من بعده، فاقتبسوا من علمه، واقتدوا به، وفرّعوا كتبهم على كتبه.

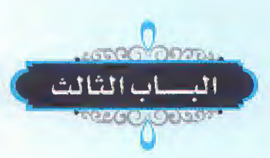




الأول في المواريث والشروط

وهو رحمه الله تعالى أول من وضع كتاباً في الفرائض (المواريث)، وأول من وضع كتاباً في الشروط، والشروط لا يستطيع أن يضعها إلا من تناهى في العلم، وعرف مذاهب العلماء ومقالاتهم؛ لأن الشروط تتفرع على جميع كتب الفقه، ويتحرز بها من كل المذاهب لئلا يتعقبها حاكم بنقض أو نسخ، وليس العجب ممن جاء فتعلمها وهي موضوعة، وإنما العجَبَ ممن ابتدأها ووضعها.

لم يكن عصر أبي حنيفة عصر تدوين وتأليف، فلم تكن له تآليف كثيرة، وإنما أُثرت عنه بعض الكتب والرسائل والوصايا، ولأبي حنيفة فضل السبق في تدوين الفقه وتبويبه، وهو أول من وضع كتاباً في المواريث وكتاباً في الشروط..



3 نمو المذهب وانتشاره

كان الإمام -رحمه الله تعالى- صادقاً مع الله تعالى في أخذ العلم وبذله، مخلصاً لله تعالى في تبليغ الفقه والعلم إلى الناس في كل صقع ومكان، وقد رأينا كيف بارك الله تعالى في عمره وعلمه، فقد قصده طلاب العلم، وشداة الفقه من كل حدب وصوب، فاغترفوا من علمه، وعبوا من فقهه، ثم عادوا إلى بلادهم يعلمون الناس ويفقهونهم.



عوامل انتشار المذهب

نما المذهب الحنفي بالاستنباط والتخريج نمواً عظيماً، وكانت عوامل نموه ترجع إلى ثلاثة أمور:

أولها: كثرة التلاميذ

كثرة تلاميذ أبي حنيفة، وعنايتهم بنشر آرائه، وبيان الأسس التي قام عليها فقهه، وقد خالفوه في القليل، ووافقوه في الكثير، وعنوا ببيان دليله في الوفاق وفي الخلاف معاً.

وقد أكثروا من التفريع على آرائه، وبيان الأقيسة التي قام عليها التفريع.

ثانيها: تلاميذ التلاميذ

جاء بعد تلاميذه طائفة أخرى عُنيت باستنباط على الأحكام، وتطبيقها على ما يجدّ من الوقائع في العصور، وإنهم بعد أن استنبطوا علل الأحكام التي قامت عليها فروع المذهب، جمعوا المسائل المتجانسة في قواعد عامة شاملة، فاجتمع في المذاهب التفريع، ووضع القواعد والنظريات العامة التي تجمع أشتاته، وتوجه إلى كلياته.

ثالثها: المذهب الرسمي للدولة

انتشاره في مواطن كثيرة، ذات أعراف مختلفة، وتتولد فيها أحداث تقتضي تخريجات كثيرة؛ وذلك لأنه كان يُعتبر مذهب الدولة العباسية الرسمي، فمكث بهذا أكثر من خمسمائة سنة يطبق في نواحي البلاد الإسلامية، وذلك لأن الرشيد عيّن أبا يوسف قاضياً لبغداد، وما كان القضاة يعينون إلا باقتراحه في كل الأقاليم، فكان لا يعيِّن إلا من يعتنق المذهب العراقي، وبذلك عمّ وذاع.



قال الفقيه المحدِّث مسعود بن شيبة في كتابه (التعليم) والفقيه المحدث الشيخ عبد الرشيد النعماني في تعليقه عليه: ولم يزل الخلفاء الراشدون، المهديون من آل عباس بن عبد المطلب، ذاهبين هذا المذهب، معتقدين لأصوله، عاملين بفروعه، ناصرين لأصحابه، أولهم المنصور، والمهدي، والرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمعتضد، والمقتدر، والمطيع، والقادر، والقائم، والمكتفي، وكانوا جميعاً من المبرزين في علم الأصول والفروع، من أهل النظر والفتيا على مذهب أبي حنيفة، وكذلك سلاطين آل طاهر، وآل سامان، وآل الليث، وآل صفار، وآل سبكتكين، وآل سلجوق، الذين كانوا ملوك الإسلام، وسلاطين الأرض، كانوا على مذهب أبي حنيفة، منتمين إليه، متعصبين له، إلى يومنا هذا».



البلاد التي ذاع فيها

انتشر المذهب الحنفي في كل بلد للدولة العباسية سلطان فيه، وكان يخف سلطانه كلما خفّ سلطانها، غير أن بعض البلاد تغلغل المذهب فيها بين الشعب، وبعض البلاد كان هو المذهب الرسمي من غير أن يسود بين الشعب في العبادات..

فكان في العراق وما وراء النهر، والبلاد التي فتحت في المشرق، المذهب الرسمي، وكان مع ذلك مذهباً شعبياً، وإن نازعه في بلاد التركستان، وما وراء النهر المذهب الشافعي في وسط الشعب، وكانت المناظرات تجري بين الشافعية والحنفية، وكانت المآتم تحيا بالمناظرات الفقهية، فكانت هي العزاء، ومن المناظرات الفقهية المستمرة تولدت الأدلة المختلفة، فتولد عنها علم، ولم يتولد عنها عداوة.

وإذا تركنا العراق وما وراءه من بلدان المشرق، تجد المذهب الحنفي يسود في الشام شعباً وحكومة.

حتى إذا جاء إلى مصر وجد المذهب المالكي والمذهب الشافعي يتنازعان السلطان في الشعب المصري، الأول لإقامة كثيرين من تلاميذ الإمام مالك، والثاني لإقامة الشافعي بمصر في آخر حياته ودفنه بها، وكان للمذهبين علماء أجلاء، فلما جاء المذهب الحنفي كان له سلطان رسمي، ولم يكن له سلطان شعبي، حتى جاءت الدولة الفاطمية فأزالت ذلك السلطان، وأحلّت محله المذهب الشيعي الإمامي، حتى إذا حلّ محلهم الأيوبيون قووا نفوذ المذهب الشافعي، حتى جاء نور الدين الشهيد، فأراد نشر المذهب الحنفي في الشعب، وأنشأ له المدارس، ولما جاءت دولة المماليك جعلت القضاء بالمذاهب الأربعة، حتى آل الأمر إلى محمد علي، فأعاد إلى المذهب الحنفي صفته الرسمية متفرداً.

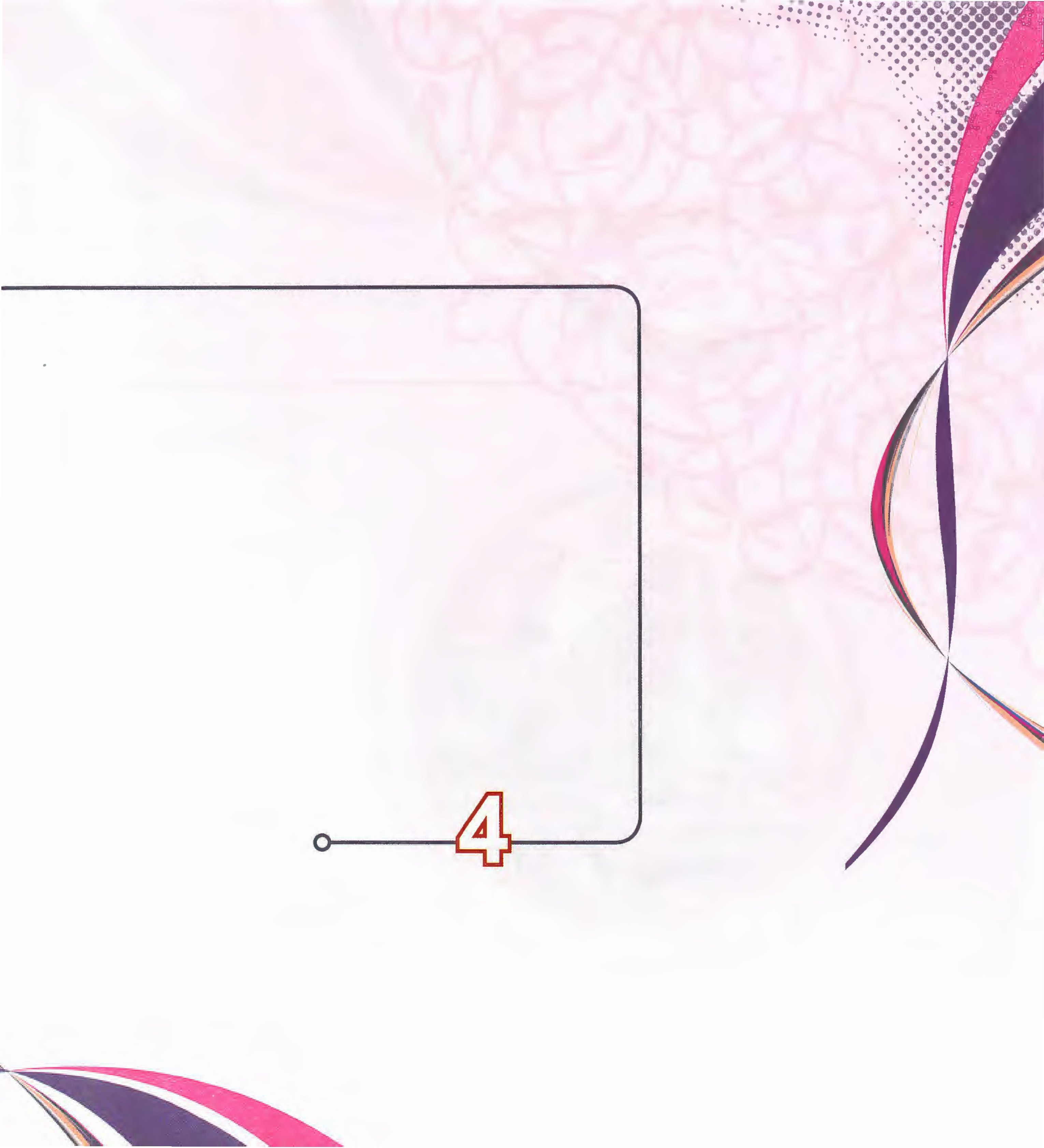
ولم يتجاوز المذهب الحنفي بلاد مصر إلى المغرب إلا في عهد أسد بن الفرات، وكان ذلك زمناً قصيراً، لأن دولة الأغالبة كانت ذات سلطان، وانفرد المذهب المالكي بالنفوذ في المغرب والأندلس.

انتشر فقه أبي حنيفة ومذهبه في كل مكان، لكثرة تلاميذه وعنايتهم بنشر آرائه، وقد اعتمده كثير من الخلفاء والحكام، فكان المذهب الرسمي للدولة العباسية ومن جاء بعدهم، فانتشر في العراق، وما وراء النهر، وبلاد المشرق، ثم في الشام ومصر.. ولم ينتشر في المغرب إلا زمناً قصيراً في عهد أسد بن الفرات..



الباب الرابع

الرحيل والمناقب


4

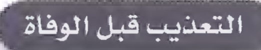


الفصل الأول 1

الرحيل



الفصل الأول: الرحيل والمناقب



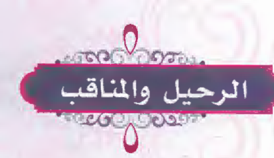
1 وفاة الإمام

التعذيب قبل الوفاة

جاء في المناقب لابن البزازي: أن أبا حنيفة بعد أن حُبس وضُيِّق عليه مدة، كلَّم المنصورَ بعضُ خواصه، فأُخرج من السجن، ومُنع من الفتوى والجلوس للناس، والخروج من المنزل، فكانت تلك حالته إلى أن توفي.

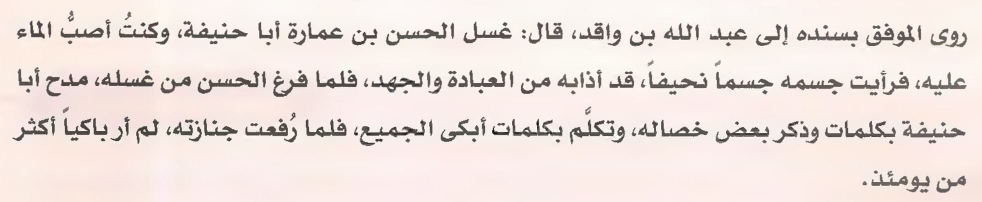
وروى الموفق بسنده إلى داود بن راشد الواسطي، قال: كنتُ شاهداً في الأيام التي كان أبو حنيفة يُعذَّب ليَلِيَ القضاء.. فلما أبى عليهم ضيَّقوا الأمر في الطعام والشراب والحبس، فلما أبى عليهم دسوا إليه السم وقتلوه.

والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ما كان السبب القريب لموت الإمام رحمه الله تعالى.





غسله

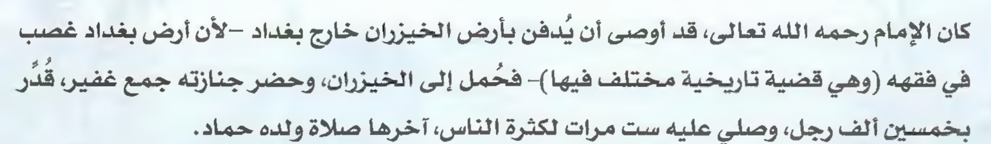


روى الموفق بسنده إلى عبد الله بن واقد، قال: غسل الحسن بن عمارة أبا حنيفة، وكنتُ أصبُّ الماء عليه، فرأيت جسمه جسماً نحيفاً، قد أذابه من العبادة والجهد، فلما فرغ الحسن من غسله، مدح أبا حنيفة بكلمات وذكر بعض خصاله، وتكلَّم بكلمات أبكى الجميع، فلما رُفعت جنازته، لم أر باكياً أكثر من يومئذ.

وكانت الكلمات التي تكلَّم بها الحسن: «رحمك الله وغفر لك، لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة، وقد أتعبت من بعدك، وفضحت القراء».

دفنه





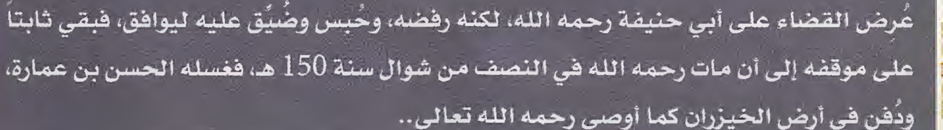
كان الإمام رحمه الله تعالى، قد أوصى أن يُدفن بأرض الخيزران خارج بغداد –لأن أرض بغداد غصب في فقهه (وهي قضية تاريخية مختلف فيها)- فحُمل إلى الخيزران، وحضر جنازته جمع غفير، قُدِّر بخمسين ألف رجل، وصلي عليه ست مرات لكثرة الناس، آخرها صلاة ولده حماد.

وجاء المنصور فصلّى على قبره، ومكث الناس الذين لم يحضروا الجنازة يصلون على قبره أكثر من عشرين يوماً.

ولما بلغ المنصور أن أبا حنيفة أوصى أن يُدفن هناك –حيث دُفن- قال: من يعذرني من أبي حنيفة حياً وميتاً؟ (أي لأنه أفتى بأن بغداد أرض مغصوبة مما ضايق الخليفة منه ميتاً بعدما كان متضايقاً منه حياً لعدم موالاته للدولة لما رآه من ظلم فيها).

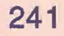
قال أبو يوسف: مات أبو حنيفة في النصف من شوال سنة 150هـ، رحمه الله تعالى.





عُرض القضاء على أبي حنيفة رحمه الله، لكنه رفضه، وحُبس وضُيِّق عليه ليوافق، فبقي ثابتاً على موقفه إلى أن مات رحمه الله في النصف من شوال سنة 150 هـ، فغسله الحسن بن عمارة، ودُفن في أرض الخيزران كما أوصى رحمه الله تعالى..

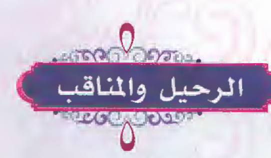




2 الأقوال عند وفاته

الفضيل بن عياض

قال معاصره العابد الورع الفضيل بن عياض: كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه، واسع المال، معروفاً بالأفضال على كل من يطيف به، صبوراً على تعلم العلم بالليل والنهار، حسن الليل، كثير الصمت، قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام، فكان يحسن أن يدلّ على الحق، هارباً من مال السلطان.



مليح بن وكيع

وقال معاصره مليح بن وكيع: كان -والله- أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان -والله- جليلاً كبيراً عظيماً، يؤثر رضى ربه على كل شيء، ولو أخذته السيوف في الله لاحتمل، رضي الله عنه رضى الأبرار فقد كان منهم.

انطلقت ألسنة العلماء بعد وفاة أبي حنيفة بالثناء عليه في دينه وأمانته، وفقهه، وكرمه، وعبادته، رحمه الله ورضي عنه.

شعبة بن الحجاج

ولما بلغ شعبة موته رحمه الله تعالى استرجع وقال: طفي على الكوفة نور العلم، أما إنهم لا يرون مثله أبداً.

ابن جريج

وقال رَوْح بن عبادة: كنت عند ابن جريج سنة خمسين ومائة، وأتاه موت أبي حنيفة، فاسترجع وتوجع، وقال: أي علم ذهب؟!



محمد بن مقاتل

قال الحمّاني: سمعت أبي يقول: رأيت في النوم، كأن ثلاثة نجوم سقطت، فمات أبو حنيفة، ثم مسعر، ثم سفيان، رحمهم الله تعالى، فذكر ذلك لمحمد بن مقاتل فبكى، وقال: العلماء نجوم الأرض.



2 الفصل الثاني

المناقب



الفصل الثاني: المناقب



العلم والمعاصي

روى زُفر بن الهذيل أن الإمام رحمه الله تعالى قال: من لم يمنعه العلم عن محارم الله تعالى، ولم يحجزه عن معاصي الله تعالى، فهو من الخاسرين.

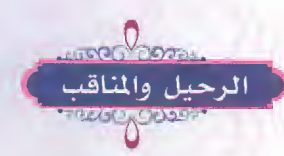
العلماء هم الأولياء

روى الفضيل بن دكين عنه أنه قال: إن لم يكن أولياء الله في الدنيا والآخرة الفقهاء والعلماء، فليس لله ولي.



فضل الجهاد

روى إبراهيم بن سويد عنه أنه قال: غزوة بعد حجة الإسلام، أفضل من خمسين حجة.



حب الرئاسة

روى ابن المبارك عنه أنه قال: من طلب الرياسة في غير حينه، لم يزل في ذلٍّ ما بقي.

الإيمان والكفر

روى محمد الليثي عنه قال: أعظم الطاعات الإيمان بالله تعالى، وأعظم المعاصي الكفر بالله تعالى، فمن أطاع الله تعالى في أعظم الطاعات، وانتهى عن أعظم المعاصي، رجونا له الغفران فيما يأتي بعد ذلك.



النية في العلم

روى أبو شهاب عنه قال: من تعلّم العلم للدنيا، حُرم بركته، ولم ينتفع به أحد كثير، ومن تعلمه للدين بورك في علمه، ورسخ في قلبه، وانتفع المقتبسون منه بعلمه.



الحساب على العلم

وروى أبو يوسف عنه قال: من تكلّم في شيء من العلم وهو يظن أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيت في دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه.



طلب السلامة

قال يزيد بن الكميت: ناظر رجل أبا حنيفة وقال له: اتقِ الله، فانقبض واصفرّ لونه، وطأطأ رأسه، ثم قال: يا أخي جزاك الله خيراً، فما أحوج الناس إلى من يذكرهم الله وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم، حتى يريدوا الله بأعمالهم، اعلم أني ما نطقتُ بالعلم إلا وأنا أعلم أن الله عز وجل يسألني عن الجواب، ولقد حرصت على طلب السلامة.



الروح الإيجابية

قال بكر بن جعفر: ربما دخل داخل على أبي حنيفة، فيقول: كان كيت وكيت. (أي ينقل له ما يقوله الناس فيه من السب والذم).

فإذا أكثر، قال أبو حنيفة: دع ما أنت فيه، ما تقول في كذا وكذا؟ (أي من مسائل الفقه) فيقطع عليه كلامه.

ويقول: إياكم ونقل ما لا يحبه الناس -أي من حديث الناس- عفا الله عمن قال فينا مكروهاً، رحم الله من قال فينا جميلاً، تفقهوا في دين الله، وذروا الناس وما وصفوا لأنفسهم، فيحوجهم إليكم.

وروى الحسن بن زياد عنه قوله: من كرمت عليه نفسه، هانت عليه الدنيا وكل شدة فيها.

وقال: من أراد أن ينجو من عذاب الآخرة، فلا يُبالِ من عذاب الدنيا.

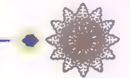


لم يزل أبو حنيفة رحمه الله طول حياته يقدِّم النصائح لتلاميذه بأفعاله وأقواله..

2 شهادة الناس فيه

قال السمعاني في الأنساب: واشتغل أبو حنيفة بطلب العلم، وبالغ فيه، حتى حصل له ما لم يحصل لغيره، ودخل يوماً على المنصور وعنده الوزير عيسى بن موسى، فقال للمنصور: هذا عالم الدنيا اليوم.

- وذكر المكي بن إبراهيم أبا حنيفة فقال: كان أعلم أهل زمانه، ما رأيت في الكوفيين أورع منه.
- وقال يوسف القاضي: ما رأيتُ أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة.
- وعن شداد بن حكيم قال: ما رأيتُ أعلم من أبي حنيفة.
- وقال عبد الله بن داود: يجب على أهل الإسلام أن يدعوا الله تعالى لأبي حنيفة في صلاتهم، قال: وذكر حفظه عليهم السنن والفقه.
- عن محمد بن مسلمة قال: قال خلف بن أيوب: صار العلم من الله تعالى إلى محمد ﷺ، ثم قال: إلى أصحابه، ثم إلى التابعين، ثم صار إلى أبي حنيفة وأصحابه.
- قيل للقاسم بن معن بن عبد الرحمن المسعودي: ترضى أن تكون من غلمان أبي حنيفة؟ فقال: ما جلس الناس إلى أحد أنفع مجالسة من أبي حنيفة.
- وقال عبد الله بن المبارك: أفقه الناس أبو حنيفة، ما رأيت في الفقه مثله.
- وقال أيضاً: لولا أن الله تعالى أعانني بأبي حنيفة، وسفيان، كنتُ كسائر الناس.
- وقال أبو نعيم: كان أبو حنيفة صاحب غوص في المسائل.
- يقول محمد بن بشر: كنت أختلف إلى أبي حنيفة وإلى سفيان الثوري، فآتي أبا حنيفة فيقول: من أين جئت؟ فأقول: من عند سفيان، فيقول: لقد جئت من عند رجل لو أن علقمة والأسود حضرا لاحتاجا إلى مثله، يقول: ثم آتي سفيان، فيقول لي: من أين أتيت؟ فأقول: من عند أبي حنيفة، فيقول: لقد جئتَ من عند أفقه أهل الأرض.





سفيان الثوري يكرمه

دخل أبو حنيفة يوماً على سفيان الثوري معزياً، وإذ بسفيان يترك مكانه، ويقوم يتعانق مع أبي حنيفة، ثم يأتي به ويجلسه في مكان كريم، ثم يجلس سفيان بين يديه، فأنكر بعض تلاميذ سفيان ذلك.

فلما انصرف الناس، جاء ابن عياش وسأل سفيان، فقال: يا أبا عبد الله، رأيتك اليوم فعلت فعلاً أنكرته وأنكره أصحابنا عليك.

قال سفيان: ما هو؟

قال ابن عياش: جاء أبو حنيفة فقمتَ إليه، وأجلسته في مجلسك، وصنعتَ به صنيعاً بليغاً، وهذا عند أصحابنا منكر.

فقال سفيان: وما أنكرتَ من ذلك؟! هذا رجل من العلم بمكان، فإذا لم أقم لعلمه، قمتُ لسنه، وإن لم أقم لسنه، قمتُ لفقهه، وإن لم أقم لفقهه، قمتُ لورعه.

قال أبو بكر: فأفحمني فلم يكن عندي جواب.

هكذا فليكن تعامل العلماء فيما بينهم، بالمحبة والإكرام، وإن كان هناك خلاف في مذاهبهم، فسفيان وهو من هو، يقوم لأبي حنيفة ويكرمه، ويجلس بين يديه.



شهادتهم له في الفقه

قال مسعر: ما أقصد أحداً بالكوفة، إلا رجلين، أبا حنيفة في الفقه، والحسن بن صالح في زهده.

وكان يقول: مَنْ جعل أبا حنيفة بينه وبين الله تعالى رجوتُ ألا يخاف، ولا يكون فرّط في الاحتياط لنفسه.

يقول سفيان: شيئان ما ظننتهما يجاوزان قنطرة الكوفة، وقد بلغا الآفاق: قراءة حمزة، وفقه أبي حنيفة.

عن النضر بن شميل قال: كان الناس نياماً في الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة، بما فتقه وبيّنه.

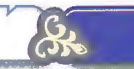
قال يحيى بن معين: سمعت يحيى القطان يقول: لا نكذب الله، ما سمعنا رأياً أحسن رأياً من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله.

وقال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

رحمك الله يا أبا حنيفة، وتقبلك عنده في عليين، وجزاك الله عنا وعن المسلمين خير ما جزى عالماً عن أمته.







الخاتمة



وبعد، فهذه سيرة العَلَم العظيم، فقيه فقهاء الأمة، الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

لقد كان حقاً عَلَماً: عَلَماً في الفقه، والحديث، والعبادة، والورع، والخُلُق الفاضل، والأدب الجم، والعلم النافع، ونصح الناس فيه.

لقد كان حقاً عَلَماً في قول الحق الذي أمر الله تعالى به، والجهر به، وإبلاغه أهله، والصبر على ذلك، حتى جاءته الشهادة في سبيل ذلك.

فيا حبذا الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى قدوة وإماماً.

رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وأعلى في جنة الفردوس مكانه، تحت لواء المصطفى ﷺ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً.

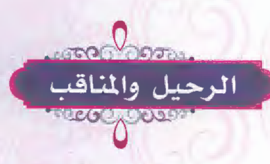


الفصل الثالث 3

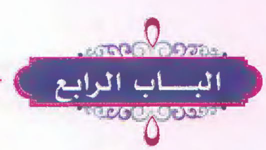
مقارنة بين الأئمة الأربعة



وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
الاسم والنسب	النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الفارسي (أصله من فارس).	مالك بن أنس بن مالك من بني أصبح، ليست بينه وبين الصحابي الجليل أنس بن مالك قرابة.	محمد بن إدريس الشافعي، يلتقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف.	أحمد بن حنبل الشيباني، عربي من شيبان سكن أهله خراسان.
مكان الولادة والنشأة	الكوفة.	المدينة.	ولد أثناء سفر والده في غزة ولكنه من مكة ونشأ فيها.	بغداد.
مولده ووفاته	80 – 150 هـ	93 – 197 هـ	150 – 204 هـ	164 – 241 هـ
رحلاته	لم تثبت له رحلات.	لم تثبت له رحلات.	المدينة، اليمن، العراق، مصر.	البصرة، مكة، المدينة، الشام، اليمن
الصفات الخلقية	متوسط القامة، أسمر مائل للبياض، طويل اللحية، جميل الطلعة، حسن الصوت، أنيق اللباس، كثير التطيب والتعطر والنظافة.	طويل، عظيم الجسد، شعره أشقر فيه صفرة، شديد البياض، واسع العينين، أشم الأنف، لحيته عظيمة تبلغ صدره، يأخذ من شاربيه ولا يحلقها.	طويل قليل لحم الوجه، طويل العنق، طويل الساقين، أسمر لكنه مشرق، خفيف العارضين، لحيته بقدر قبضة، يخضبها بالحناء الحمراء القانية.	طويل، نحيف أسمر اللون، يخضب لحيته بالحناء، يلبس البياض، والعمامة.



وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
أهم الصفات	تاجر ماهر، عالم بالمنطق والفلسفة، وعلوم الجدل، يحب المناظرة والمناقشة، اختار التخصص بالفقه حتى برع فيه.	أنيق، يلبس الحسن من الثياب، ويختار الطيب من الطعام، شديد الإتقان والحفظ، شديد الصبر، قوي العزيمة، مثابر وصابر على العلم، صاحب فراسة ونظر عميق، له مهابة خاصة خصوصاً عند العلماء.	اشتهر بالفراسة والبديهة، صاحب نظر ثاقب، معرفته واسعة بالطب، عالم بالأنساب، قوي الذاكرة، عميق المعرفة، كريم معطاء.	قوي الحفظ، شديد الورع، كثير الزهد، متين العلم، متقد الذهن، اشتهر بالاستقامة والثبات.
من أبرز مشايخه	حمّاد بن أبي سليمان، عطاء بن أبي رباح، ابن شهاب الزهري، نافع مولى ابن عمر، زيد بن علي، جعفر الصادق، عكرمة.	ابن شهاب الزهري، يحيى ابن سعيد القطان، ربيعة الرأي بن عبدالرحمن.	محمد بن الحسن، الليث ابن سعد، الإمام مالك، سفيان بن عيينه، عمرو ابن الحارث، عبدالله بن أبي جعفر.	سفيان بن عيينة، هشيم بن بشير، عبدالرزاق الصنعاني، أبويوسف، يحيى بن سعيد القطان.
المنهجية العلمية	التوسع في مصادر التشريع، التوسع في الرأي والاجتهاد، اشتهر بالقياس والعمل به، له منهج خاص في استخراج الأحكام.	اعتمد أسلوب الأثر، والفتوى الدقيقة، لا يحب أن يكتب عنه كل شيء لخشيته من الخطأ، يرفض التقليد الأعمى، ويحب الاجتهاد، يلتزم بما عليه من أهل المدينة لأنهم أقرب الناس للسنة.	بارع في الفقه وأصوله وفروعه، فقهه مزيج من قوة الرأي عند الأحناف وقوة الحديث عند المالكية، يرى أن للاجتهاد ضوابط ومقاييس.	الدقة في الحديث النبوي، التمسك بالنص وعدم التوسع في الاجتهاد، له آراء مشهورة في العقيدة والتمسك بظاهر النص دون تأويل يلغي المعنى الظاهر.



وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
المواقف السياسية	معارض سياسي، لا يرى بصحة الدولة الأموية، وكان يرى الخلافة لزيد بن علي رضي الله عنهما، وسجن وعذب في سبيل ذلك، ولكنه ثبت على مواقفه مع أنه أُغري بالمناصب، وأيد العديد من الثورات السياسية ضد الحكم الأموي.	اختلط بالخلفاء والسلاطين، وقبل أعطياتهم وهداياهم، ولا يرى حرجاً فيها، ولكنه كان عزيزاً وقوراً أمامهم، حريصاً على فرض الوقار والعزة للعلم أمام الحكام، مال إلى تأييد ثورة محمد ذي النفس الزكية.	بعيد عن السياسة، ويرى أن علي بن أبي طالب في مواقفه في الفتنة، كان على الحق، ويدافع عنه في ذلك.	صاحب مواقف قوية مع الحكام والسلاطين، لم يتنازل حتى مع ما تعرض له من تعذيب، يبتعد عن الحكام، ولا يرغب بزيارتهم أو التقرب منهم ولا يقبل عطاءهم.
من أبرز تلاميذه	أبويوسف (يعقوب بن إبراهيم) محمد بن الحسن الشيباني، زفر بن هذيل.	عبدالله بن وهب، عبدالرحمن بن قاسم، أشهب بن عبدالعزيز، أسد بن الفرات.	الحسن بن محمد الزعفراني، الحسن الكرابيسي، أبوبكر الحميدي، حرملة ابن يحيى، إسماعيل المزني، يوسف بن يحيى البويطي، سليمان المرادي.	ابناه عبدالله وصالح، أحمد بن محمد المروزي، أبو القاسم الخرقي، أحمد بن محمد الأشرم.
أصول المذهب بعد الكتاب والسنة	الإجماع، فتوى الصحابي، الحديث المرسل والضعيف، القياس (للضرورة)، المصلحة المرسلة (للضرورة).	الإجماع، إجماع أهل المدينة، القياس، قول الصحابي، المصالح المرسلة، العرف، سد الذرائع، الاستحسان، الاستصحاب.	الإجماع، قول الصحابي، القياس.	الإجماع، قول الصحابي، القياس، الاستحسان، العرف.

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
من أمهات الكتب في المذهب	الكافي (وقد جمع كتب ظاهر الرواية وهي: السير الكبير، السير الصغير، الجامع الكبير، الجامع الصغير، الزيادات). المبسوط (شرح الكافي في 30 مجلداً). حاشية ابن عابدين.	الموطأ، المدونة (وهي المعتمدة) الواضحة، العتبية، الموازية، الكافي، مختصر خليل.	الأم، الرسالة، المجموع شرح المهذب، مُغني المحتاج، روضة الطالبين.	المغني، الإقناع، الروض المقنع، الفروع، دليل الطالب، مختصر الخرقي.
من أبرز علماء المذهب	محمد بن عابدين، أبو جعفر الطحاوي.	سحنون التنوخي، يحيى الليثي، أبوبكر بن العربي، ابن عبدالبر، أبو مروان الماجشون.	أبو إسحاق الإسفراييني يحيى بن زكريا النووي، تقي الدين السبكي، العز بن عبدالسلام، أبوحامد الغزالي.	أبوبكر الخلّال، شمس الدين بن قدامة، شيخ الإسلام ابن تيمية، ابن قيم الجوزية، محمد بن عبدالوهاب.
أماكن انتشار مذهبه اليوم	شبه القارة الهندية، العراق، الشام، مصر، جنوب شرق آسيا، روسيا، الصين، تركيا، وغيرها.	مصر وشمال إفريقيا، الحجاز، الخليج، السودان.	مصر، العراق، فارس، ماليزيا، اليمن، الحجاز، عدن، باكستان، الشام، جنوب شرق آسيا وغيرها.	نجد وقليل من الشام، والعراق، ومصر، والخليج، وغيرها.



المراجع

الطبقات السنيّة في تراجم الحنفية.	للمولى تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغربي المضري الحنفي، الجزء الأول، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو. الطبعة الأولى.
الجواهر المضية في طبقات الحنفية.	محيي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي. تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو. الجزء الأول، الطبعة الثانية.
تاريخ بغداد.	الخطيب البغدادي.
تاريخ المذاهب الإسلامية في تاريخ المذاهب الفقهية.	الجزء الثاني، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
الإمام أبو حنيفة، حياته وعصره، آراؤه وفقهه.	محمد أبو زهرة.
أبو حنيفة النعمان، إمام الأئمة الفقهاء.	وهبي سليمان غاوجي الألباني، دار القلم، الطبعة الأولى.
مناقب أبي حنيفة	للإمام الموفق بن أحمد المكي، الجزء الأول، دار الكتاب العربي.
الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان.	للعلامة مفتي الحجاز الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي، دار الكتب العربية الكبرى.
الإمام الأعظم أبو حنيفة المتكلم.	عناية الله إبلاغ، الطبعة الثانية.
أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام.	عبد الحليم الجندي.
أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة.	محمد بن عبد الرحمن الخميس.
حاشية نسمات الأسحار	محمد بن عابدين، دار الكتب العربية الكبرى.
شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.	عمر بن محمد بن فتوح البيقوني، مكتبة دار الفلاح.
القاموس المحيط.	مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.
اللباب في شرح الكتاب	عبد الغني التميمي.

اقرأ أروع إصداراتنا













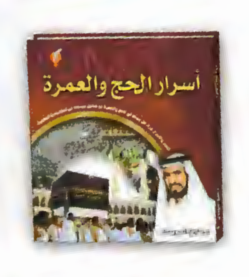



































اقرأ أروع إصداراتنا













